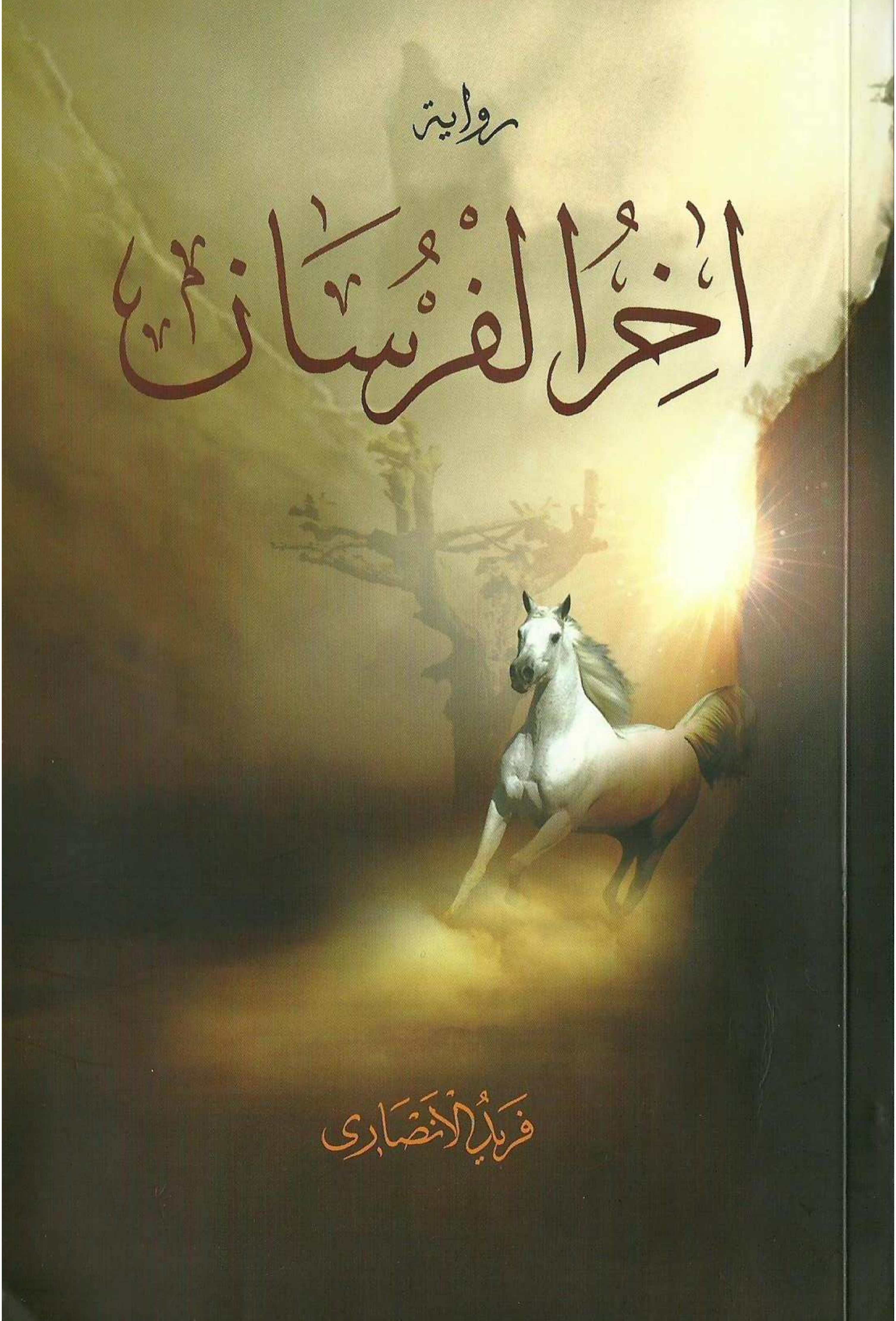
رواية
آخر الفرسان
فريد الأنصاري

رواية

آخر الفرسان

دار النيل

محفوظة
جميع الحقوق

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الخطاط: حسين قوتلو

تصميم الغلاف: إحسان دميرخان

التنسيق الداخلي: أسيد إحسان الصالحي

DARALNİLE

Emniyet Mah. Huzur Sok. No: 5
34676 Üsküdar – İstanbul / Türkiye
Tel: +90 216 3186011 Faks: +90 216 3185314

Baskı yeri:
Umut Matbaacılık
İstanbul 2006

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة – الحي السابع – م. نصر – القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤+

المحمول: ٢٠١٢٣٧٨٥١٩٢+

جمهورية مصر العربية

البريد الألكتروني
www.daralnile.com

رواية

آخر الفرسان

مكابدات
بديع الزمان سعيد النورسي

فريد الأنصاري

شكر وتنويه

وجب التنبيه إلى أن أصل هذه الرواية يرجع - من حيث المعلومـــات — بالدرجة الأولى إلى الخلاصة البديعة التي ألفها مترجم رسائل النور الأســـتاذ إحسان قاسم الصالحي — حفظه الله – عن حياة بـــديع الزمـــان ســـعيد النورسي، بعنوان (الرجل والإعصار). كما يرجع في بعض التفـــصيلات إلى الكتاب الأصل، وهو: "كليات رسائل النور"، خاصة المجلد التاسع الـــذي يتضمن "السيرة الذاتية" للنورسي. كما أنني حققت بعض التواريخ المتعلقـــة بالدولة العثمانية في مرحلة السقوط من كتاب "رجل القدر" للأستاذ الفاضل أورخان محمد علي.

وقد اخترت أن أبني فصول هذه الرواية بهندسة تجمع بـــين التـــصميم الواقعي في ترتيب الأحداث، والمعمار السريالي المجنح بالخيال في عرضـــها؛ لأن ذلك-في نظري- هو التعبير الأدبي الأنسب لتقديم صورة عـــن حيـــاة رجل كالنورسي، الذي عاش حياة درامية أشبه ما تكون بالخيال..!

هذا ولا يفوتني أن أشكر ههنا الأخوين: "نوزاد صواش" و"أشرف أونن" عما وضعاه رهن إشارتي من خرائط، وصور وثائقية، ومعلومـــات؛ حـــول تاريخ تركيا، وجغرافية مدينة "إسْطَنْبول"، وسائر المدن والقرى التي عـــاش فيها الأستاذ بديع الزمان، بدءا بقريته الصغيرة في شرق الأناضول "نُورْس" - التي ينسب إليها- وانتهاء بسائر المناطق التي نُفي إليها أو سجن فيها..

كما أشكر سائر طلاب النور الأوفياء، الـــذين استـــضافوني -خـــلال مصايف سنوات عدة- في أجمل مواقع "اسطنبول"، من مخيم "كوربينر" إلى

أكاديمية "شاملجا"، حيث كان لإشرافي على أروع مشاهد المدينة -من مآذن وقباب، وغابات، وبحار، وخلجان...إلخ- فضلٌ كبير في توارد الخواطر الشجية، التي نسجت مواجيد هذه الرواية! ولن أنسى أبدا العطف الأبوي الحنون، الذي غمرني به تلميذا بديع الزمان النورسي: المعلم الكبير مصطفى صنغور، والأستاذ العطوف فرنجاوي آبي. كما لا أنسى الرعاية الخاصة والكرم الفياض الذي طوقني به الأستاذ مصطفى أوزجان.

فلهؤلاء وأولئك جميعا مني جميل الشكر والعرفان، ومن الله العلي القدير الجزاء الأوفى.

فريد الأنصاري/ إسطنبول

18 رجب 1427هـ، 12 غشت 2006م.

فاتحة النور

"يا سعيدُ..! كُنْ صعيداً! في نُكْرَانٍ تَامٍّ للذات، وترك كلي للأنانية، وتواضعٍ مطلقٍ كالتراب! لئلا تُعَكِّرَ صَفْوَ وسائل النور، وتُقَلِّلَ من تأثيرها في النفوس!"(سعيد النورسي، الملاحق ص ١١٠)

الفصل الأول

الأشباح تهاجم المدينة . . !

إسْطَنْبولُ تَفْقدُ الليلةَ أضواءَها فجأةً! كانت خيـولُ الظـلام تكتـسح بحوافرها كل الساحات، تملأ كل الشوارع والدروب... تقـتحم الإدارات، والمدارس، والمستشفيات، وتدمر المعاهد والمساجد! كل شيء ينهار تحـت ضربات إعصار رهيب! ويعم الظلام المدينة، فلا بصيص لأحد من نـور..! أشباحٌ رهيبة تنعق كالبومات في غسق الليل، تُلقي بنذير الشر المتردد في كل مكان! والخوف يلهث بقلوبٍ تقبع خلف الأبواب الموصدة! ولا من يجـرؤ على إيقاد ذرة من نور! فلا صدى إلا لصفير الخفافيش والأشباح..!

كل المآذن خرست، كل المنارات انطفأت، ولا أحد ممن كـان يمـلأ الأرض قبل غروب الشمس يمشي الآن فوق الأرض!

بديع الزمان وحده كان يمشي تلك الليلة بين المدائن، يوزع الـشموع على المستضعفين... ينفخ الروح في القلوب الواهية، ويتيح لها أن تتلقى قبس الحياة من جديد... عسى أن تستطيع الإبصار في رهبة هذا الظلام! كـان تنقله بين القرى والمدائن عجيبا... فكأنما كان يمتطي صهوة بَرْقٍ أو بُـرَاق! وما من مسلك يسلكه أو بيت يطرقه إلا ويترك فيه أثرا من نور..!

* * *

كان شخصا غريب الأطوار، عجيب السلوك! هـو آدمـي الـشكل والصورة، نعم ولكن... ربما كان طيفا، أو ربما كان روحـا..؟ لـست أدري..! يمضي بقامته الطويلة بين الأشجار حتى يتوارى عن الأنظـار..! ثم تُشَاهَدُ أطيافُه بعد ذلك في كل مكان!

قيل لي: كان يسكن هنا أو هناك بين أدغال الغابات منفردا... يحتجب بين خمائلها في عزلة رهيبة لا يطيقها إلا المجانين! أو أهل الأحوال الخاصة! يسرد الليل والنهار وحده مع الأوابد، لا يصاحب أحدا من الناس زمنا؛ غير الأطيار والأشجار! يتكلم بلغة الطير، ويعزف نشيد الريح! وربما أصغى في بعض خلواته إلى مواجيدها فَدَوَّنَهَا في قَرَاطِيسَ غريبة، بخط لا يكاد يقرؤه أحد!

قيل: إنه جاء من شرق تركيا من قرية "نُورْس"، من أعمال ولاية "بَتْليس". وقيل: بل خرج من حضن الموت! حينما ألقَى به بُرْكَانٌ تفجر ذات ليلة من جبل "أرَارَات"، فخرج يحمل أنباء خاصة؛ ليزرعها مرة أخرى في الحياة، ثم يعود من حيث أتى! أوَليس هو الذي قد قُتِلَ مرارا ولكنه لم يمت؟

فأيُّ سرٍّ رَهيبٍ تُخْفِيهِ عَبْسَةُ وَجْهِهِ الحنطي؟ وأيُّ خَبَرٍ غريب يُوَارِيه وَهْجُ عينيه العسليتين؟

عجبا!.. لو رأيت نظرته إذ يرمي بها كالسهم تخترق الظلمات بأشعتها..! فكأنما هو صقر يطل على الفضاءات من عَلُ! أو كأنما هو نجم ثاقب خرق الحجب ليرجم شياطين الظلام!

عَاشَ ولاَ بيتَ له! وشَاخَ ولاَ زَوْجَ له! ثم ماتَ ولاَ قَبْرَ له!.. فأي شخص هذا إذن؟

خمسون عاما والريح تزمجر أوَابِدُها بين الغابات! وتقدح النارَ بسنابكها العاديات بين الدروب، ولم تفتأ الرعودُ تَقْصِفُ صواعقُها أعالي الجبال! والناس بين قتيل وجريح أو ناج يهيم على وجهه مستحثيا لسرعة الريح الرهيبة... لا يدري أين المفر!

كانت أعمدة النور في شوارع اسطنبول بلا نور... لم تزل لنصف قرن من الزمان — يا سادتي — تنحني في خزي رهيب، مثقلة بجثث العلماء المشنوقة أو المثقوبة بمراجم الرصاص! لا تجد من يمنحها كفنا أو حتى قبرا تستريح إليه! فمن ذا يطيق المشي في هذا الليل الرهيب ولا تستخير رأسَه طلقاتُ قناصة الظلام؟

وحده كان يمتطي صهوة الموت، ويأخذ بعنان الريح... يوزع القناديل الصغيرة، وبقية من أمل أخير، بين المستضعفين القابعين خلف الأبواب الموصدة على الأحزان، يحتسون مرارة الانتظار... منذ دخول هذا الزمن الكسيح!

المحكمة العسكرية العرفية لم تزل قائمة. حوافرها الحديدية تخوض دماء المستضعفين باسم أحكام الطوارئ!.. فمن ذا قدير على الكلام؟ وها المشانق تخرس كل من سولت له نفسه أن يقول: ربي الله..!

ولكنه يخرج من بين الجموع الواجفة وحده، متجردا كنصل السيف الصقيل، قويا كصدر الجواد الأصيل! ثم يوقد مشاعل النور في وجه الجميع بقوة، فترتد الأبصار على أصحابها خاسئة حسيرة... تتكسر أجفانها من وهج الاشتعال! فهل كان لا يعبأ بالموت؟ أم لم يكن بمقدور أحد منهم أن يصل إليه؟ ذلك هو السر العجيب!

ولو رأيته بُعَيْدَ تلك الليلة الرهيبة، حيث جرى تمرد عسكري مصنوع على عين أشباح الظلام، وكانت فتنة ضد الشريعة باسم الشريعة! لعبة لجر العشرات إلى المشانق؛ تمهيدا لحدث رهيب... لو رأيته وهو يفرك الموت فركا! ويصارع أشباح "جمعية الاتحاد والترقي" الذين كانوا هم الحكام الفعليين للدولة التركية في آخر العهد العثماني، وما للسلطان بين أيديهم من شأن! اسم على غير مسمى..! وإنما هو لعبة أو واجهة لتزيين المخادع به إلى

حين..! في تلك الظروف الحالكة... دخل بديع الزمان تحت جبة المـوت حتى فَنِيَ تماما..! ثم خرج حيا يرزق من جديد! عجبا..!

كان واقفا في قفص الاتهام، ينظر بعين عبر النافذة إلى خمس عشرة جثة، معلقة على أعواد المشانق في الساحة المجاورة للمحكمة، وينظر بـأخرى إلى هيئة المحكمة العجيبة، المتربعة على كراسيها داخل القاعة! وإنني لست أدري بالضبط من ذا تكلم على لسانه؟ أو من نفخ الصوت في حنجرته؟ لما انطلق يخاطبهم بقوة، ويقولها بصراحة رهيبة:

- "إنني طالب شريعة..!"

واشرأبت أعناق الجميع في فزع واستغراب! "طالب شريعة؟".. أنـت تتحدى المحكمة إذن؟ إنك ميت! وهل بقي في زمننا هذا موضع للشريعة أيها الشيخ؟.. "طالب شريعة؟" تقولها والسيف مصلت؟ فماذا يعني هـذا غـير الجنون؟! كانت صراحته الغريبة مفاجئة لهيأة المحكمة بأكملها..! أوَليس هو الآن يفتخر بما هو متهم به؟! كيف والاعتراف سيد الأدلة؟ فبـأي منطـق يتكلم المحامي بعده إذن وبأي مقال؟ تلك قضية أخرى..! لكنـه لم يمهـل خصومه كثيرا حتى استأنف خطابه لطمات تترى مثل المطـارق، أو مثـل الصواعق النازلة على قمم الجبال!

- نعم! "إنني طالب شريعة! لذا فأنا أزن كل شيء بميـزان الـشريعة. فالإسلام وحده هو ملتي! إنني أُقَوِّمُ كل شيء وأنظر إليه بمنظار الإسلام!

وإنني إذ أقف على مشارف عالم البرزخ... هذا الذي تسمونه سـجناً، منتظراً في محطة الإعدام القطار الذي يقلني إلى الآخرة؛ أشجب بقوة وأنتقد كل ما يجري في المجتمع البشري من أحوال ظالمة غدارة! فخطـابي لـيس موجهاً إليكم وحدكم فحسب؛ وإنما أوجهه إلى بني الإنسان كلهم في هذا العصر... فلقد انبعثت الحقائق من قبـر القلب عارية مجردة بـسر الآيـة

الكريمة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾..! فمن كان أجنبياً غيرَ مَحْرَمٍ فلا ينظر إليها!

إنني متهيئ بكل شوق للذهاب إلى الآخرة! ومستعد للرحيل إليها مـع هؤلاء المعلقين على المشانق! إن مَثَلِي كَمَثَـلِ قَـرَوِيٍّ مُغْـرَمٍ بالغرائـب والعجائب، ثم سمع بعجائب اسطنبول وغرائبها، وجمالها ومباهجها، فكم هو يشتاق إليها إذن؟

فأنا الآن مثل ذلك القروي... مشتاق إلى الآخرة..! ولذلك فإن إبعادي ونفيي إلى هناك لا يُعدُّ عقاباً لي... ولكن إن كان في قـدرتكم تعذيـبي وإيقاع العقاب عليَّ فعذبوني وجدانيًّا إن استطعتم! وأما ما دون ذلك فليس عندي بعذاب ولا هو بعقاب! بل إنه فخر لي وشرف!"

....

ويستجمع قوته من جديد، ثم يخفض يده ويرفعها إلى أعلى وكأنما يشحن بندقيته بالذخيرة! على طريقة لعبة البارود، ثم يطلق طلقته الأخـيرة، ضـربة قاضية على بقايا الخيلاء في رجال القضاء ! ويخرق الصدى فضاء المحكمة:

"لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد... أما الآن فإنهـا تعادي الحياة بأكملها! فإن كانت الحكومة على هذا الشكل وعلـى هـذا المنطق؛ فليعش الجنون! وليعش الموت! ولتعش جهنمُ مَثْوىً للظالمين..!"

كانت الكلمات تخرج من جوفه وكأنما هي حمم مـن نـار يقـذفها بركان!.. أبدا ما كان حديثا يفترى، ولا كان نسيج خيال!..

ولو رأيت القضاة وهم منتفخو الأوداج من كبرياء، مرتفعو الأكتاف بما زينوها من نياشين وعلامات... لو رأيتهم والكلمات تهوي على منـابرهم العالية، فتذل لها أعناقهم الغليظة شيئا فشيئا... حتى صـاروا كـأن علـى رؤوسهم الطير!.. فالصفعات أقوى مما كان يتصوره لا المدعي العـام، ولا هيأة القضاة، ولا الدفاع!

فمَنْ يُحاكِمُ مَنْ ؟ ومن يُصدِرُ الحكم الآن إذن ؟ وعلى مَنْ ؟

فلتذهب المحكمة إلى الجحيم..! إن هي لم تبرئ بديع الزمان! وهل تستطيع غير ذلك؟ أي لسان يقدر على إدانته؟ وها كلماته تتفجر بالأسرار! وها نظراته تشع بالسُّبُحَاتِ والأنوار!؟

كانت العبارات تخرج متلعثمة من فم القاضي وهو يرفع الجلسة... جلسة تُرفع بلا حكم على رجل يعترف بتهمته، ويفتخر بها على الملأ، رجل ولكن لا كالرجال! وإلا فما شأن هؤلاء المعلقين على المشانق بتهم هي أقرب إلى الشُّبَه منها إلى صحيح الاتهام، وههنا بديع الزمان أمامهم يرفع صوته صريحا بما هم عنه يبحثون!

وخرج الرجل من السجن مرة أخرى بريئا، ولا أحد يدري كيف؟ ولا حتى القاضي..! خرج إلى أدغاله يجمع الأسرار مرة أخرى، ما بين تغريد وتفريد، وما بين صفير وزئير..! يسرب هنا وهناك بين شماريخ الجبال، إلى أن يختفي عن الأنظار! فأي رجل هذا الذي أُخرِجَ للناس في هذا الزمان؟ تلك هي القصة... فلنبدأ شجوها من البداية!

حكاية: الرحيل إلى بلاد التجليات

كان قلبي يحدثني أنه ما يزال هناك... رغم أنه قيل لي: لقد مات منذ سنة: ١٩٦٠م.. كيف؟ كيف يكون قد مات — يا سادتي — وأنا أكاد أجد ريحه لولا أن تفندون..! نعم كل الكتب تتفق على تاريخ وفاته المذكور. وأَصْدُقُكُم القول: ما صدقت منها أحدا..! ولذلك قررت أن أراه! وعزمت على الرحيل، فحملتُ حقيبتي الصغيرة، وتوجهت تلقاء سيدة المدائن، خاتمة عواصم الإسلام: اسطنبول! ولكن قيل لي: لا بد من دليل. ودليل اسطنبول ليس كأي دليل! فلا بد أن يكون صاحب همة وفراسة؛ وإلا فلا قَبُولَ ولا وصول! ولم أزل أبحث عنه يا سادتي زمنا... زمنا لا أقدره الآن بمقياس، حتى كان ذات ربيع، حيث صادفته في مدينة الدار البيضاء... كان في بهو أحد الفنادق يزدرد بعينيه ما ينعكس عن سبحته الصغيرة من نور..! فقلت: هذه والله علامة! ولا كأي علامة! هذا هو الدليل!

كان إلى الشيخوخة أقرب منه إلى الكهولة... اقتربت منه متوددا، ثم عرفته بقصتي وقضيتي، وسألته الرفقة والصحبة إلى بلاد النور؛ على أن عليه الدلالة وعليَّ الاتباع... فما أن علم قصدي حتى أنكرني إنكارا! وتبرأ من كل حول وقوة! وقال لي في تيئيس قاتل: لن تجد عندي شيئا!

كانت تلك صدمة لي... ولكني أصررت في نفسي إصرارا، فلا بد من اسطنبول مهما طال الزمن!

فمن منكم يا سادتي رأى اسطنبول؟ عفوا..! بل من منكم شَهِدَ اسطنبول؟ من منكم عشق ليلَها وضحاها؟ ومن منكم ذاق معناها؟ من

منكم رأى بهجتها بليال التجليات، وشرب كؤوس الشجون إذْ يُطَافُ بهـا على شواطئ البوسفور؟ ومن منكم غرف من جمال الغابات وهي تـراقص المآذن والقباب، كلما لانت غلائل الشمس الرطبة، شروقا على "تل يوشع" أو هضبة "تْشَمْلَجَا"، ثم غروبا بالبحيرة الكبرى أو ببحر مرمرة..؟ ثم مـن منكم انجذب بمواجيد الأذان، إذْ يَصْدُرُ أنينا من مآذن "بايزيد"، ومـسجد السليمانية، أو أبي أيوب الأنصاري؟ ومن منكم سجد خاشعاً فجرفه الموج المتدفق على مسجد السلطان أحمد..؟ أو خطفته قباب "آياصوفيا" العتيقة؟! فهام في الخلوات يعزف أوراد الجنون! إذن؛ يدرك معنى قصتي هذه؛ وإلا فلا طاقة لي على إبلاغ ما لا سبيل إلى إدراكه؛ إلا عبر مواجيد الشوق العتيق!

ثم عدت إليه يا سادتي بعد عام! وجدته بالمغرب الأقصى ذات منـزلة أخرى... كان بـ"وَجْدَةَ" يوزع رسائل النور بقاعة نداء السلام... قلتُ: الرفقة يا سيدي! فقال: هل حقا تجد تباريح الرحيل؟ قلت: نعـم! قـال: حرًّى؟ قلت: ولا كتباريح قيس بن الملوح أو عروة بن حزام! قـال: فـإن كنت كذلك حقا فتعال؛ وإلا فـ:

دَعِ الْمَكَارِمَ لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي!

وإنما شرطي عليك يا بُنَيَّ أنني صاحب طريق فقط، حـتى إذا كنـت بحاضرة الأنوار فشأنك وصاحبك الذي تريد... وإنما تكون تجلياتك علـى قدر صدقك! فذلك امتحانك العسير يا ولدي... فتأهب للرحيل!

* * *

من شواطئ مرمرة تشرق الشمس، وعلى شواطئ مرمرة تغرب الشمس! فهل بقي للعالم بعد ذلك من شمس؟ (كور بينر) أو (النبع الفياض) إنه اسم على مسمى... هناك حيث تفيض الأنوار، بذلك المخيم الصيفي الجميل... يمتد بحر مرمرة من المشرق إلى المغرب، أسماكه وحدها تطرز جلدها الذهبي

بقصيدة الشمس كاملة غير منقوصة، وتحكي رحلتها من مشرقها إلى مغربها منـزلا منـزلا، فيبقى على جلدها الجميل لكل منـزل منها لون، فإذا هي ألوان ولا كألوان الطيف! فحطم مرسمك الميت يا صاح! واشهد معي عرس الألوان المتدفق بالحياة..! ضفائر الأمواج الناعـسة، وأسـراب الأسمـاك السائحة، ألوان ذات تجليات وأحوال تتغير كل لحظة وتتزين لكل مقام! فلم يزل إبداعها الأبدي يخرق آخر الصيحات في عالم التـشكيل والتجميـل! مرمرة بحر بلا أمواج، إلا شقشقة أشبه ما تكون بشقشقة الطيور أو زقزقات العصافير... بحر يتيح بسكونه الجميل للعشاق أن ينسجوا مناجاة المحبة صافية الهمس!

هناك مدرسة النور تنبت أشجارُها الوارفة خلسةً، لتحـرس أبوابَهـا في خفاء، وتعانق نوافذَها الواسعةَ بهدوء... ثم، ثم تتدفق جداول الدروس صافية رقراقة، في خلوة خاصة جدا، بعيدا عن أعين هذا الزمن الرهيب... مدرسة تتوسد البحر لترقب الحياة في اسطنبول من بعيد... هناك يقـف معلمـون بخشوع غريب، معلمون أمرهم عجب! يلقون دروسا في محاربة الأمية؛ لكن بتعليم منطق الطير! ولغة آدم الأولى!

اقتربت من أحدهم، كان شيخا في السبعينات من عمره، لا تكاد البسمة تفارق ثغره، أشبه ما يكون بالطفل في براءته وحيويته! قيل لي: إنه تلميـذ بديع الزمان، رجل تركي كان أبوه صاحب فرن، فاشتغل معـه الابـن في صغره، وكان الأستاذ النورسي يقطن معهم أياما والحكومة آنئـذ تتعقـب خطوه وأثره! فمن ذا يخفيه ببيته إلا مغامر مجنون! خرجت الأسـرة كلـها لتسكن في الفرن! وتركت البيت حرا للأستاذ وحده! حتى إذا رجع التلميذ يوما إلى البيت لم يجد للأستاذ أثرا! وابتدأ اللغز من جديد!

اقتربت منه رجاء أن أجد عنده ما يدلني على وجهته أو أي سبب أتبعه..

– عفوا سيدي: هل يمكنني أن أعرف مكان بديع الزمان؟

استغرب قليلا، ثم ضحك حتى بدت نواجذه، فقال: بديع الزمان مات!

ورجعت إلى نفسي متمتما: أنت أيضا تقول مات!

أشار عليَّ صاحبي برجل آخر، يجلس هناك على أريكة غير بعيد... ربما كان أكبر من الأول سنا، يحيط به تلاميذ من مختلف الأعمار، مما دون العشرين إلى ما فوق السبعين! عجبا! إنه تلميذ الأستاذ أيضا، ربما هو الآن في الثمانين من عمره أو يزيد... كان يتهجى كلمات لم أفهمها... ربما كانت مترجمة عن خطاب الهدهد أو الحمام الرقاص؟.. لست أدري..! وجدت لي مكانا في حلقته قريبا منه جدا سألته برفق بالغ:

– أين أجد بديع الزمان؟

انتفض الرجل انتفاضة أفزعتني..! ثم أطرق بصمت ولبث مليا..! وجعل الكل ينظر إليَّ حتى خفت على نفسي!

ثم رفع رأسه وجعل ينظر إليَّ بحنو، فسألني بهدوء:

– من أي البلاد أنت أيها الوجه الغريب؟ وماذا تريد من بديع الزمان؟ قلت:

– من بلاد المغرب... جئت أطلب حكمة النور!

تهلل وجهه ثم قال: نعم! ما كان لمغرب أن يكون بغير مشرق.. يا ولدي فتقدم! واقتربت منه منزلة أخرى.. ثم قال: لو بحثت عنه هناك عندكم لوجدته! ولكن لا بأس.. لا بد للسفر من مقام أعلى..

واستبشرت! هل يمكنني فعلا أن أجده؟ هذه كلمات تفتح لي أبواب الأمل.. قال لي: منذ أن غادر قبره يا ولدي فإنا لا نستطيع تحديد مكان له بالضبط! ولكن هذه رسالتي التي أحتفظ بها لك: تَتَبَّعْ منابعَ الماء، حيث تشرق الشمس أبدا! واخْرُجْ بليالي البَدر حيث يسكن الليل سرمدا!

فقلت: زدني!

قال: ذلك مبلغي من العلم! وإذن أكون من المتخرصين!

كانت تلك رسالته.. أشبه ما تكون ببرقية مُشَفَّرَة! نهضت بما ألقى إلي الشيخ من كلمات، وأنا لا أكاد أفهم منها شيئا..! إلا أني عزمت على تحليل رسالته بعد ذلك كلمة كلمة! فعسى أن أهتدي بها إلى شيء..

فهل لا بد من الرحيل مرة أخرى؟ داخل تركيا أم خارجها؟ وإلى أين؟ تلك هي المشكلة!

حاولت النوم ليلتها ولكن دون جدوى..! كنت أرقب من النافذة مخايل الأشجار في الحديقة وهي تتدلى خاشعة الأغصان نحو الأرض، في هيأة الركوع والسجود.. فتذكرت الصلاة وقمت.. توضأت بماء بارد وانطلقت في رحلتي فردا..!

مقامات الجنون

كانت الطبقة الأولى من الليل عالية المقام.. سمعت خرير ماء من بعيد، وما يشبه صوت ضفادع.. سرت بخطى وئيدة بين الأشجار، حتى اقتربت من خميلة كبرى، تتدلى مثل الخيمة من أعلى.. كانت ألوان الخضرة المتموجة هنا وهناك تنفتح إلى ما يشبه طلاء الذهب الأصفر؛ بما تجلى عليها من نور القمر، ثم تنغلق إلى ما يشبه سواد الغربان؛ كلما انطوت على نفسها بعيدا عن شعاع النور.. وكأني أسمع صوت أذكار وتسبيحات..! شاهدت هضبة ذات غابة من شجر الأرز والدلب والقطران تنتصب أمامي.. كانت عقبة كؤودا، صعدتها بمشقة وكأني أتسلق! حتى إذا علوت كَبَّرْتُ من السرور.. يا سلام! هذا مشهد قرية (بَارْلاَ) منفى بديع الزمان! أو كأنها هي! البحيرة إلى أسفل الغابة تعكس بسخاء بالغ جمال القمر؛ أنوارا تتدفق على كل شيء.. الأشجار الآبدة والأعشاب البرية.. وها هي ذي الشجرة المشهورة تقف بأغصانها العارية.. تماما كما كانت في عهده، ولكن أليس قد قطعوها؟! ولكنها هي عينها الآن تتجلى بذاتها بعين مكانها.. تقدمت نحوها قليلا ولا أرى عليها أحدا! وسألت نفسي متمتما: ترى كيف استطاع هذا الرجل أن يبقى وحيدا بهذا المكان؟

كان الجواب يا سادتي سريعا ورهيبا!.. عجبا! فقد انتفضت الشجرة انتفاضة كبرى..! كأنما عصف بها إعصار قوي، وجعلتْ أغصانُها العالية تنجرف ذات اليمين وذات الشمال بسرعة رهيبة. ثم اشتدت بها قوة العصف أكثر وأكثر؛ حتى ما عدتُ أرى منها شيئا! وكأنها تبخرت في الفضاء..! واستبد بي الروع يا سادتي حتى ما عادت قدماي تطيقان حمْلي،

فخارت قواي! ولكن أين المفر؟.. وما هي إلا لحظات قلائل حتى بدأت الشجرة تهدأ شيئا فشيئا إلى أن سكنت تماما.. وكانت المفاجأة العظمى! فقد رأيته متربعا بين الأغصان وهو يقرأ من رسائل النور بهدوء، دون أن يلتفت إلى جهتي..! كان الفزع قد بلغ مني مداه، ولكن ما أن بدأت "الكلمات" تتدفق الهويني على سمعي، وتعبر إلى قلبي الهلوع عبر صوته الرخيم؛ حتى نزلت عليَّ السكينة، وغشيتني الرحمة؛ فاطمأنت روحي وسكنت جوارحي.. كانت الحكمة تخرج من فمه مثل الغيث اللطيف:

قال لي:

- ذلك قدري يا ولدي..! فقد نشأت فردا، وعشت فردا.. ومت فردا.. وعسى أن أبعث يوم القيامة فردا! وكل ذلك كان من أجل ألا يكون لنفسي حظ من الدنيا.. وأكون من خلوتي هذه لكل الناس! فهذا زمن الفصل والوصل، حكمة بالغة، من أخطأها غرق في مستنقع الشهوات! فأنى له بعد ذلك أن يكون من المبصرين؟

يا ولدي فتعلم..!

....

أسرتي من سُنَّة آل البيت، وكما هي حال آل البيت عبر التاريخ.. فقدتهم جميعا الواحد تلو الآخر! إلا قليلا قليلا..! الوالدة في التاسعة من عمري، وأخواتي الثلاث في الخامسة عشر من عمري، وفقدت أخوين اثنين منذ أكثر من خمسين سنة! ولم يبق من الأسرة إلا أخ واحد..! كلهم جميعا سبقوني بزمن طويل إلى عالم البرزخ!

ولولا هذا اليتم المبكر المحيط بي من كل جهاتي لما كان لرسائل النور في حياتي من أثر..! فدعنا من هذا ولننطلق إلى ما هو أهم!

التفت إلي لأول مرة من بدء خطابه! كان مشهده رهيبا.. أشبه ما يكون

بقائد عسكري يتهيأ لإلقاء الأمر اليومي على جنوده: جدية عالية، وجاهزية للانطلاق.. قال لي:

هل أنت جاهز للرحيل معي..؟

ترددت قليلا.. فإذا بالصورة ترتفع من فوق شجرة الدلب وتتبخر في الهواء.. فلا أثر لشيء بعد ذلك أمامي.. ولا لبصيص نور!

وبقيت وحدي في درك التردد أبكي حظي العاثر..!

* * *

كان البوسفور يعزف نشيد الطبقة الثانية من الليل.. وكان ذلك بعد مضي أكثر من عام على تجليات المشاهدة الأولى.. وأنا أرقب أضواء المنازل الناعسة عبر ضفافه العالية الأحضان.. كانت المشاهدة من مدرسة (بَيْلَر بَكي)، ولا أجملَ في مشهد ليلٍ بإسطنبول من مشارف شاطئ (بَيْلَر بَكي)..! هناك تعوم الأسماك إلى جانب أسرة النائمين والقائمين.. ولرقرقة الماء الساجي خشوع الساجدين بآخر منازل الليل!

البوسفور سيد الخلجان بلا منازع.. أميرٌ بالنهار، مَلاَكٌ بالليل! كنت أشرب من نور مائه العاكس بهاء القمر.. ولصور ضفافه الآهلة بالمصابيح حضورٌ في أعماقه تحكي بسكونها أحزان التاريخ..!

كان هناك زورق يقترب من جهتي شيئا فشيئا.. بدا نورٌ خافت يمتد منه إلى أعلى، متموجا على هيئة حركة الجذف البطيء.. لم أبال كثيرا، واستغرقت في تحسي أذواق الجمال الليلي زمنا.. حتى فاجأني نور وهاج، كاد أن يذهب ببصري..! أحسبه تفجر من الزورق الصغير نفسه! لم أطق فتح عيني؛ فأغمضتهما بقوة، وإذا بالصورة تتجلى كأوضح ما يكون التجلي.. لقد كان هناك..! ها هو ذا مرة أخرى ينظر إلي بنوع من العتاب الحاد.. قال لي:

– لِمَ غادرتَ المدرسة؟ أوَلَسْتَ تدري أن طالب النور إذا انقطع انقطع عن كل شيء؟

خجلتُ، فلم أدر ما أقول ولا بما أجيب..! قلت في نفسي: أنا ما غادرت! ولكني قطعت دابر الكلمات عن لساني فما نطقت! فلست أدري ماذا يريد الشيخ؟ فالحكمة تقتضي الاعتذار.. وسألت بلسان متلعثم:

– وكيف البدء يا سيدي؟

نظر إلى الأفق الحالم بضوء القمر وقال:

لم يكن الأمر بيدي.. بل كان شيئا هُيِّئَ لي قبل أن أكون.. فأمور حياتي كلها جرت على غير اختياري.. وما كان لطالب النور – في الحقيقة – أن يختار يا ولدي.. وجدت في بيتنا معراجا فصعدته؛ فكان كل شيء مما كان بعد! هذه هي القصة باختصار.. كان ذلك في حوالي التاسعة من عمري.. السنة التي غادرتْ فيها الوالدة حياتي؛ فتركتني وديعة على باب الله.. جميع أهلي كان ينتسبون إلى الطريقة النقشبندية أبي وإخواني جميعا.. لكني وجدت في نفسي ميلا جارفا يجذبني بقوة إلى أوراد الشيخ عبد القادر الكيلاني.. كان ذلك سرا يتفجر في قلبي.. لم أدر كنهه آنئذ.. أوَليس الكيلاني هو صانع جيل صلاح الدين الأيوبي؟ ومجدد عزيمة الأمة في زمن الخزي والخذلان؟ وإنما كانت طريقته قائمة على العلم والقرآن.. ولكني رغم ذلك لم أستطع التفرغ لخدمة الطريقة؛ فانشغالي بطلب العلم كان وارده أقوى بقلبي..

وأقسم لك يا ولدي: إن أرسخ درس تلقيته في حياتي هو درس الوالدة على قلة صحبتها لي..! فمن نور كلماتها كانت كل كلماتي.. دروسها المعنوية هي مشربي الأول والأخير الذي ما يزال يضخ القوة بقلبي.. وكأنه يتجدد عليَّ، حتى استقرت حقائقه في أعماق فطرتي، وأصبحت كالبذور في

كل كياني.. تنبت بالخيرات والبركات عند كل إبان، وها أنا ذا الآن بين يديها جالس أتعلم درس الحكمة في خريف عمري الذي ناهز الثمانين كما ترى.. وما زلت أذكر من كلماتها أنها مذ وضعتني بأحد أيام سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م. ما أرضعتني قط إلا على وضوء! ولا حملتني على ذراعها إلا بذِكْرٍ وقرآن.. ولا أرقدتني إلا بدعاء، فإن فارقتني بليل فإلى تبتل وقيام..! كانت أشبه ما تكون بأم موسى.. ومن يدري؟ فلعلها كانت ترى شيئا.. فالدنيا كانت آنئذ على وشك أن تتعرض لهجوم الأشباح السوداء..! ثم ما لبثتْ – رحمها الله – أن تركتْ وديعتَها ورحلت إلى عالم البرزخ! رحمة الله عليك يا نورية! أي امرأة كنت؟

أما أبي "ميرزا" – رحمه الله – فقد اشتهر باسم "الصوفي ميرزا"؛ وذلك لمَا كان عليه من تقوى وورع! حتى إنه كان يربط أفواه ماشيته بالكمامات، كلما كان عائدا بها من المراعي؛ حتى لا تقضم من حقول الناس ولا قضمة واحدة! تحريا لخلوص ألبانها ولحومها وأثمانها من شوائب الحرام..!

جنون التعلم

ثم تجلى المشرب الثاني من حياتي بعد التاسعة من عمري: كانت حالة غريبة في طريقة طلب العلم، وصفها أحد أشياخي بالجنون! وتلك صفة أكرمني الله بها أكثر من مرة في ظروف شتى ولأسباب شتى! ولعلك إن صفت إشراقاتك – يا ولدي – تشاهد بعض تجلياتها.. كانت حالتي الروحية آنئذ متقدة جدا، وأنا ما أزال أسلخ الأيام من طفولتي.. فساقتني تلك الحال إلى مراقبة قوية لما يفيض عن أخي الأكبر "الْمُلاَّ عبد الله" من العلوم والحِكَم.. ومكثت على ذلك زمنا.. إلى أن كان يومٌ وجدتُ فيه نفسي تكاد تتفلت من بين جنبيَّ! ولم أعد أطيق المكوث بقريتي الصغيرة "نُورْس"! فعزمت على الرحيل..!

كان ذلك سنة: ١٨٨٥م حيث بدأت بتعلم القرآن الكريم.. ثم وجدت نفسي – لست أدري كيف – في قرية "تَاغْ" بمدرسة "الْمُلاَّ محمد أمين أفندي".. إلا أني لم أتحمل المكوث فيها، فتركتها. وعدت إلى "نُورْس" من جديد.. وهي القرية المحرومة من أي كُتَّاب أو مدرسة، فاكتفيتُ ساعتها بما أتلقاه عن أخي عبد الله من علوم، مرة واحدة في الأسبوع.

وبعد مدة قصيرة ذهبت إلى قرية "برمس" ومن بعدها إلى "مراعي شيخان"، ثم إلى قرية "نورشين" وبعدها إلى قرية "خيزان"، ثم تركتها ذاهباً مع أخي "الْمُلاَّ عبد الله" إلى قرية "نورشين".. ظللت فيها مدة ثم رجعت إلى "خيزان"، ثم تركت الحياة المدرسية وعدت إلى "نُورْس" مرة أخرى.. ولم يكن يفصل بين ارتحالي من مدرسة إلى أخرى غير بضعة شهور! لقد عشت حياة علمية أشبه ما تكون بالفوضى.. أو بالجنون!

كانت حالتي الروحية تأبى عليَّ قبول حالة الاستجداء التي تطبع نفسية الطلبة والشيوخ في ذلك الزمان! ولم يكن طلب العلوم آنئذ قائما على غيرها: الأوقاف الشعبية والزكوات والصدقات! ورغم الفقر الذي ولدت فيه ونشأت؛ فإن نفسي لم تطق تلك الحياة القائمة على ذلك الوضع الذليل بالنسبة لي.. والحقيقة يا ولدي أن ذلك ما كان مني اختيارا.. بل كان واردا يغالبني ويسوقني إلى ذلك التصرف القاسي على نفسي! ولقد كان له سر عجيب في حياتي عرفته فيما بعد..! وإنما قطفت ثماره الطيبة بعد بلوغ الأربعين من عمري! أي بعد موت "سعيد القديم"، وميلاد "سعيد الجديد" في حياتي، وحلول تجلياته الوهاجة في كياني الروحي!

نعم.. ما قبلت الهدية قط من أحد إلا بمقابل أدفعه له أنا أيضا! وعلى الرغم من الحاجة الشديدة فما ذَكَرْتُ أني في يوم من الأيام ذهبت لأخذ الأرزاق من الناس، كما كانت العادة جارية في كردستان، حيث كانت أرزاق طلاب العلم تدفع من بيوت الأهالي، وتسد حاجاتهم من أموال الزكاة! وكان ذلك أحد أهم الأسباب التي جعلتني لا أطيل المكوث في أي مدرسة من مدارس القرى.. كما ضايقني خلق الطلاب العابث اللاهي.. وما كان لكثير من الأشياخ من سيطرة على ما يدرسون من علوم.. لقد كنت أشعر بجدية الرجولة تملؤ طفولتي، وتنتصب قائمة في قراري وترحالي! وكنت أجد عزيمة الفروسية تجمح بي نحو الأعالي..! ما ملت إلى اللهو يوما ولا وجدت له ذوقا! وأصدقك القول: لم يكن ذلك مني.. بل كان أمرا خارج اقتداري واختياري.. فواردٌ ما كان يحل بروحي، ويُجري تصرفاتي على وزانه!

إلى أن كانت رسائل النور في حياتي فعلمت كم هي في حاجة - لضمان حياتها - إلى الاستقلال عني! وما كان لها ذلك إلا بما كان لي أنا أيضا من استقلال عن الناس!

إن عدم جعل رسائل النور - التي هي خدمة خالصة لحقائق الإيمان والآخرة - وسيلة لمغانم الدنيا، وعدم جعلها ذريعة لجَرِّ المنافع الشخصية الدنيوية كان ذلك هو الحكمة الكامنة وراء توجيهي إلى هذا الخلق في طفولتي.. تربيت على إباء الفرسان كما تربى موسى في بيت فرعون، وإنما هو في الأصل ابن أسرة من الفقراء المستضعفين؛ فنجا بذلك من نفسية الذلة ليتحلى بنفسية الشمم والإباء، في غير صلف ولا كبرياء! ولعل عرقا من أعراق آل البيت في شرايين روحي نهض يخفق بقوة في توجيه سلوكي..!

نعم شاهدت بعدها - حقيقة لا مجازا - أنه لأجل هذه الحكمة مُنِحَتْ لي هذه الحالة العجيبة، حالة النفور من تلك العادة المقبولة عند العموم، وإن كانت سجية كريمة في أصلها. ولكني شعرت أنني قد خلقت لغير ما خلق له أولئك الناس من المشايخ والطلاب! فما كانت حياتي تسير بتخطيط مني ولا تدبير.. فرضيتُ بقوت العيش القليل أدفع به شدة الفقر وضنك الحياة..!

والحقيقة يا ولدي أن تلك كانت طبقة من طبقات معراجي الروحي، الذي من عناقيده العليا صنعت شرابي؛ فإذا شئت ارفع إليَّ كأسك، حتى إذا أحسست بفيضه بين يديك فاشرب..! وذلك أول السير فتأمل!

- قلت: هل تأذن لي يا سيدي؟

انتظرت قليلا فإذا بالصورة تتلاشى.. ووجدتني وحدي أهذي كالمجنون على ضفة " بَيْلَرْ بَكي".. وانقطعت الواردات عني..!

مضت عليَّ أزمنة طويلة — يا سادتي - لا أرى فيها شيئا، ولا أشاهد فيها طيفا! مللت الانتظار، ويئست من الوصول بأحوالي مرة أخرى إلى صفاء الشجا.. وطاردتني هواتف الأسرة والوظيفة والأشغال! فقفلت راجعا إلى المغرب حزينا..!

ما بين مكناسة والرباط كانت أناشيد "المهتر" التركية في سيارتي تضمد مواجعي.. وكانت سلاسل الدنيا تعتقل قدميَّ الضعيفتين! فمكثتُ على ذلك زمنا، حتى كان عام الخوف، حيث نَصَبَ السَّحَرَةُ حبالَ اللعبة الكبرى؛ فخَرَّتْ أبراج أمريكا ساجدة لربها! ثم تصدعت لها الفنادق والعمارات ما بين الدار البيضاء والرياض، وهي تحاول محاكاة الصلاة بمسجد الضِّرَار.. وارتفع الصوت الرسمي في كل الفضائيات يرتل بلحن النفاق: "وَلاَ الضَّالِّينَ"، ثم انطلق السيف يقطع رأس كل من لم يقل: آمين! واشتدت حرارة الصيف يا سادتي، وآلمني القيد الثقيل في قدميَّ، حتى كانت ليلة أخرى من الليالي البيض.. كنت أتوضأ بدموعي وأنشج في صمت سخين: وَاحَرَّ قَلْبَاهُ على الفراق! وَاحَرَّ قَلْبَاهُ على الفراق..! فلم أشعر بعدها إلا والسلاسل تتكسر ما بين قدميَّ، ثم وجدتني أعدو كالحصان هاربا إلى البعيد! ولم تكد تعلن البلابل عن ميلاد الفجر حتى وجدتني بمطار اسطنبول أُغَرِّدُ مع الأذان!

كنت لحظتها مريضا.. أرقد بمستشفى "السماء" على شاطئ بحر مرمرة، أنظر من فراشي إلى جزر الأميرات.. أستلهم تاريخ الفاتحين؛ وأتزود من واردات البحر الحزين. وكلما وجدت قوة اتكأت قليلا، لعلي أستطيع كتابة بضعة أسطر من روايتي.. عندما قَوِيَ واردُ الحكي كان الوقت سحرا.. فرأيته يتجلى خارج نافذة المستشفى مثل أمير البحار.. لكن الطيف كان بعيدا. ناديته بصوتي الضعيف:

- سيدي! سيدي..! هلا اقتربت قليلا حتى أراك؟

رد عليَّ بكلام لم أستطع الوصول إلى صوته، ولكني قرأت من شفتيه:

- هذا مقام المخاطبات العليا يا ولدي، فإن كانت لك رغبة المريدين حقا؛ فاصعد إلى الأعالي..!

قلت: لبيك يا سيدي! ولكن أي الأعالي؟ فإسطنبول مدينة القباب والهضاب، فأنَّى أراك؟

واختفى الطيف في عرض البحر بين مضايق الجزر..!

كان الشوق بقلبي قد بلغ مداه، فعزمت على الوصول إلى تلة الموعد..! غادرت المستشفى وألقيت عصاي جانبا ثم انطلقت أعدو ما بين التلال صعودا وهبوطا، من قمة "شَامْلَجَا" إلى قمة "تل يوشع" في الضفة الأسيوية، ثم إلى هضبة السلطان أحمد و"آياصوفيا" في الضفة الأوروبية! وأعدو حتى ساحة أبي أيوب الأنصاري، ثم أطل على الخليج من قمة الهضْبة هناك.. ثم أعدو، وأعدو، متسلقا هذه التلة أو تلك، ولكنني لا أجد له أثرا..! ولا أملك إلا البكاء: آه ما أشد صرامتك يا سيدي! فهلا أرحتني، أي الأعالي تريد..؟

شعرت بتعب شديد يا سادتي.. فغلبني النعاس، واتكأت على سور القسطنطينية القديم فنمت.

وجاءت الرؤيا مناما..

قال لي: هل توضأت؟

قلت: لا يا سيدي؟

قال: فكيف تطمع في الأعالي وأنت على غير وضوء؟ ما كان لمن أثقلته أدرانه أن يرانا.. يا ولدي فتعلم!

حاولت أن أخرج من نومي فأشار إليَّ بصرامة:

- مكانَكَ! هٰذا مقامك الذي أدركتَ، فلا حظ لك في اليقظة! وإنما لك الآن أن تحلم، سأذيقك الثمار الأولى لواردات العفاف فأنصت!

مقام رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم

قال لي:

عندما تركت الحياة المدرسية وعدت إلى كنف الوالد – رحمه الله – في "نُورْس"، كان عمري آنئذ أربعة عشر عاما فقط.. ثم دخلت مدرسة روحية بنيتها داخل نفسي لنفسي.. أتلقى فيها أحوال الإيمان ومشاهد الإحسان، حتى اخضرَّ الربيع من ذلك العام، وأذِنَ بخروج الأزهار من أكمامها؛ فكان ما كان..!

هذه القيامة قد قامت الآن! وإني لأرى الكائنات تبعث من جديد.. وعلى الأرض نبات غريب من خلائق شتى تخرج من أجداثها.. كان الموقف من الهول بما تعجز العبارة عن الإحاطة به وصفا..! فما كان مني إلا أن ذكرت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وتساءلت في نفسي: كيف أتمكن من زيارته؟ ثم تذكرت أن عليَّ الانتظار في بداية الصراط.. هنالك ستمر كل الخلائق. وإذن بمجرد أن أراه أسرع إليه..! هكذا وقع بقلبي.. وإني لكذلك إذ شاهدت عددا من الأنبياء والرسل الكرام.. وأكرمني الله بزيارتهم واحداً واحداً على ما هُيِّءَ لي أن أراه.. وقبّلتُ أيديهم جميعا عليهم الصلاة والسلام.. ثم..

ثم ما أن شعرتُ بأن الإذن بزيارة سيدنا محمد قد وقع نوره بقلبي حتى تجلى شخصه صلى الله عليه وسلم أمامي..! بأبي وأمي أنت يا رسول الله! أحقا ما أرى..؟ وهويت على يديه الكريمتين سلاما وتقبيلا.. وعجبت من نفسي ساعتها: كيف أن الناس لحظتها إنما يطلبون الشفاعة؛ وما وقر بلقبي

أن أطلب منه لحظتها إلا شيئا واحداً: العلم! عجبا! لقد قصدته بوصفه مُعَلِّماً عسى أن يقبلني بين يديه مُتَعَلِّماً! هكذا.. وبعد وقوع القيامة؟ عجبا! فما كان من حبيبي عليه السلام إلا أن التفت إليَّ مبشرا وقال: (سيوهب لك علم القرآن ما لم تسأل أحداً!).. فكانت تلك يقظتي الأولى في حياتي يا ولدي! وعشت بعدها عجائب وغرائب!

فَجَّرَتْ هذه الرؤيا شوقاً عظيماً في قلبي إلى طلب العلم. فاستأذنت الوالد رحمه الله للذهاب إلى ناحية "أرواس" لتلقي العلم من "المُلاَّ محمد أمين أفندي". ثم توجهت تلقاء "دُوغُو بَايَزِيدَ".. وكان بدء الأحوال العجيبة!

جنون القراءة

تركت المشايخ والطلاب، وهجمت على المكتبات ألتهم منها ما يلذ لي من شجونها وجنونها، حتى وجدتني أحيَى بعقل غريب وروح عجيب! شعرتُ وكأن شخصا آخر حَلَّ بروحي واستوطن كياني.. لكن بغير انفصام ولا انقسام، بل بشخصية واحدة جامعة مانعة..! فإنما هي حالة من واردات النعم جاءت دفعة واحدة: ﴿وأَمَّا بِنِعْمَتِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾!.. فصار لي من العلم ما لم أكن قد تعلمت على يد معلم قط..! وإنما كان يكفي أن أنظر في الكتاب الواحد نظرات حتى ينطبع كل محتواه بقلبي انطباعا! ويصير صدري له وعاء فهما وإدراكا وحفظا واستظهارا..! كان ذلك فوق طاقة ذكائي الفطرية، وفوق اقتداري الذهني.. بل كان خارقا لكل استعداداتي البشرية للتلقي! إنها حالة روحية غريبة حلت بي فجأة.. ببركة ما تلقيت في رؤيا الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام، وأخذت بالشرط: "ما لم تسأل أحدا!".. فما كنت أسأل أحدا شيئا، وكان ما كان..!

بعد اطلاعي على مبادئ الصرف والنحو، خلال سنة أو سنتين متقطعتين على مدى أشهر هنا وهناك، ظهرت عليَّ الحالة العجيبة، إذ أكملت قراءة ما يقرب من خمسين كتابا خلال ثلاثة أشهر، واستوعبتها، وأُجزْتُ عليها، ثم تسلمت الشهادة بإكمالها. وقد دامت هذه الدراسة الغريبة والمكثفة ثلاثة أشهر في "دُوغُو بَايَزِيد"، تحت إشراف الشيخ محمد الجلالي.. حيث أتممت قراءة جميع الكتب المقررة للطلاب في شرقي الأناضول! ابتداءً من كتاب "مُلاَّ جامي": "الفوائد الضيائية في شرح الكافية لابن الحاجب" إلى آخر المقررات الدراسية.. ولكن طبعي آنئذ كان يوجهني – رغما عني – أن أقرأ

من كل كتاب درساً أو درسين، إلى عشرة دروس فقط، دون أن أتم الكتاب، ثم أبدأ بغيره.. وعندما استفسرني أستاذي الشيخ محمد الجلالي عن سبب قيامي بهذا العمل – المخالف للعرف السائد وقتها؛ لم أدر كيف أفسر له حالتي الخاصة: فقلت في أدب التلميذ بين يدي شيخه:

– ليس في طوقي قراءة جميع هذه الكتب وفهمها..! فهذه الكتب شبيهة بصندوق الجواهر، ومفتاحها لديكم! وكل ما أرجوه منكم إرشادي إلى ما يحتويه هذا الصندوق، أقصد من مضامين هذه الكتب وفنونها، لكي أختار منها ما يوافق طبعي..!

وكنت أقرأ في هذه الشهور الثلاثة يومياً ما يقارب مائتي صفحة أو يزيد..! أي بمعدل متن كامل في اليوم من متون أمهات الكتب! من مثل: جمع الجوامع لابن السبكي، وشرح المواقف لعضد الدين الأيجي، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج لابن حجر الهيثمي... ونحو ذلك كثير..

والغريب أنني وجدت نفسي في غنى بالله عن شرح شارح أو إعانة معلم! وتدري أن هذه المتون وأضرابها فيها من الألغاز ما يحار شيوخ الوقت في حل معضلاته وشرح إشكالاته، فما بالك بالطلاب!؟ وإنما كنت بمجرد أن أشرع في النظر في الكتاب حتى تنتقل صفحاته مما أقلب بين يدي إلى قلبي سطرا سطرا.. وكان الفهم لحقائقه أسبق إلى قلبي من رسومه! وما كنت أنا نفسي بقادر على فهم ما يجري علي من أحوال! فكيف أذكره لغيري أو أفسره له؟!

وصرت على هذه الحال إلى حد أني ما كنت أُسأل سؤالا في أي علم من العلوم إلاّ وأجيب عنه إجابة شافية كافية! وكان أن استغرقت في القراءة والدراسة بهذا الوارد الروحاني حتى انقطعت علاقتي بالحياة الاجتماعية زمنا لا أذكره! وحببت إلي الخلوة مستغرقا كل أوقاتي في استنفاد ما أتيح لي من

طاقة ربانية في استيعاب العلم! حتى هزني وارد جديد وأيقظني خاطر حميد بأن أرحل إلى أخي الملا عبد الله في مدينة شيروان..

وما أن وقفت بين يديه حتى قال لي:

– لقد أنهيتُ كتاب "شرح الشمسية" في شرح قواعد المنطق للقزويني؛ فما قرأت أنت؟ يعني منذ أن افترقنا قبل بضعة أشهر!

قلت:

– لقد قرأت ثمانين كتاباً!

انتفض عبد الله فيما يشبه الإنكار وقال:

– ماذا تعني؟

قلت:

– لقد أنهيت الكتب المقررة كلها، وقرأت كتباً أخرى زيادة عليها..!

فلما قطع بجدية كلامي قال بعزيمة الأخوة الكبرى:

– إذن سأمتحنك يا سعيد!

قلت:

أنا مستعد.. سل ما بدا لك!

كان وجهه رحمه الله يُقْبِلُ ويُدْبِرُ مع كل جواب كلمةً كلمةً..! يصغي إلى الكلمات في استغراب تام؛ وكأنما كان يريد أن يعرف لا الجواب وحسب؛ ولكن أن يفهم ماذا جرى لي بالذات!؟ وذلك هو السؤال الذي ليس عندي جوابه حقا!

فكَانَ مَا كانَ مِمَّا لستُ أذْكُرُهُ   فَظُنَّ خَيْراً ولاَ تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ!

كان إعجابه ممزوجا بمحبته الأخوية، وكان فرحه ظاهرا بما وقع بقلبه مما نالني من كرم الله ما لم أستطع له وصفا..! فما كان منه – رحمه الله – إلا أن اتخذني أستاذاً له، وقد كنت قبل أشهر تلميذه النجيب!

ازدادت قوة نهمي إلى طلب العلم أكثر وأكثر؛ فذهبت إلى مدرسة الْمُلاَّ فتح الله أفندي في "سعرد"، لعلي أجد عنده شيئا آخر؛ أشبع به نهمي العلمي..! فسألني الشيخ:

– كنتَ تقرأ "البهجة المرضية في شرح الألفية للسيوطي" السنةَ الماضية؛ فهل لك أن تقرأ "الفوائد الضيائية للمُلاَّ جَامي" هذه السنة؟

قلت:

– لقد أنهيت قراءة الجامي يا سيدي!.. وبدا على وجهه شيء من الاستغراب! ثم سألني عن كتاب آخر وأجبته بما كان.. ثم آخر وآخر.. حتى كاد ألاَّ يصدق من كلامي شيئا..! فأيما كتاب سألني، أجبت بأني قد أتممته..! وتعجب من أمري؛ إذ كيف يستطيع أحد أن يقرأ كل هذه الكتب في هذه الفترة القصيرة؟ فما كان منه إلا أن قال لي:

– كنتَ مجنوناً في السنة السابقة، فهل ما زلت على تلك الحال؟

واضطرني هذا الكلام إلى الجواب فقلت:

– قد يكتم الإنسان الحقيقة عن الآخرين؛ لئلا يداخله الغرور، وحتى يكسر عتو نفسه الأمارة بالسوء، ولكن الطالب لا يستطيع أمام أستاذه الذي يُجِلُّهُ أكثر من والده إلا أن يقول الحقيقة المحضة..! فإن تفضلتم سيدي بالأمر؛ فأنا على استعداد للامتحان في الكتب التي ذكرتموها..!

بدا الجد على وجه الْمُلاَّ فتح الله وتأهب لامتحاني بالفعل، ثم شرع في توجيه الأسئلة إليَّ عبر تلك الكتب جميعا، الواحد تلو الآخر.. فما سأل سؤالاً من أي كتاب إلا وكان ذلك الكتاب ينشر بين عيني سطرا سطرا، وكان الجواب يتدفق عبر لساني شافياً وافياً..ثم قال لي بنوع من الاعتراف الممزوج بالتحدي:

– حسناً.. إن ذكاءك خارق! ولكن دعنا نرى قوة حفظك! فهل تستطيع أن تحفظ بضعة أسطر من كتاب "مقامات الحريري" بعد قراءتها مرتين؟

تناولتُ الكتاب بيدي، وقرأت منه صفحة واحدة، مرة واحدة، فإذا بها قد وقعت على التَّوِّ بجناني صورة كاملة غير منقوصة! ثم تدفقت على مجرى لساني مباشرة..! فلم يملك الأستاذ نفسه إلا أن قال مندهشا:

– إن اجتماع الذكاء الخارق مع الحفظ الخارق في شخص واحد لهو من أندر الأمور! إنك: "بديع الزمان"..!

وكان – رحمه الله – هو أول من لقبني بهذا الاسم الذي كاد أن يغلب على اسمي الأصلي: سعيد النورسي! وصار ذلك إلى محبة صافية بيننا..! وبدأ أستاذي فتح الله لا يفتأ يذكر أمري في مجالسه مع العلماء ثناءً وإعجابا.. حتى شاع أمري! وما كنت – شهد الله – أريد ذلك لنفسي؛ ولكن كان لأمر ما يعلمه ربي..!

"سعرد" كلها؛ تتحدث عن الفتى الأسطورة! مما أثار فضول علمائها، فأقبلوا عليَّ يمتحنونني، قاصدين إحراجي بشتى الأسئلة. ووقع ذلك مرة في اجتماع واسع حضره الملا فتح الله أفندي أيضاً..

والعجيب هذه المرة أنني كلما ألقي علي سؤال وجدت نفسي أمعن النظر في وجه أستاذي الملا فتح الله.. ثم أجيب وكأني أنظر في وجهه إلى كتاب أقرؤه.. ولا يزداد العلماء إلا دهشة وانبهارا! وأجمعوا كلهم على أن أمري خارق فعلا.. وكأن له علاقة بطاقة روحية خارج اقتداري الإنساني..!

وشعرت بعدها بأن "سعرد" لا تطيق حرارة مواجدي؛ فهتف بي هاتف الرحيل، وانطلقت..!

....

ثم انقطع الوارد يا سادتي فوجدتني بالمغرب الأقصى، أعدو ما بين مكناسة الزيتون ومدينة زرهون، أبحث عن أثر ما للسلطان المولى إدريس الأكبر، أو بقية من حوافر جيش طارق بن زياد.. كنت أرجو أن أعرف أين اختفى وهج البرق الضارب ما بين قرطبة الأندلس ومدينة كوسوفو؟

سألت محافظ خزانة الجامع العتيق بمدينة مكناس:

– ألا أجد عندك مخطوطا أو أثرا ما يرسم طريق العودة..؟

لمعت عيناه فرحا، فغاب عني قليلا، ثم عاد يحمل جزءا مبتوراً من مخطوط عتيق يتهلهل بين يديه.. قال لي:

– هذا حظك يا ولدي..! إنما نحن جزءٌ، وتتمتنا في مكتبة اسطنبول!

الفصل الثاني

مكابدات "سعيد القديم"

هنا اسطنبول..! ألقيتُ حقيبتي بغرفتي الصغيرة، وانطلقت مسرعا نحو مكتبة السليمانية الكبرى. صليت ركعتين بمسجدها العتيق، ثم دخلت إلى رفوف المخطوطات.. جعلت أركض بين الْمَلاَزِمِ والأوراق، ولا وجدت لجزئي المطلوب أثراً..! تعبتْ قدماي وانهارت قواي، فدخلت إلى المسجد ثانية لعلي أرتاح قليلا.. لم يكن الوقت وقت صلاة، فاقتربت من المحراب الجميل قليلا. استلقيت على ظهري وجعلت أتأمل زخرفة قبته الزاهية، حتى غمرني الفضاء الهادئ بنعاس لطيف.. لم يكن نوما ولكنه كان مقدمة لوارد جديد!

ورأيت المحراب ينفتح على جبل عال جدا. رفعت بصري لعلي أبلغ مداه فعجزت! و لم ألبث إلا قليلا حتى رأيت بديع الزمان ينحدر من القمة نحوي، فلما صار مني على مرمى وَجَعِي سألته بصوت عال:

- سيدي..! سيدي..! أيمكن أن أعثر على نصفي الثاني أم أن الفصل سبق الوصل؟

نظر إليَّ كالمغضب وقال:

إنما العلم بالعمل يا ولدي.. كيف تطمع أن تكتمل أحلامُكَ وذاك نصفُكَ أعلى منك بكثير؟ فإن كنتَ جادا في الوصل حقيقة فاقْرَأْ وَارْتَقِ! ولا ارتقاء لك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. ولك من هذه الحكمة - إذا عزمتَ - يا بُنَيَّ حكاية!

حكاية: حال موسوي ينبعث في روحي!

قال لي:

.. قبل أن أرحل من "سعرد" حدث لي حادث غريب!.. فقريبا من القرية كانت "عشيرة ميران" ترزح تحت ظلم شديد، هناك حيث كانت مساكنها الصغيرة متجمعة بجزيرة "ابن عمر"، وكان أنْ تأمَّرَ عليها طاغية رهيب سامها سوء العذاب.. إنه مصطفى باشا..!

ذلك أنَّ السلطان عبد الحميد الثاني - رحمه الله - كان قد أعطى رتبة الباشوية لبعض رؤساء العشائر الكردية في شرقي البلاد، فأنشؤوا "ميليشيات" مسلحة من رجال القبائل هناك. وإنما كان الغرض منها القيام بحراسة الحدود ضد هجمات الروس والأرمن. وفي ذلك أيضا ربط لرؤساء العشائر بالدولة، وحيلولة دون قيامهم بحركات عصيان وتمرد ضدها؛ ولذا فقد كان السلطان يكثر من مجاملتهم، ويرسل إليهم الهبات والعطايا.

إلاَّ أنَّ "مصطفى باشا" رئيس عشيرة "ميران" كان شخصا آخر!.. فقد اشتهر بغروره وظلمه، وسفكه للدماء بغير حق! من يغضب عليه أو تبلغه عنه وشاية - يا بؤسه! - يكن مصيره المحتوم القتل أو العذاب المهين! كان مجرد ذكر اسمه بين الناس يثير الهول والفزع! حتى ضاق به أهالي الجزيرة ومن حولها! ولكن ما استطاعوا له حيلة ولا اهتدوا إلى دفعه سبيلا!.. ومن ذا يطيق التعرض لهذا الوحش الكاسر الرهيب؟ كيف وها جواسيسه يملؤون كل مكان!؟

إلى أن كانت ليلةٌ من أزمنة أخرى في حياة بديع الزمان..!

"سعيد القديم" - يا ولدي - كان ذا بسطة في العلم والجسم!.. شباب ولا كأي شباب! وفتوة كأقوى ما تكون الفتوة! كان ساعتها شخصية موسوية! يقاتل إذا غضب من الجولة الأولى! فلا يلبث إلا قليلا حتى تكون الضربة القاضية!.. ولكنْ أقوى من هذا وذاك أنه كان ذا عزيمة تهد الجبال! وهذه كانت هي السرُّ الحقيقي لقوته!

قال لي:

وإن كنتُ أنسى فلا أنسى تلك الليلة العجيبة!.. رأيت الشيخ "عبد القادر الكيلاني" متجليا في أبهى صورة! وكنت أحبه جداً وما زلت!.. كانت ملامحه تنبض بالنور، وكانت نظراته تفيض بالإيمان.. فسَبَح في فضاء منامي بلباسه الأبيض الأنيق حتى اقترب مني! ثم ناداني كأنما يوقظني من سباتي:

- مُلاَّ سعيد!.. مُلاَّ سعيد!.. وامتد صوته - يا ولدي - صدى يجدد حياة الروح بكياني.. فانضافت إلى قوتي قوةٌ أخرى، وإلى شبابي عَزْمٌ جديد!

ولم يكد ينقطع صدى نداه بروحي حتى قال لي:

- اذهب إلى مصطفى باشا رئيس عشيرة "ميران"، فأنت له يا ولدي! أنت له!.. ادْعُهُ إلى ترك الظلم! وإلى التوبة وأداء الصلاة! وأوصه يا ولدي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..!

وقبل أن يختفي التجلي نظرت إليه مستفهما كالمتردد؟ ولكن قبل أن أنبس بكلمة استأنف كلامه بحزم شديد وهو يسك العبارات بقوة:

- فإن لم يستجب لك فاقتله!

واختفى التجلي فجأة! الله أكبر..!

كان عمري ساعتها سبع عشرة سنة، إلا أن بدني كان يفيض بقوة العشرين عاما وزيادة! فجعلتْ روحي تنتفض بين جنبيَّ مثل بركان مخنوق!

وبدأت كلماتي تصطف على لساني كجنود جيش قوي ينتظم بسرعة فائقة للقتال! ثم بدأت عضلاتي تتأهب للعمل بقوة! لقد كان النفخ أقوى مما يطيق انتظاري؛ وانتفض الغضب الموسوي بقلبي ولا كأي وقت مضى! فلم يغمض لي جفن تلك الليلة حتى انفجر ضوء الفجر! ثم انطلقت كالحصان الجامح، لا ألوي على شيء لأداء مهمتي الغريبة!

ومع أول صفير الطير في الصباح الباكر، امتشقتُ سيفا قديما وخرجت متوجهاً إلى "الجزيرة".. كنت أشعر بقدميَّ تخطوان خطو الجبال! وكنت أرى في الأفق أمامي فرعون يتوسط ملأه، في ساحة غاصة بالسحرة والكهان! وجموع المستضعفين راكعة بين يديه في ذل، وهو يسومها خسف العذاب! وشعرت بالرغبة الجامحة في تحريرها! والعجيب أنني كنت أجد لذلك في نفسي قوة وعزيمة لا قِبَلَ لي بهما من قبل! ولا تطرق إلى قلبي شيء من الخوف أو التردد بعد سماع كلمات الشيخ الكيلاني! كنت موقنا بالنصر وكنت أرى مصرع فرعون بين يدي!

وصلت الجزيرة.. ودخلت نادي القرية وسألت عن مصطفى باشا، حيث يجلس عادة، فلم أجده. كنت كلما سألت عنه أحدا نظر إلي بشيء من الفحص المتردد بين الخوف والإشفاق! إذ لا يدري من يكون هذا الذي يسأل عن هذا الغول؟ وما عساه يكون مصيره عنده؟.. أهو من ضحاياه فَيُشْفَقُ عليه؛ أم من زبانيته ومساعديه فَيُخَافُ منه؟!

وفي سياق ذلك علمت أنه موجود في مزرعته على الهضبة القريبة.. فانطلقت صعودا إلى هناك لا ألوي على شيء حتى وجدت خيمة الباشا. كانت خيمة لاستقبال الناس، فدخلت!.. لم يكن موجوداً فيها.. وإنما كان الخدم يستقبلون الضيوف وينظمون جلوسهم فيها، فكانت فرصة للاستراحة من تعب السفر.. علقت السيف على أحد أعمدة الخيمة، ولم يكن منظره

القديم يوحي بخطر، فهو أشبه بالمقتنيات الأثرية منه بالسلاح، خاصة في زمان صارت الكلمة فيه للبارود والرصاص!.. وجلست أنتظر الباشا مستريحا على الأرض أستجمع القوة فِكْراً وبَدَناً!

كان في الخيمة عدد قليل من الناس ينتظرون الباشا، كُلٌّ لقضاء غرض ما.. كانت الحيرة والترقب تطبعان وجوه الجميع.. كلمت أحدهم لكسر حاجز الصمت فدار حوار بيننا جميعا، وسرعان ما عرفني الجميع فقد كانت مناظراتي مع العلماء قد جعلت من شخصي شبه أسطورة!.. واستأنس المجمع بوجودي كنوع من التسلي.. في انتظار وصول الغول!

وأخيراً حضر الباشا فهبَّ الجميع وقوفاً! لكنني بقيت وحدي جالسا على الأرض في هدوء! وكأن شيئا لم يحدث! ولم يخفَ ذلك عن نظر الباشا المغرور طبعا! بل رأيت تغير وجهه الضخم يختنق بعلامات الدهشة والغضب!

ثم جلس على أريكته بكبرياء بالغ! وسأل أحدَ خدمه بنبرة فيها استعداد للقتال، قال وهو يسمعني إياها:

- من هذا؟

- إنه "الْمُلاَّ سعيد" العالِم المشهور يا سيدي!

ظهر عليه نوع من الاضطراب، فكأنه ما توقع من العلماء هذا النوع من التحدي.. حاول كظم غيظه قليلا، ثم توجه إلي مباشرة وسألني بصوت لا تخفى منه نبرة الاستهتار والاحتقار:

- لماذا أتيت إلى هنا..؟

كانت عيناه جاحظتين، وأوداجه الحمراء منتفخة مثل التمساح!

نظرتُ إليه بنوع من الهدوء المشعر بالثقة العالية في النفس؛ زيادة في

إفزاعه وقمعه، ثم قلت بصوت صَعَّدْتُ نَفَسَهُ من الأعماق، وكأنما هو صوت يدعوه من عالم القبور:

- جئت لأدعوك إلى التوبة والهداية!..

كانت العواصف تزمجر في وجهه الكالح، وكان البرق يخرق خديه البارزين، ودموع الغيظ الشديد تكاد تمزق حمرة عينيه الجاحظتين! وشاربه الكثيف المصفوف بعناية فائقة على عادة الباشاوات يضطرب اضطرابا شديداً..!

ولم أمهله كثيرا.. بل استأنفت تفريغ ذخيرة بندقيتي وأنا أضغط على الكلمات ضغطاً:

نعم!.. تُبْ إلى الله يا باشا! تُبْ!.. أَقْلِعْ عن الظلم! واشرع في أداء الصلاة..! بأي حق أم بأي شرع تستعبد هؤلاء المستضعفين وتعذبهم؟

كان اللهب قد طوق كل وجهه غيظا وحنقا! وكان الدخان قد أعمى ما بقي لناظريه من إبصار!.. أحقا أنه يسمع كلاما مثل هذا؟ ومن شاب مثل هذا؟ أي خلل أم أي اضطراب وقع في الكون حتى تجرأ عليه مثل هذا الفقير الحقير؟ ولكن لماذا لا يبادر إلى إسكات هذا الصوت المزعج بطلقة من مسدسه أو بقبضة يده؟ لماذا لا يتصرف بشيء من جبروته المعهود؟ ما الذي حدث له هو أيضاً؟.. فما كان كبرياؤه المتغطرس ليمهل أحدا إلى مثل هذا الحد..! ولكن ما سبق أن تجرأ عليه أحد بمثل هذا..! وذلك سر الاضطراب..! فلا يدري ماذا يفعل؟ ولا كيف يتصرف؟

كان اسم بديع الزمان قد طرق سمعه هو أيضا.. ذلك العالم الشاب الذي لا يُبَارَى! أسطورة بهرت العقول وحيرت الألباب! ولكن ما لي أنا؟ لست بعالِم ولا دعوى لي في هذا الشأن، فما الذي سلطه عليَّ إذن؟

شعر الباشا بشيء من الخوف لأول مرة! خوف لا يدري طبيعته ولا

سببه! فهو يعلم أنه الأقوى بكل المقاييس التي يعرفها، ولكن.. أَثَمَّ مقاييس أخرى؟ أهناك نوع آخر من القوة؟ أم أن ثمة سِحْراً جَرَّأَ عليه هذا الفتى المجنون؟!.. لا بد إذن من إطالة نَفَسِ المعركة قليلا؛ حتى يتبين طبيعتَها أولا، فما كان من صالحه أن يقال: إن الباشا قتل بديع الزمان النورسي، وقد طبقت شهرته الآفاق! ولكن لا بد أن يقتله على كل حال! فصرخ بنوع من التحدي قائلا:

- فإن لم أفعل ما تقول؟

قال لي: أدركتُ مراده، فقررت أن أحرمه مهلة التفكير في الهروب، أو أي فرصة لإطالة أمد المعركة، وقررت أن أقاتل من الجولة الأولى.. ثم نظرت إليه بعينين ثابتتين وقلت بهدوئي الأول وصوتي الأخروي:

- أقتلك!

أحاط الرعب بالخيمة ومن فيها، فالكل توجس شرا! وما يدريك عند أي حد سيقف غضب الباشا؟ وكم سيقتل من الخلق جراء هذا التحدي القوي أو هذا التهور الأخرق؟! أي مصيبة هذه أم أي كابوس؟! وخيَّم صمتٌ رهيب على الجالسين.. وأيقن أكثرهم بأن نهاية هذا الفتى قد أزِفَتْ! ولكن كيف الخلاص من غضب الباشا بعد ذلك؟

ولكنَّ أحدا لم يكن يدري بأنه قد انهزم تماما! وأنه لم يجد قوة حتى لمد ذراعه إلى أعلى، ولا إصبع لديه لضغط زناد بندقيته، ولا كف حتى لخنق دجاجة! فكيف بمعركة يقف فيها بين يديه شاب قوي يتألق ذكاء وحدة!؟

كان الباشا قد انتهى في أعماق نفسه فقرر الاستسلام لكن بما يحفظ له ماء وجهه أمام الناس، ويصون سمعته بين الأهالي!

لم يتحمل الجلوس في الخيمة أكثر، فاندفع إلى الخارج مظهرا نوعا من الغضب.. وإنما هو يخفي اضطرابه الشديد، وبعد أن تحول في الفضاء الواسع

قليلاً سكنت حدته، ثم رجع إلى الخيمة. وقبل أن يجلس كرر سؤاله السابق، وكأنه لم يصدق الإجابة التي تلقاها:

– لماذا أتيت إلى هنا..؟

– لقد أجبت عن هذا السؤال يا باشا!

أشار الباشا إلى سيف الملا سعيد المعلق على عماد الخيمة، وقال ساخراً:

– أتقتلني بهذا السيف القذر؟

وأدركت مراده على التو؛ كان يريد اختبار مصدر قوتي أهو بدني أم سلاحي؟ فجعل يسخر من فُتُوَّتِي، ويقلل من شأنها وخطرها بإزاء قوته وجبروته، فأجبته بتحدٍّ أكبر مما يتصور:

– إن هذا السيف لا يقطع.. وإنما اليد هي التي تقطع! نعم أقتلك بيدي هاته! ولوَّحْتُ أمامه بقبضتي في الهواء!

وفشلت خطته مرة أخرى في الفرار من المعركة، ثم خرج من الخيمة وهو يفور من الغضب!.. لم يكن حتى الآن قد اصطدم بأي أحد من العلماء؛ فقد كانوا يَتَوَقَّوْنَ شره ويجتنبونه! ولعله هو أيضا كان يجتنبهم.. ولكن ها هو هذا العالم الشاب يكاد يجبره على أن يغمس يديه في دمه!.. والمشكلة أنه ليس عالماً دينياً عادياً، بل هو عالم مشهور! إنه بديع الزمان.. بل هو أسطورة الزمان! ولا شك أن قتله سيثير عليه لغطا واسعا ومتاعب كبيرة! ودخل في دوامة من النظر وإعادة النظر، ومن تكرار التفكير والتقدير..!

ثم بعد لحظات توقف عن السير وكأنما وجد شيئا، ورجع تجاه الخيمة، وقد استقر رأيه على حيلة جديدة، لعلها تحفظ له ماء الوجه فعلا، وتخلصه من مواجهة الفتى..

كان يلقي بالكلمات عالية وهو يدخل على الجالسين:

– اسمع يا هذا! إنني سأمتحنك! فإن لي علماء من أهل "جزيرة ابن عمر"، وسأهيء لك مناظرة معهم! فإن غلبتهم فعلا استجبت لدعوتك، وإلا ألقيت بك في النهر جثة هامدة!

كانت حيلة لطيفة حقا.. ومخرجا ذكيا فعلا، فالعلم سيد الحكام.. والعلماء هم أهل الحل والعقد، وإليهم المرجع في كل الأحوال! وواضح أن الباشا قد رضخ بصورة غير مباشرة، وما يدريك؟ لعلها مقدمة لتوبة حقيقية!.. ونظرت إلى جموع الحاضرين، كانت الأنظار والأسماع كلها متوجهة إليَّ تنتظر الرد بفارغ الصبر.. وكأنها تستغيث ماذا تنتظر يا فتى؟ اِقْبَلْ هذا العرض السخي! وأخرجنا من هذا الكابوس الرهيب!

وبدا لي أن أقبل فعلاً.. فقد أحسست أنا أيضا بأن واجبي قد وصل إلى غايته، وللعلماء كلمتهم، ولكل حادث حديث.. وعلى كل حال فالمعركة لم تنته بعد! ثم قلت بنوع من الهدوء المشوب بنبرة العطف والتودد:

– أنا يا باشا لا أدعي غَلَبَةَ العلماء، ولا أملك الحق في ذلك.. كما أنك لا تملك حق إلقائي في النهر! لكن إذا استطعتُ أن أجيب عن أسئلة جميع هؤلاء العلماء؛ فإنني سأطلب منك إعطائي بندقية "ماوزر"؛ لأقتلك بها إن لم تحافظ على وعدك!

وسكت الباشا رغبة منه في إنهاء هذه الدعابة الثقيلة! ثم أشار إلى الجموع بالانتقال إلى مكان المناظرة الموعودة!

وتحرك الجمع تجاه القرية يتقدمهم الباشا ومرافقوه، متوجهين إلى "خان باني" الأثري، هناك على ضفاف نهر دجلة، حيث ستجري المناظرة..

أرسل الباشا رجاله إلى علماء المدينة المعروفين، يخبرونهم بالقضية التي هم مطلوبون من أجلها؛ عسى أن يتهيؤوا ويستعدوا لها سلفاً! تدقيقا في اختيار أنابيش العلم، والبحث عن غرائبه؛ من أجل إفحام الفتى وإظهار غروره!

عسى أن يعيدوا الاعتبار إلى كبرياء الباشا الجريح! وتكون تلك هي الفرصة لمحو أسطورته بين الناس؛ فيسهل الانتقام منه بالقتل!

كان العلماء منهمكين في البحث بين عشرات الكتب، وهم يسجلون ما يعثرون عليه من إشكالات هنا وهناك!.. أما الفتى فقد طلب أن يخصص له مكان للنوم، للاستراحة من وعثاء السفر، فلم يلبث أن غط في نوم عميق، واثقاً بنفسه غير آبه بشيء، رغم ما سمعه من تهديد ووعيد! ولم يخطر بباله قط أن يلقي نظرة على أي كتاب مما يفتحون ويطوون! كيف وهو يحمل في ذاكرته أضخم مكتبة عرفتها مدارس تلك البلاد ومعاهدها؟! ولذلك نام وكأنما يتمثل بقول الشاعر العربي:

أَنَامُ مِلْءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا   وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ!

وبعد ساعات مرت على الباشا كمرور القرون؛ فتح النورسي عينيه ليقال له: "إن المجلس منعقد، وإن العلماء مستعدون، والباشا ينتظر النتيجة!" جمل تحمل من الإرهاب والتخويف ما يكفي لإتلاف كل المعلومات التي يحفظها أرسخ العلماء..!

دخل الفتى عليهم بهدوء، ثم ألقى السلام وجلس. وبدأت أقداح الشاي تدور على الجالسين. أما العلماء فكانوا في شغل عن الشاي، إذ كانوا لا يزالون يقلبون صفحات الكتب في اضطراب ظاهر، وكان بعضهم يهمس إلى بعض من حين لآخر بشيء. أما صاحبنا فقد جلس يشرب شايه وينتظر الأسئلة.. ولكن الأسئلة أبطأت كثيراً..! فتناول قدح أحدهم مازحا وشربه، فلم ينتبه له! ثم تناول قدح الثاني فلم ينتبه، ثم الثالث والرابع؛ حتى شرب أقداحهم جميعا وهم ما يزالون غارقين في تقليب الأوراق!

لقد كانوا جميعا شبه غائبين عما يجري حولهم؛ إلا واحدا؛ كان على أشد ما تكون اليقظة والانتباه! إنه مصطفى باشا! الخصم الذي ينتظر نتيجة

المعركة التي لم تبدأ بعد! لقد كان يراقب مجرى الأمور، ولم يغب عنه قلق العلماء واضطرابهم الشديد! ولا هدوء الفتى وتصرفه الخفي مع أقداح الشاي! فصرخ الباشا غاضبا:

- أيها السادة! إنني لست شخصاً متعلماً، ولكن يبدو من الآن أنكم ستُهزَمون أمام "الملا سعيد"! لقد انشغلتم عنه في تقليب الأوراق حتى شرب شايكم جميعا! فماذا تنتظرون؟ لِمَ لا تشرعون في المناظرة؟

والحقيقة أن أسطورة بديع الزمان كانت قد وصلت إلى قلوبهم منذ أشهر؛ فأفزعتهم! ولولا سطوة الباشا لما قدموا إلى هذا المكان! وإنما تثاقلهم في تقليب الأوراق راجع إلى خوفهم أن يوجه إليهم بديع الزمان سؤالاً ما أو عدة أسئلة؛ فتنقلب الموازين كلها وقد علموا قضيته مع الباشا فأيُّ بحرٍ أم أيُّ بَرٍّ يحميهم من بطشه إن هم خسروا المناظرة؟!

قال لي:

ولقد أدركت سر اضطرابهم وتباطئهم؛ وأدركتني رحمة بهم، فهم مني وأنا منهم، وما كان ينبغي أن أحرجهم بين يدي هذا الغول الشرس! فقلت لهم بنوع من التطمين الجاد:

- أيها السادة! لقد وعدت بألاّ أضع أي سؤال عليكم.. وإنما أنا حاضر هنا بين أيديكم للإجابة عما تسألون أنتم بإذن الله!

ورأيت الانفراج على ملامحهم جميعا..! ثم استأنفت قائلا: فلنبدأ إذن! إن الباشا ليس له وقت أكثر لإضاعته وإننا لنرجو أن يكون مجلسنا هذا فاتحة خير..!

وبدأ السؤال الأول.. كان من مشهور دقائق الإشكالات بين العلماء وطلاب العلم.. ثم كان السؤال الثاني والثالث.. حتى بلغت الأسئلة نحو الأربعين سؤالاً، من دقائق العلم وإشكالاته! أجبت عنها جميعا بطلاقة كأنما

أقرأ من كتاب مفتوح! ولكني أذكر أنني أخطأت في جواب واحد! ولكن أحدا لم ينتبه إلى ذلك! بل كانوا يبدون علامات الرضى والموافقة على كل ما أقول! حتى إذا كانت نهاية المناظرة وهَمَّ السادة العلماء بالخروج مستأذنين استوقفتهم قائلاً:

– عذراً أيها السادة! لقد سهوت في جواب السؤال الفلاني، والجواب الصحيح إنما هو كذا وكذا..! وبدا عليهم اضطراب أشد من ذي قبل، وما كان منهم إلا أن يوافقوا مستسلمين مذهولين! وأذكر أن أحدهم تشجع فطلب مصاحبتي لطلب العلم!

أما مصطفى باشا فقد كانت المناظرة كافية لكسر غروره، بل إنه صار عند أواخر الأسئلة ينظر إليَّ أحيانا بنوع من العطف والتأييد! حتى إذا انتهت المناظرة وخرج أصحابه قام إليَّ متهلل الملامح باسم الوجه، ثم نزع بندقية "ماوزر" التي كانت على كتفه، وقدمها إليَّ قائلا:

– هذه هديتي إليك يا بديع الزمان! عفوا.. الآن علمت صدق كلامك، وأنك فعلا عالم حقيقي، تفعل ما يأمرك به الدين! إنك تستحق كل التقدير..! وإنني أعدك أن أتوب إلى الله، وأن أشرع في أداء الصلاة من الآن! وانتهى الكابوس بسلام.. وكانت خاتمة حسنى حمدت الله عليها!

صعب عليَّ البقاء بعدها في "سعرد" ونواحيها، فقد اشتعلت نار الحسد لدى طلاب العلم وبعض العلماء رحمهم الله، وتحلق حولي بعض العامة يتبركون.. فقررت الرحيل..!

كان عمري آنئذ نحو الخامسة عشر، وأثقلتْ عليَّ حالي فلم يطقني بدني، ولم يسعني مكان.. وجعلتُ أتنقل ما بين سعرد ويتليس وشيروان.. إلى أن استقر بي المقام أخيرا في تيللو.. هناك انتابني جنون اللغة العربية فكان لي معها شأن..!

جعلت أداوي حرارة قلبي الجديدة بحفظ كتاب القاموس المحيط للفيروزآبادي..! إلى أن وصلت باب السين..! وهناك فقط فتر عني واردها الجياش وعدت إلى هدوء مزاجي..! وقد لاحظت أن صاحب القاموس المحيط يورد المعاني المختلفة لكل كلمة، فخطر لي أن أضع قاموساً آخر أنحو فيه عكس هذا المنحى، أي أورد فيه عدد الكلمات المختلفة التي تشير إلى المعنى الواحد، ولكن خاطره فتر عني أيضا..!

ثم ذهبت بعدها إلى "ماردين" والتقيت طالبين؛ أحدهما من طلاب السيد جمال الدين الأفغاني.. والآخر من منتسبي الطريقة السنوسية الليبية. فاطلعت بواسطتهما على منهج السيد جمال الدين الأفغاني في استنهاض الأمة من غفلتها، وكذا الطريقة السنوسية في روحانيتها الجهادية، كانت مجرد إشارات؛ لكنها كانت بالنسبة لي كافية لإيقاظ معنى جديد في نفسي، وطبع صورة المستقبل على صفحة قلبي، ورسم معالم شخصيتي المستقبلية.

حكاية أخرى: النظر الحرام يسلب العالم سره..!

مكثت سنتين ضيفا على الوالي "عمر باشا" - رحمه الله - بمدينة "بتليس"؛ بناء على إصراره الشديد؛ لفرط حبه للعلم والعلماء. وخصص لي غرفة في الطابق العلوي من بيته. وكان له ست بنات كما عرفت بعد: ثلاث منهن صغيرات، وثلاث بالغات كبيرات.. ومع أني كنت أعيش معهن في سكن واحد طوال سنتين؛ إلا أنني لم أكن أميِّز بين الثلاث الكبيرات؛ إذ لم أسدد النظر إليهن قط، وأنا إذ ذاك الفتى الشاب! إلى أن نزل أحد العلماء يوماً ضيفاً عليَّ، فعرفهن في ظرف يومين فقط! وميَّز بينهن واحدة واحدة! فأخذت الحيرة الذين من حولي، لعدم معرفتي إياهن! وسألوني:

- لماذا لا تنظر إليهن؟ فكان جوابي الذي جرى على لساني تلقائيا:

- صون عزة العلم يمنعني من النظر الحرام..!

كانت تلك مشاهدة وجدتها في حياتي: حُفِظَتْ عيناي من الحرام بحمد الله حفظا! فارتقت روحي - بإذنه تعالى - إلى ما فتح الله به عليَّ من أسرار الحفظ والإدراك لحقائق العلوم! وكان من بركات ذلك أنني خزنت في قلبي حقائق تسعين كتابا في ظرف ثلاثة أشهر، أي بمعدل ثلاث ساعات يوميا من التخزين والمطالعة.. وجعلت أخرج من حافظتي ما أشاء، كما أشاء، ومتى أشاء.. وما تزال ذاكرتي تستحضر بقوة وحيوية ما شاهدته أو سمعته، وكل ما ترآى أمامي من الصور والمعاني والأصوات.. كأنما هو شريط سينمائي جاهز، كلما دعوته استجاب! وهذا حالي طوال عمري الذي ناهز الثمانين كما ترى!.. ولأمر ما حرمني الله نعمة الكتابة السوية فلا أستطيع

رسم الخط إلا بمشقة! ولك أن تقول إنني صاحب خط أُمِّيّ! والحقيقة أنني شاهدت بعدُ كيف أن ذلك كان نعمة عظمى؛ إذ لو كنتُ أجيد الكتابة لما كانت المسائل تستقر في القلب ذلك الاستقرار العجيب! فما من علم بدأت بمطالعته إلا وشرعت في كتابته على دفاتر روحي؛ بما كان يملأني من شوق إلى العلم، وبما كان ينتابني من شعور بحرماني من الكتابة الجيدة والخط السليم. وكم من نقمة في طيها نعمة.. وما كان ذلك من أمري.. ولكنه قَدَرٌ سيق إلي أو سِقْتُ إليه بحكمة ربانية عالية.

جنون العلوم الحديثة

اطلعت على مكايد الأعداء التي بدأت تحاك ضد الأمـة الإسـلامية.. فاقتنعت يقيناً أن أسلوب علم الكلام القـديم قاصـر عـن ردِّ الـشبهات والتشكيكات المحاكة اليوم حول الدين، فهبَّ بقلبي عاصف خـوض بحـار العلوم الحديثة أيضاً..! وطفقت ألتهم ما يعترض طريقي منها..! من تاريخ، وجغرافيا، ورياضـيات، وجيولوجيـا، وفيزيـاء، وكيميـاء، وفلَـك، وفلسفة...إلخ، حتى اكتمل لي منها أُسُسٌ كلية، وتصورات شاملة. وكـان ذلك أثناء مدة قصيرة جداً، بالنسبة لما يدرسون ويبرمجون.. جرى ذلك على عادتي الروحية: بلا معلم ولا أستاذ، وإنما بما يفيض علـى روحـي مـن فتوحات ربانية، ما كنت لأدرك مغزاها إلا بعد دائما!

فمثلاً: حفظت عن ظهر قلب خلال أربع وعشرين سـاعة كتابـاً في الجغرافيا، قبل أن أناظر في اليوم التالي مدرسا للجغرافيا وألزمه الحجة في دار الوالي "طاهر باشا"! وكان الإلحاد الأسود قد بدأ ينفث ظلماته الرهيبة على الأرض.. فكانت العلوم الحديثة التي طالعت كافية لتفتح لي آفاق الولوج إلى عالم العصر الجديد، لكن عبر بوابة القرآن الكبرى.. فكان ما كان من أمـر بديع الزمان! وما كنت في الحقيقة يا ولدي سوى عبد استعملني الله بمحض فضله في خدمة رسائل النور..! فكل سـرٍّ التجليـات راجـع إلى مـدى الإخلاص المستبطن في قصد الخدمة! ذلك؛ يا ولدي فتدبر..!

ثم طأطأ رأسه وسكتَ مَلِيّاً.. فجعل زورقُه الصغير يهتز بشدة فوق مياه البوسفور.. كانت تيارات الماء تضربه بقوة!.. نظرت إليه في دهشة وفزع، وبدا لي كأنما هو يغرق..! فركتُ عينيَّ لأُذْهِبَ عنهما الغشاوة.. فقد كانت دروس الحكمة أعظم من أن أتحمل جلالها وحدي..! ورغم ذلك قلت: يـا سيدي زدني! زدني! فأشار بأصبعه إلى السماء، و..

وأدرك الزورقَ الصغيرَ الصباح؛ فسكتَ عن الكلام المبـاح! وارتفـع التجلي من بين يدي.. ثم انطلقت أصوات الأذان تصدح من مآذن اسطنبول في كل اتجاه.. ودخلت في صف الصلاة مع الأمواج والأشجار.. وما هـي إلا لحظات حتى نزل حجاب النهار على المدينة من جديد.

* * *

ثم كانت ليالٍ وأيامٌ لم أدر كم كان بينها من أزمنة ولا كم مر عبرها من دهور.. وأنا أتوقع تجليا جديدا الليلة تلو الليلة؛ ولكن دون جدوى..!

كان الثلج يغطي منازل المدينة كلها، قبابها وأشجارها، ويقطع بعـض مدارجها، والريح القارس يعصف عبر مسالكها شديدا، فيملأ طرقها وأزقتها جليدا، فلا حركة ولا مشي إلا وئيدا..! أطفال المدارس لم يغادروا منازلهم طوال هذا اليوم الشتوي الرهيب..! كنت أطل من وراء نافذة مدرسة "حي فاتح" النورية.. والوقت قد تدنى نحو الغروب.. فالليل تقف خيوله ضـابحة على الأبواب.. سمعت طرقا خفيفا فبادر أحد طلاب النور إلى فتحه، لكني سمعت منه همهمات ثم عاد ولم يدخل معه أحد! ثم سمعت الطرق مرة أخرى فبادر الطالب إلى الفتح لكنه عاد كالمغضب ولم يدخل أحـد! ثم كانـت الثالثة؛ عجبا..! ما هذا؟ واستبد بي شعور أشبه ما يكون بالخوف.. كـان خوفا ممزوجا برغبتي الجارفة في معرفة سر الطرقات! فاستأذنت الطالب لفتح الباب.. فهضت بنوع من رغبة التحدي ففتحت الباب بقوة... كانت الريح قوية جدا، وكان العصفُ أقوى من أن أستطيع إغـلاق البـاب دونـه..! فنظرت إلى داخل المدرسة كالمستغيث فلم أبصر أحداً..! وازدادت حـدة

العصف فلم أتمالك نفسي حتى استسلمت لجارفه القوي، ومضيت مع الريح..! وأنا لا أدري وجهة العاصفة أيّانَ مُرْسَاهَا..! حتى وجدت نفسي طريحا، أتململ بين اليقظة والإغماء، على سفح جبل ثلجي قد غربت عنه الشمس تماماً وسكنه طارق الليل.. كانت الأشجار أو ما يشبه الأشجار تحيط بي من كل مكان.. بدأت أتحسس أطرافي وجوارحي، من رأسي إلى أخمص قدمي، فتيقنت من سلامة كل أعضائي، ثم حاولت النهوض لكنني لم أستطع.. حاولت الزحف على ركبتي قليلا إلى أعلى فلم أستطع..! وما هي إلا ثوان حتى شعرت كأن قوة ما تجذبني بين الأشجار إلى أن وجدت نفسي بمكان من صدر الجبل أقرب إلى الاستواء.. فكان أن اتضح لي منظر كوخ صغير بين الأشجار، يصدر منه ضوء خافت وكأنما هو شعاع شمعة..! شعرت بحرارة الحياة تتدفق في جسمي بقوة.. نهضت فدخلت الكوخ بحذر أطلب الأمان.. لم أجد أحدا، والنور ما يزال ينبع هونا من بين القش والأغصان! رأيت حصيرا باليا وبدا لي كأنه مكان ذِكْرٍ أو صلاة، فتذكرت الصلاة، ثم كبرت تكبيرة الإحرام: الله أكبر، وبعد الحمدُ أشرقت عليَّ سورة النور فشرعت في التلاوة.. فإذا بالنور يتدفق بقوة من كل مكان..! وإذا بهيأة الكوخ تتجلى بين يدي كأبهى ما تكون القصور، وأرفع ما تكون السواري والقباب! وسرت قشعريرة السكينة والطمأنينة بكل جسمي العليل، شفاءً سريعا وبلسما جميلا: لقد بدأت التجليات من جديد..!

ثم سلمت.. وإذا بي أجده جالسا عن يميني على جزء الحصير القديم، يسند ظهره إلى خشبة الكوخ.. وكأنما يتلو بعض الأوراد.. استويت إليه بهدوء بالغ.. ولم أتكلم بكلمة..!

قال لي: سأعود بك إلى سنة: ١٨٩٩م، كما سأمضي بك خمسين سنة أخرى إلى الأمام من حدود عمرك هذا الذي أنت فيه الآن؛ كل ذلك من

أجل درس الحكمة فلا تحزن! إن الزمن – من حيث هو حركة متجزئة – لا حقيقة له إلا في أعيننا نحن بني آدم؛ وإلا فهو حقيقة كونية ممتدة امتدادا واحدا من بدايته إلى نهايته.. فلو استعرضته لوجدته قطعة واحدة، أو خَلْقاً واحدا مما خلق الله، مكتمل الشخصية، ندرك منه نحن أجزاء صغيرة جدا على قدر أعمارنا.. وعليه؛ فلو طرقت بابه في أي الاتجاهات شئت من الماضي أو الحاضر لرأيت منه عجبا! وإنما تحتاج إلى بعض الصفاء لترى..! فما كان لفاقد النور أن يبصر شيئا!

مقام الابتلاء

مُكابَدات "سعيد القديم"..!

بدأ ذلك سنة ١٨٩٩م، وهي سنة انقلاب كبير في حياتي..! كنت في نحو العشرين من عمري.. ففي هذه السنة يممت نحو القرآن الكريم.. واتخذته قبلة جهادي.. إذ فرغت من الاهتمام بسائر العلوم المتنوعة، وتفرغت لدراسة علوم القرآن فقط! وكانت حادثة الانقلاب النفسي قد وقعت لي في منزل الوالي "طاهر باشا" رحمه الله، حيث علمت منه أن أوروبا تحيك مؤامرة خبيثة حول القرآن الكريم، وأخبرني بما تطايرت به الصحف في كل مكان؛ من أن وزير المستعمرات البريطاني: (وليم جلادستون) قد قال مقولته الشهيرة: (ما دام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نحكمهم حكماً حقيقياً أبداً، فلنسع إلى نزعه منهم!) هنالك ثارت ثائرتي ووجدت غضبا لا قبل لي به! فكأنه لم يكن مني ولا هو من صميم روحي.. وكأنما كنت أتلقاه صواعقَ من بوارق أسماء الجلال.. فجعلني ذلك أغير اتجاهاتي الفكرية في طلب العلم والتعلم، مستخدما جميع العلوم المتنوعة المخزونة في ذهني مدارج للوصول إلى إدراك معاني القرآن الكريم، وإثبات حقائقه الإيمانية لنفسي وللآخرين.. ولم أعرف بعد ذلك سوى القرآن هدفاً لعلمي وعملي، وغاية لحياتي ودعوتي. وأصبحت المعجزة المعنوية للقرآن الكريم دليلاً لي ومرشداً.. نعم لقد أصبح ما يقرب من تسعين كتاباً حفظته مجرد مدارج ومعارج للصعود إلى حقائق القرآن المجيد. وما أن بلغت مشارفها العالية حتى شاهدت أن كل آية كريمة تحيط بالكون وتستوعبه!.. عجبا لقد كفاني

القرآن الكريم مراجعة أي شيء آخر بعده! حتى قلت لكل من لقيني في طريق النور بما وصلت إليه من يقين القرآن: (لأبرهننَّ للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها!).. وعشت هذه الحقيقة في نفسي نحو سبع سنين! أتعلم من القرآن مباشرة درس النور وحقائق الإيمان.. ثم أُخَزِّنُ ذلك في ذاكرتي إلى أن يأذن الله بموعد الشروق! لكن حفظي للمعلومات إنما كان بمنهج "سعيد القديم" القائم على الجدل الكلامي والتدافع السياسي.. ومن هنا فبعد هذه الفترة من التخزين حل بقلبي خاطر التجرد للفعل الحركي، والخروج إلى الناس بدعوة القرآن.. فخطر ببالي أن أشد الرحال إلى اسطنبول لتحقيق هذه الغاية الكبرى. وكان ذلك خلال السابعة والعشرين من عمري..!

وقع بخاطري أن أشباح الظلام ستغزو اسطنبول أولا! بما هي رأس الأمة الآن، وبما هي قنطرة العالم الإسلامي إلى أوروبا.. وما تزال هذه المدينة العريقة تشهد قِبَابُها ومآذِنُها بخفق الإسلام الأبدي مستشرفا آفاق الغرب إلى الأبد! فها هي ذي راية الهلال ترفرف بتحد على مشارفهم..! ولهم على بوسفورها غصة الهزيمة النكراء التي سجلها عليهم – من قبل قرون – أمير البحار والأنهار، وترجمان الفتح النبوي، السلطان الفاتح: محمد الفاتح رحمه الله..! فالقصة كلها هناك.. فإن تسقط اسطنبول يسقط كل شيء بهذا العالم! فلا بد من الرحيل..! ثم نظر إلي بهدوء وقال: انظر هناك! وأشار بيده إلى فجوة صغيرة في قش الكوخ يتسرب منها شعاع ضئيل.. رفعت بصري فامتلأت عيناي نورا جميلا، و..

ورأيت الفارس يمتطي صهوة الريح ويمضي كالبارق لا يلوي على شيء..!

....

قال لي:

كانت المداخل كلها مغلقة! فلا سبيل إلى العبور.. ورأيت الأسوار القديمة تتحرك، تمتد وترتفع عاليا في حركة رهيبة كلما اقترب منها أحد! حتى إنها لتمنع دخول النور، وتحجب أشعة الشمس عن القباب والأبواب! كل شيء يعيش في ظلام دامس! الخفافيش وحدها تملأ الفضاء..! تراجعت قليلا إلى وراء فوجدت على الشاطئ الأيمن من البوسفور قوما يحاولون التعرف على الطريق إلى مدخل المدينة.. سألت أحدهم هل معه من مصباح؟.. فأجابني: إننا ننتظر الشروق! قلت: ويلك إنه زمن الخسف والكسف! فمن لم يجعل الله له نورا فما له من نور..! وكررت سؤالي: هل معكم من مصباح؟ قالوا: لا..! قلت: إذن فارفعوا الأذان..! قالوا: ولأي وقت! قلت لوقت المحنة! وانطلق الأذان مكبرا يخرق الآفاق من البوسفور إلى مرمرة.. وانطلقت الشمس تشرق من جديد على مدينة الأحزان! ثم انفتحت الأبواب على مصاريعها الكبرى.. وسقط في أيدي أشباح الظلام! نعم يا ولدي..! ما كان لإسطنبول أن تُغْلَقَ أبوابها دون عباد الله إذا حضروا. قلت: إذا حضروا..! أتصغي؟ فإذا نادى مناديهم فيا خيلَ الله اركبي..!

ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها.. ثم بدأت رحلة الابتلاء..!

جامعة الزهراء وتهمة الجنون!

قال لي: كنت أشهد الوضع الرديء الذي كان يعيشه أهالي الولايات الشرقية من تركيا، فأدركت أن سعادتنا الدنيوية ستحصل بمنبعين، الأول: دراسة العلوم الحديثة الحاضرة من جهة، والمنبع الآخر سيكون - من جهة ثانية - المدارس الدينية حتماً! لا بد من تزاوجهما واندماجهما. لا بد أن يأنس علماء الدين بالعلوم الحديثة، وينفتحوا عليها. وحيث إن زمام الأمر في تلك البقاع بيد علماء الدين؛ فلا بد أن تكون القيادة واعية بما فيه الكفاية.. فهذا الشعور هو الذي دفعني إلى المجيء إلى اسطنبول.. فقدَّمْتُ إلى السلطان عبد الحميد رحمه الله عريضة بضرورة إنشاء "مدرسة الزهراء" في الولايات الشرقية؛ للإسهام في نهضة الأمة، ودفع البلاء عنها، وتحصينها بالعلم الجامع بين المنهجين القديم والحديث. ومن هنا بدأ الابتلاء..

كان مجيئي إلى اسطنبول قد وقع قبل عهد إعلان الدستور، أواخر العهد العثماني.. وكان أن اقتنيت بضعة كتب قيِّمَة في علم الكلام، فقرأتها بدقة؛ لمّا علمت من انتشار فلسفة السفسطة بين بعض الناس. فدعوت العلماء وأساتذة المدارس الدينية إلى المناقشة والمذاكرة؛ لأعلم مجرى الأحوال العلمية في البلاد واتجاهاتها. فلما حضروا اندهشوا من صغر سني آنذاك بالنسبة إليهم. ثم قلت لهم: "اسألوا ما شئتم!" والشيء العجيب حقا أن المسائل التي طرحها القادمون كنتُ قد قرأت أجوبتها في طريقي إلى اسطنبول، وظلت عالقة في ذهني كاملة.. كانت العقلية السائدة جدلية محضة! فعلمت طبيعة الريح التي تهب على البلاد!

وعندها انتشرت إشاعة تقول: إن شابا اسمه "بديع الزمان" ذا قيافة غريبة، جاء من شرق البلاد، وإنه يجيب عن أي سؤال يوجه إليه، وإنه يتناول الفلسفة السفسطائية بالدحض والتفنيد بأدلة عقلية ومنطقية.. وكأن معلوماته في الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام ليس لها حد..!

وتحركت بذلك وشاية الحساد والخصماء، وكانت عريضتي إلى السلطان عبد الحميد قد وصلت؛ فأدت بي هذه الظروف كلها إلى أن أساق إلى مستشفى المجانين؛ لأسجن فيه بتهمة الجنون!.. كانت حاشية السلطان خليطا غريبا من العملاء للأجانب والجواسيس وأصحاب المطامع الشخصية الانتهازية..! وقَلَّ جدا أن يكون منهم رجل رشيد..! كان الظلام قد عصف بالقصر كله، وأحاطت به الدسائس من كل جانب، ولم يبق منه إلا أطلال هزيلة تنتظر السقوط الأخير..! ولن يكون السلطان بعد ذلك إلا آخر من يعلم! وكذلك كان!

وعندما حاورني الطبيب في المستشفى بصفتي مجنونا؛ استولت عليه الحيرة والدهشة.. فما لبث إلا أن كتب تقريراً ضمنه هذه العبارات: "لا يوجد بين القادمين إلى اسطنبول من يملك ذكاءً وفطنة مثله، إنه نادرة العالم!".. وعلى إثر هذا التقرير حلّ الهلع في صفوف المسؤولين في القصر، فتداركوا الفضيحة قبل أن يستفحل أمرها، وينتشر خبرها؛ فأصدروا أمراً مستعجلاً بإخراجي فوراً من المستشفى! وبعثوا لي مع وزير الداخلية أمراً إدارياً يتضمن تخصيص مبلغ قدره ثلاثون ليرة ذهبية مرتَّباً شهرياً! مع مبلغٍ من التبرعات؛ وذلك لأجل إبعادي عن اسطنبول! وكانت تلك خطة شيطانية قد انطلت على بعض الصالحين والعلماء المغفلين!

ومد إليَّ المأمور وثيقة المرتَّب والتبرعات.. وقبل أن أجيب جاء الوارد باردا شديدا هذه المرة! فما هي إلا ثوان حتى هبت العاصفة بقلبي..!

وطفقت أعدو في الغابة بمنزلة تتراوح بين خريف وشتاء.. ولقد شاهدت الأشجار تتلوى، ثم تتكسر أغصانُها تحت قصف الرعود والأمطار..! ما بقي على أجسادها من ورقة! سواء منها النافضات وغيرها..! كل شيء في الغابة عار تماما! وبدأ الثلج يلطم وجه الحقيقة العارية بكل شدة! فتدمى لها الأخشاب المنخرطة في نشيجها الأليم.. كانت لطمات رحمة وصفعات تأديب! نعم ولكنها كانت شديدة أليمة! كان جسمي العليل ينتفض انتفاضا.. وكانت أقمشتي البالية قد مضت مع الريح، وانهمر البرد علي يسف لون جلدي سفا؛ حتى شف عما تحته من عظم ولحم، وصرت كالزجاج لا أستطيع كتمان شيء عني..! وتعلقت باسم الله الستار..! يا ستار! يا ستار..! فكان انتقالُ التجلي من أنوار الجلال إلى أنوار الجمال.. ورأيت الأشجار تخضر من جديد والعاصفة تدبر جهة الغرب.. ثم صاح بي صارخ الرعد القاصف من بعيد: "يا سعيد..! يا سعيد..! كن صعيدا حتى لا تعكر صفو رسائل النور..!" قلت لبيك! ها أنا ذا قادم إليك بجرابي المخروق الذي لا يحفظ لنفسي شيئا..! قادم إليك على صهوة الريح العارية لا أحمل غير سيف الحكمة وكلمات النور..!

وفتحت عيني على مكتب المأمور.. فرأيت العاصفة تزمجر غضبا على ما حولي من أشياء.. والصارخ يصرخ بي: ما لك لا تجيب؟ ألا ترد؟ ولقد أجبتُ لو كان يعقل الإجابة، ولكن لا حياة لمن تنادي..! لقد وصل الوارد إلى تمامه إذن! فلا بد من مخاطبة الأخشاب:

قلت وأنا يومئذ شاب فقير: "إنني لست متسول مرتَّب! وإن بلغ مقداره ألف ليرة! فأنا لم آت إلى هنا إلا من أجل أمتي..! وليس من أجل نفسي، ثم إن ما تحاولون تقديمه لي ليس إلاَّ رشوة للسكوت!.. علماً بأني عندما حضرت إلى اسطنبول كنت قد وضعت روحي على كفي..! فافعلوا بي ما

بدا لكم! وأنا أعني ما أقول؛ لأنني إنما أريد تنبيه أبناء أمتي؛ وذلك خدمةً للدولة التي أنتسب إليها، وليس من أجل جني مرتَّب. ثم إن الخدمة التي يستطيع أداءها شخص مثلي إنما هي تقديم النصيحة للأمة وللدولة، ولا قيمة لهذه النصيحة إلا بحسن تأثيرها، ولا يحسن تأثيرها إلا عندما تكون مخلصة خالية من شوائب الطمع، وهذه لا تكون إلا عندما تكون دون مقابل، وبعيدة عن المنافع الشخصية، لذا فإنني معذور عندما أرفض هذا المرتَّب!

وخرجت من عنده أحمل في قلبي بساتين الزيتون والبرتقال وربيعا لا تذبل أزهاره أبدا..! وأحدق بعينين ثابتتين في شمس لا تغرب أضواؤها عن سماء روحي سرمدا..!

الفصل الثالث

إسطنبول بين الأولياء والأشقياء !

"اعْلَمْ! أنَّ المسافر كما يُصادفُ في سيره مَنَازِلَ، لكلِّ منزلٍ شرائطُ تخصُّهُ؛ فكذلك للذاهب في طريق الله مقاماتٌ ومَراتبُ وحالاتٌ وحُجُبٌ وأطوارٌ، لكل واحدٍ طَوْرٌ يَخُصُّهُ؛ فمَن خلَطَ غلطَ!"

(سعيد النورسي، المثنوي العربي ص٢٤٠)

كنتُ نائما في الطابق العلوي من أكاديمية "شاملجا".. عندما أيقظني أرقٌ متوتر، نظرتُ إلى الساعة في هاتفي النقال، فعلمت أن الليل قد انسلخ نصفه الأول فحسب، حاولت الاسترخاء من جديد؛ استجداءً للنوم، ولكن بلا جدوى.. فقد قويت الواردات على خاطري. كنت قد نمت - بعد صلاة العشاء - على وقع كلمات الأستاذ "محمد فتح الله كولن" في درس نوري بأحد مساجد اسطنبول، كان يَفُتُّ فيه ما بقي من أشلاء قلبه العليل، ويبكي..!

كانت الليلة حارة جدا، ولا أثر لهبة من ريح أو نسيم.. شعرت بالاختناق، فخرجت إلى الشرفة المطلة على الجسر الكبير الممتد فوق البوسفور. وغير بعيد يبدو جانبٌ من بحر مرمرة.. كانت صورة "فتح الله" وهو يبكي تلاحقني فتملأ قلبي كمدا..! أغمضت عينيَّ برهة ثم فتحتهما على أنوار المدينة المترامية الأطراف أمامي، كان مشهدها بالليل جميلا، وكأن نجوم السماء تبعثرت لآلئها في الأرض! وفجأة رأيت كأنَّ حصانا يخرج من عرض بحر مرمرة، ثم ينطلق راكضا يشق فضاء الليل نحوي.. فزعت وتقهقرت قليلا إلى وراء، ثم بدا لي فارسٌ يمتطي صهوة الحصان ويرفع يده عالية! فكرت في الهروب إلى غرفتي، ولكني لم أجد قوة على الحركة، فقد انهارت كل قواي تماما! كان الفارس قد اقترب مني قليلا.. حاولت التعرف

على هويته، فبدا كأنه الأستاذ فتح الله نفسه! كان يلبس لباس الوعظ: عمامة بيضاء، وبردة سوداء مطرزة بنسيج ذهبي.. فذهب عني الروع يا سادتي، فوجهه الهادئ الجميل يُنسي الخائف ما هو فيه من هول، ولو كان حقيقة! حاولت أن أتذكر عبارة تركية من قليل ما تعلمت لأتقرب بها إليه، ثم تذكرت أنه عالم جليل يتكلم بلسان عربي مبين، فخطر ببالي سؤال طالما وجهته لكثير من طلابه، ولا أحد منهم روى غليلي! ثم ناديت:

- سيدي فتح الله..! الأمر قضاء الله، ولا غالب إلا الله، ونحن عباد الله، فلماذا أنت في كل دروسك تبكي..؟

تحركت شفتاه وكأنما هو يحاول أن يجيب، ولكني رأيت الصورة أمامي تضطرب ثم تضمحل قليلا، دون أن تغيب تماما.. فإذا بملامح الرجل تتغير شيئا فشيئا، حدقت فيه بعينيَّ جيدا، وجعلت أتفرس في وجهه، وأتساءل: أحقا ما أرى أم أنني أتخيل؟ كانت ملامحه قد تداخلت بملامح بديع الزمان النورسي حتى لكأنه هو تماماً، بل قل: إنه هو! وأدركت بعد ذلك أنهما واحد..! ذلك ما كنتُ أرى، وما زاغ البصر مني وما طغى..!

ثم انتهى المشهد إلى تجلي الصورة بملامح سعيد النورسي خالصة..!

قال لي:

- "لقد سحقتني آلام أمتي البئيسة"..! فقد أحرق العدوُّ كلَّ حقولها..! وإنما أنا الآن أحرث وأزرع من جديد. ذلك هو واجب الوقت يا ولدي فتعلم!..

قلت:

- زدني!

قال:

- والحقول التي لا تُروى بالدموع لا تثمر سنابلُها أبدا..!

ثم قال:

- اسطنبول سيدة العاشقين نعم، ولكنها مطمع الشياطين أيضا.. ولم تكن ترضى في مهرها بغير أعراف الخيل تخوض عباب البوسفور..! ولكن أين الأمير..؟ أين سليل الجلوات والخلوات، وعابر البحار والفلوات.. يقدح سنابك الخيل بشرر التكبير في مقدمة الفاتحين.. والخيل تنخرط أعناقُها في عرق التهجد مع المحبين رُكَّعاً سُجَّداً في ميادين الوغى، يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا؛ إلى أن يسفر الفجر الصادق على البلاد!؟ فما كان للظلام الموحش - يا ولدي - أن يبقى إلا قليلا.. لو قُدِحَتْ ذَرَّةُ نورٍ واحدة! فتدبر..!

ولكن، انكسفت أنوارها - وا أسفاه - بين ضعف الصالحين وكيد الشياطين..! وبقيت وحدي ألهث بين الدروب، أطرق المنازل الصغيرة لأوزع الشموع على الفقراء، ولكنهم - واحسرتاه - لا يفتحون الأبواب! ومنذ ذلك العهد وأنا أبكي؛ حتى تمزق شريان قلبي..! فارفع إليَّ بصرك لعلك تشاهد، فهذه بعض شذراته:

مع السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله

الصقر ما يزال يحوم في الفضاء، ولكنه مع الأسف لا يبصر شيئا..! وإنما كان يبحث عن مكان آمن يأوي إليه؛ فالعصف أقوى من جناحيه بكثير..! يضرب يمينا حينا ويضرب شمالا حينا آخر، ويتوهم جناحَه عنصرا غريبا عنه ثم ينقره بقوة فيتمزق جلده دما وألما..! فواحسرتاه! بأي المهاوي ستتردى يا أمير الزمان! أم بأي المهالك؟ أبما جنيته على نفسك أم بما جنت عليك أشباح الظلام؟ و لم تزل المآذن لك حامية أبد الدهر فَلِمَ غادرت أحضانها؟

كانت الريح الغربية تعصف بالخلافة الإسلامية وبالسلطان عبد الحميد.. وفي سبيل ذلك كان جهاد "سعيد القديم"..

قال لي: ولكني سُجنت بمستشفى المجانين بأمر السلطان عبد الحميد! وما كنتُ -في الحقيقة- عدوا للسلطان ولا للخلافة يا ولدي.. فقد كنتُ أعلم -في وقت مبكر- أنهما معا ضحية للدسائس الخارجية من منظمات اليهود والاستعمار العالمي! وقد قلت من قبل: "إن السلطنة والخلافة متحدتان بالذات، ومتلازمتان لا تنفكان.. وإن كان ظاهر كل منهما مغايرا للآخر.. وبناء على هذا فسلطاننا هو سلطان، وهو خليفة في الوقت نفسه! إنه يمثل رمز العالم الإسلامي. فمن حيث السلطنة: يشرف على ثلاثين مليون - كما كان عدد سكان تركيا آنذاك- ومن حيث الخلافة ينبغي أن يكون ركيزة كل مسلمي العالم، الذين تربطهم به رابطة نورانية، وأن يكون موضع إمدادهم وعونهم! ولذلك فقد أدخلت السلطان عبد الحميد رحمه الله وسائر آل عثمان ضمن أدعيتي منذ زمان بعيد..

مع مفتي الديار المصرية

لو أن هذا الجسد آلمته قرحة في أصبع صغرى من يده أو قدمه؛ لتداعى لها سائره بالسهر والحمى.. فكيف إذا كان الوجع في الرأس شجَّةً غار جرحُها نحو الدماغ؟.. يتململ العلماء في كل الأمصار، ويتضورون حزنا، فلا يجدون غير اسطنبول بثقلها التاريخي، وأريجها الإيماني؛ مفزعا عند الملمات الكبرى..! وتظنون الآن يا أبناء هذا الزمن الجديد أن لا فائدة منها! وأنها صارت مجرد ذكريات في متحف التاريخ!.. كلا! كلا! فلا بد من اسطنبول مهما طال السفر..! وإن غدا لناظره قريب!

تتوجع البلاد العربية اليوم ولا تجد لها طبيبا.. لكنها لو فزعت إلى الأم الكبرى، ودست رأسها في صدرها؛ لوجدت عندها -من سكينة الإيمان- دواءً لذهاب الأحزان!

قال لي: في السنة الأولى من عهد الحرية السياسية، حيث أعلن السلطان ميلاد الدستور، قدم علينا الشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي، مفتي الديار المصرية آنئذ، والتقى عددا من العلماء في اسطنبول، فأوغروا صدره عليَّ! وطلبوا منه أن يناظرني قصد إفحامي! سألني رحمه الله قائلا:

- ما تقول في هذه الحرية العثمانية الحادثة، والمدنية الأوروبية الدخيلة؟

فأجبت على الفور:

- إن الدولة العثمانية حُبْلَى بدولة أروبية، وسوف تلدها يوماً ما..! وإن أروبا حُبْلَى بالإسلام وسوف تلده يوماً ما..!

فصدَّق الشيخ -رحمه الله- ما قلتُ.. وكذلك كان بالنسبة لتركيا!

وسوف ترى عندما نرحل معا إلى المستقبل يا ولدي أن أروبا ستلد أيضا ما حملت به!

ثم قال –رحمه الله– لمن حوله من العلماء:

– لا يُناظَرُ هذا الشابُّ، ولا يُتَمَكَّنُ من غلبته.. لأنه ينطق بالحق!

نعم، لقد شاهدنا الولادة الأولى في صورها السيئة: فتركيا سبقت أروبا في بُعدها عن الدين بربع قرن! أما الولادة الثانية فسوف تكون إن شاء الله بأن تظهر في الشرق والغرب دولة إسلامية كبرى..! ويكون في الغرب زرع جنينها..!

مع عمانوئيل كراصو..!

ليس سهلا أن تناظر الشيطان..! وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ملاقاة المسيح الدجال..! واستعاذ بالله منه! ولكن إذا لقيته وجب الثبات! وهو الآن يدعوني شخصيا: إنه اليهودي المعروف: "عمانوئيل كراصو"..! رئيس حاخامات اسطنبول! والعضو البارز في المحفل الماسوني، والنائب البرلماني عن سلانيك، والذي كان له دور بارز في خلع السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله.. إبليس يدعوني إلى المبارزة.. وها أنا ذا قد لبست لَـأْمَتي وامتشقت حسامي.. ما كان للفارس إذا وضع رجله على الركاب أن يترجل.. فيا خيل الله اركبي..!

كانت عيناه تدوران مثل عيني الحرباء البري، مرة إلى خلف، ومرة إلى أمام، وهو يلوك كلمات الترحيب كما يلوك أحدهم علكة أمريكية باردة المذاق..! وتكلّم، وتكلّم.. ثم تكلم! كانت مرآة وجهه منكسرة! فلا سبيل للوصول إلى صريح مقاصده..! ولكني كنت أغوص في عينيه بما يفيض على قلبي من نار الأسى على أمتي، ونور المحبة لديني..! فأجده عند كل غوص يتململ كالمتوجع من نظراتي..!

وما هي إلا لحظات حتى خارت قواه الشيطانية..! وشرع بنفسه وبلا طلب مباشر مني في فك رموز أضراسه المصطكة بالكلمات الصدئة! حتى انكشفت لي رسالته كاملة: إنه إذن يحاول توظيفي في مشروعه الشيطاني، الهادف إلى تقويض أركان الدولة العثمانية! فانشرح صدري لوضوح القصد، وانطلق لساني..! أشعلت في وجهه مصابيح الهدى لاهبة، رَغَباً ورَهَباً!.. فكانت جهنم تزحف نحوه زحفا! وكان يرى الصراط تتساقط من

أعلاه جموع يهود، فتهوي كالجنادب أو كالعقارب في قهر اللهيب..! ورأى الشر ينهزم في معركة الدنيا قبل حساب الآخرة! ورأى أن الحصون التي يبنونها لها أجل قريب لا يطول! وأن الأمة الإسلامية ستلتهم أعداءها بعد خمسين مقاما من مقامات الظلام والتيه! ورأى كيف أن جيل القرآن هو ينبت الآن، وليس بيننا وبينه إلا أن يخضر الربيع! ورأى، ورأى.. ثم رأى أن لا غالب إلا الله! ثم...

•

ثم سرعان ما قطع الاجتماع..! وتركني في المجلس هارباً من قوة ما انهمر عليه من فيض خارق صريح..! مغلوبا بما انعكس على عينيه الكاذبتين، مما أفاض الله على قلبي من الأنوار والبراهين الربانية..! حتى إنه قد قال لمن كان خلفه، وهو لا يكاد يصدق نفسه: "لقد كاد هذا الرجل العجيب أن يَزُجَّ بي في الإسلام بحديثه!!" فولّى مدبرا و لم يُعَقِّبْ! وإنما أعمى الله بصيرته، ولله الأمر من قَبْلُ ومن بَعْدُ!

مع جون تورك

أشباح الظلام، وما أدراك ما أشباح الظلام؟!.. لو رأيتها لوليت منها فراراً ولَمُلِئْتَ منها رعباً!.. كانت لها صور مفزعة! يفزع منها الكبار قبل الصغار..! ولا أبشع من صورة الشيطان! فهم الشياطين السود.. منهم الفِرَقُ السيارة والفِرَقُ الطيارة! ومنهم طوارقُ الليل وطوارق النهار، ومنهم من يلج في الأرض ومن يعرج في السماء..! لو رأيتهم في اسطنبول كيف أنهم من كل حدب ينسلون لحسبت أن القيامة قد قامت! أو أنَّ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ قد فُتِحَتْ!

"جُونْ تُورْكْ" تتحرك.. "جُونْ تُورْكْ" تتكلم.. "جُونْ تُورْكْ" تزحف من كل مكان..! "جُونْ تُورْكْ" تملأ الميدان..!

"جُونْ تُورْكْ" -يا ولدي- كلمة باللسان الفرنسي.. تعني: "تركيا الفتاة" أو "الشابة". اسم حركي سياسي أطلق على الجماعات والأفراد المعارضين للحكم في الدولة العثمانية، منذ عهد السلطان عبد العزيز.. إنهم خليط من العملاء المدسوسين والجهلاء المغرورين! تَعْرِفُ منهم وتُنْكِرُ! يدورون جميعا فلك الماسونية المظلم! أقمارهم خاسفة أبدا، وشموسهم كاسفة سرمدا! فأنى يبصرون؟.. كانت مطالب هذه الجماعات تتلخص في إعلان الدستور، وتأسيس حياة برلمانية. وتُعَدُّ "جمعية الاتحاد والترقي" أقوى هذه الجماعات تأثيرا.. وإنما كانت مطالبها في الحقيقة تتدرج بالخلافة الإسلامية إلى الاغتيال.. وكذلك كان! ولا غالب إلا الله! وكان لأعضاء الاتحاد والترقي نفوذ في الدولة أقوى من نفوذ السلطان! وقد سئلت ساعتها -والعصر رهيب- عن رأيي في الاتحاد والترقي، وتركيا الفتاة؟

فكان أن قلت بكل وضوح: "رغم أنني أثمّن قيمتهم؛ إلاّ أنني أعترض على الشدة التي يمارسها سياسيوهم، وأستحسن في الوقت ذاته -إلى حدٍّ ما- فروعهم وشعبهم الاقتصادية والثقافية، ولاسيما في الولايات الشرقية.. إن خطأ "تركيا الفتاة" نابع من عدم معرفتهم أن الدين أساس الحياة! فظنوا أن الأمة شيء والإسلام شيء آخر؛ أو أنهما أمران متمايزان! ذلك لأن المدنية الغربية أوحت بذلك واستولت على الأفكار بقولها: (إن السعادة هي في الحياة نفسها!).. إلاّ أن الزمان أظهر الآن أن نظام المدنية فاسد ومضر..! والتجارب القاطعة أظهرت لنا: أن الدين هو حياة الحياة، وهو نورها وأساسها. وإن إحياء الدين هو إحياء لهذه الأمة. والإسلام هو الذي حقق هذا. إن رقي أمتنا إنما يكون على قدر تمسكها بالدين، وإن تدنيها إنما هو بمقدار إهمالها له! وذلك بخلاف الأديان الأخرى..! هذه حقيقة تاريخية، قد تنوسيت..!

نعم، إنني عارضت جمعية -الاتحاد والترقي- المستبدة هنا، تلك التي أذهبت شوق الجميع، وأيقظت عروق النفاق والعنصرية، وسببت التفرقة بين الناس..! وأوجدت الفِرَقَ والأحزاب القومية باسم "الحرية"، بينما مثلت الاستبداد في الحقيقة! بل إنها لطخت عبارة (الاتحاد والترقي)..!"

حرية الفوضى..!

فيضان الأنهار الصحراوية رهيب..! يغيض ماؤها سنين.. ثم تأتي فجأة بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..! فتُكَبْكِبُ بسيلها الهدّام الإنسانَ والحيوانَ والجماد! وكذلك الثورة تأكل -أول ما تأكل- أبناءَها!

قال لي: في بداية عهد الحرية.. عمت الفوضى.. وساد الإرهاب أوساط الناس؛ بما نشرته الصحف من مقالات محرضة، وشروع الأحزاب بتسجيل أسماء (الفدائيين) زعموا..! وسيطرة بعض الانقلابيين على بعض المواقع، وسريان الحرية المتفلتة إلى أوساط الجنود، بما ينافي الطاعة العسكرية!

وكان أن انفرط عقد الطاعة، إذ زرع الشياطين المستبدون وبعض المتعصبين الجهلاء -من الذين تنقصهم الحكمة في الدين- البذورَ الشريرةَ في ذلك المستنقع الآسن من الظلم والاستبداد..! وظلت السياسة العامة للدولة بيد الأعداء والجهلاء.. و أُطْلِقَ ما يقارب المليون من الطلقات النارية في الهواء..! وتدخلت الأيادي الداخلية والخارجية.. لقيادة ثورة ضد النظام العثماني والخلافة الإسلامية من خلف الستار..!

الجموع الآن تتأهب لهدم ما تبقى.. والذئب الغدار قابع خلف الأحجار، ينتظر الفرصة المناسبة لحصد الثمار..! وكان لي هنالك دور لا بد من القيام به!.. لقد شعرت مراراً في الاجتماعات الضخمة بالمشاعر المتهيجة لدى الناس، فخشيت أن يخلّ عوام الناس بالنظام وأمن البلاد؛ بتدخلهم البليد في السياسة.. فكنت أقوم بتهدئة تلك المشاعر الجياشة،

بلسان طالب علْم كردي، قد تعلم اللغة التركية حديثاً..! وتوجستُ خيفةً من أن يُلوَّثَ صفاءُ القلوب لدى الولايات الشرقية، فيستغل بعضُ دعاة الأحزاب أبناء بلدي الذين يقارب عددهم عشرين ألف شخص مقيمين في إسطنبول! كانوا يعملون بالْحِمَالَة، من تنزيل للبضائع أو شحن. وهم ذوو نفوس طيبة ساذجة غافلة. فكان لا بد أن أطوف على جميع الأماكن والمقاهي التي يتواجد فيها الحمالون، لأبين لهم معنى المشروطية، بقدر ما تستوعبه عقولهم..! حتى لا يخرجوا عن مقتضى حدودها إلى ما لا تحمد عقباه.. وأغلب هؤلاء هم وقود الثورات والاضطرابات في المدينة! لقد شعرت أنني إن سيطرت على عقولهم فقد أتمكن من سحب البساط من تحت أشباح الظلام! وتجردت للمعركة..!

كان ذلك في يوم: ٩ أكتوبر ١٩٠٨م.. عندما قاطع الحمالون إنزال البضائع النمساوية.. على إثر إعلان النمسا ضم البوسنة والهرسك إليها؛ مستفيدة في ذلك من أفول نجم السلطان عبد الحميد الثاني، وضعف الدولة العثمانية. فأعلن الحمالون مقاطعتهم لتفريغ البضائع النمساوية؛ بإيعاز من أحزاب الظلام، وتطور الموقف حتى أصبح الجو مهدداً بالانفجار.. وإنما كان ذلك موقفا سياسيا شديد الخبث؛ ظاهره الحق وباطنه التعجيل بنقض أركان النظام وإسقاط الخلافة! وانخرط الحمالون في عمل احتجاجي يؤول إلى عكس ما يقصدون تماما..! وتلك مصيبة العمال في كل مكان! فمن يرد هذا البحر الهائج إلى قاع محيطه؟ من يخنس شيطانه ويطفئ غضبه؟ من؟ وها حوافر إبليس تستفزه وتجلب عليه من كل مكان!

ثم ركبت حصاني من جديد..! وامتشقت أعراف عنقه العالي! فالحرب هذه المرة نتيجتها قد تحدد مصير البلاد! كان المطر غزيرا.. وكانت الأشجار تلتف أغصانها جميعا حول جوادي.. ضبحت بفرسي في الهواء؛ فتطايرت

أشلاء الأغصان عصيا خضراء تشع بالنور في كل اتجاه..! وانكشف لي الموقف جليا.. فرأيت خفافيش الظلام هنا وهناك وسط الجموع، يفزعها النور، ويرهبها انفلاق الضياء..! إنهم هنا إذن! وبدأ الهجوم! نبهت الجموع الغافلة إلى ما حولها.. وازداد تطاير العصي الخضر في كل مكان.. واشتعل الميدان أضواء أخرى وأخرى.. وسرعان ما تحول الاتجاه.. إن الناس مؤمنون، فلا تنس هذا يا ولدي..! وثق في سلاح النور أبدا..! ثم انسحب الحمالون إلى أعمالهم آسفين، فبقي الخفافيش في الميدان يبحثون عن مخابئ للظلام..! وانتهت الأزمة بسلام؛ متاعا إلى حين..!

مع جمعية "الاتحاد المحمدي"

الجسم الْهَرِمُ لا تبرأ له علة حتى تسيقظ فيه علة! إلى أن يوضع على شفير القبر..!

في يوم ٥ أبريل ١٩٠٩م، طرق سمعي أن جمعية باسم "الاتحاد المحمدي" على وشك التأسيس، وأن الاجتماع الأول سيكون بجامع "أياصوفيا"، فتوجست خيفة شديدة من صدور تصرفات طائشة من بعضهم تحت هذا الاسم المبارك.. فالوقت عصيب! والذين يستغلون التجمعات من أهل الكيد الخفي كثير.. فأسرعت إلى هناك، وبادرت إلى توجيه الجماهير بكلمات لتوضيح مقاصد الإصلاح وضوابطه.. تسلقتُ شعاعا من أنوار اسم الله "الحكيم"، فأهميت بوارده العُلْوِيِّ على كل المصلين؛ فكان بردا وسلاما على حرارة الاحتراق.. وبلسما واقيا للقلوب من كيد كل من يريد استغلال الدين لاغتيال الدين!

تمرد عسكري يكسر باب الخلافة..!

اتسع الخرق على الراقع..! وانكسر الباب إلا قليلا..! فخرست كل الخطب وماتت كل الكلمات.. وسيطرت لغة الرصاص!.. فهل هذا أوان الرحيل؟.. وترحل حقا يا بديع الزمان؟.. كيف ترحل يا صاح وها الرأس الآن ينزف من أم دماغه؟ كيف وها أشباح الظلام يلتهمون بأنياب الإلحاد والزندقة كل شيء بين يديك؟ فبأي قلب ستتقبل نعي الوطن بمنفاك الأمين؟

ولكن لأي هدف تبقى هنا؟ أتداوي الجرحى أم تداوي القلوب أم تشترك في فتن لا تدري لها أولا من آخِر، ولا تابعا مُدَمَّراً من متبوع مدبِّر؟ كيف؟ وها أنت ذا تدواي الآن فماذا يجدي دواؤك يا صاح؛ وما عالجت جرحا إلا ونزف إلى جانبه جرح جديد!.. أوَليس عبثا أن تمضي عمرك في رتق ما يفتق الأشرار؟ وأنت وحيد ههنا في هذه المعركة الشرسة؟! لم لا تفكر في وطن بديل؟ فكل بلاد الإسلام وطن! وكل أهل الشرف قد غادروا البلد إلى مصر أو إلى الشام..؟ لم لا ترحل بعلمك وشرفك عسى أن ينفع الله بك بلادا أخرى تقبل ما جئت به إليهم؟ ولعلك يوما ما تعود..!

أعود..؟ فما فائدة العود بعد فوات الأوان؟ وتكون اسطنبول قد صارت جزءا من بلاد الروم! كلا كلا!.. لا للرحيل! فإنما هذا حديث النفس الأمارة، واستدراج الشيطان! هنا سأموت! وسأبقى أجاهد مع هؤلاء المستضعفين بحصن دار الخلافة حتى أجد ما أبحث عنه من أمر سعيد..! إني أكاد أشم ريح شيء جديد؛ فلا بد من الصبر على نار الفتن حتى يأذن الله لي بالفتح أو أمْرٍ من عنده! فإلى الميدان يا بديع الزمان!.. ولا غالب إلا الله!

كانت الأصوات ترتفع بقوة: "نريد الشريعة! نريد الشريعة..!" وكانت الجموع حاشدة، وكان سلاح ونار! إنه انقلاب حقيقي.. فمن المستفيد إذن؟ وما بال الشريعة؟ أهي شعار ودثار لتغطية خفافيش الظلام مرة أخرى؛ أم أنها تعبير عن ألم المستضعفين وأملهم؟ لا بد إذن من جولة استكشافية نورانية عميقة؛ لاستبطان حقائق الأمور..!

قال لي: "شاهدتُ الحركة الرهيبة الانقلابية التي حدثت يوم ٣١ مارس لبضع دقائق.. سمعت مطالب عدة.. وداخلني الشك في حقيقة الاتجاه..! فالفتنة كما هو معلوم تُقْبِلُ بشبهة وتُدْبِرُ ببيان!.. وبعد ثلاث دقائق انسحبت! ثم تصفحت الجرائدَ بعدُ، ووجدت أنها تساند تلك الحركة وترى أنها حركة مشروعة! نعم فرحت من جهة؛ لأن أقدس غاية لديَّ هو تطبيق الأحكام الشرعية تطبيقاً كاملاً.. ولكن يئست أشد اليأس! وتألمت كثيراً بما وقع من اختلال الطاعة العسكرية وانفراط عقد أمنها.. وعلمت أنما ذلك هو المقصود؛ لا تطبيق الشريعة! لقد كانت فتنة حقيقية مع الأسف! فخرجت إلى الجنود المتمردين.. وأنا أقدر خطورة الموقف وخبث من يقف وراءه! فمن يستطيع مخاطبة الانقلابيين إلا مجنون؟! وإذا سلمت منهم فكيف تسلم ممن وراءهم؟ أولئك القابعين خلف الستار من أهل التدبير والتغرير!

قال لي: وإنما كان ظاهر الأمر هكذا: ففي ٣١ مارس ١٩٠٩م، وقع تمرد بين أفراد طابور عسكري.. لما ثار بعض الجنود وحبسوا ضباطهم في إحدى الثكنات! واجتمعوا في منتصف الليل بميدان السلطان أحمد، حيث انضم إليهم بعض الجنود من المعسكرات الأخرى؛ معلنين عصياناً دام أحد عشر يوماً..! وراح ضحيته بعض الأشخاص.. وساد جو من الهرج والمرج وإطلاق الرصاص عبثاً، وكان الجنود يهتفون: "نريد الشريعة!.. نريد الشريعة!.." وانتهت الحادثة بوصول جيش الحركة الذي وجَّهه الاتحاديون

من "سلانيك"، بقيادة "محمود شوكت باشا" لقمع التمرد وإعادة سلطة الإتحاديين.. فسيطروا على الوضع. ثم أعلنت الأحكام العرفية! وشكلت محكمة عسكرية لمحاكمة المسؤولين عن هذه الحادثة..! وعلقت عدة رؤوس على أعواد المشانق!.. وتلك هي الثمرة الخطيرة التي ربحها الاتحاديون من هذه الفتنة التي ظهرت في صورة نعمة! وكذلك الفتن تكون!

وهناك شاهدتُ جليا أكثر من أي وقت مضى كيف أن الخليفة عبد الحميد الثاني -رحمه الله- قد صار في الحقيقة سلطانا من ورق، أو صورة بلا روح! وأن الحكم قد انتقل فعليا إلى يد الاتحاديين! ولله الأمر من قبل ومن بعد!.. ولكن لا بد من إتمام العمل إلى نهايته! ولعل الفرج قريب!

مع الجنود المغفلين . . !

كان يوم جمعة، فاصطحبت معي عددا من العلماء.. إلى أن وقفنا علـــى ساحة المتمردين في وزارة الحربية.. وتعلقت بأنوار الأسماء الحسنى.. ثم أبرق التجلي..!

سمعت دوي الريح تهب من أعماق روحي.. كـــان جـــوفي كالمرجـــل يغلي.. وكانت هضاب اسطنبول ترتجف أمامي، وتهتز أشجارها اهتزازا..! وهطل المطر على نفسي بقوة فإذا بالسيل الرهيب يجرفني من أخمص قـــدمي إلى أعلى رأسي جرفا قويا، ويناديني الرعد مرة أخرى من بعيد: "يا سعيد..! كن صعيدا حتى لا تعكر صفو رسائل النور..!" فأجيب من عمق الـــوادي غارقا في حملة السيل الرهيب، صارخا بكل قواي: "ها أنا ذا أتبرأ مني!.."

ثم استيقظت على شروق الضحى بالميدان العـــسكري.. كـــان الجنـــد ينخرطون في نشيج صامت، وحيرة حزينة تتردد بين الشعور بالإهانة والرغبة في الانتقام؛ وبين الشك في طبيعة التدبير في هذه الظروف بالذات، وخلوص النتيجة من الشوائب!

وانكسر باب الخلافة الإسلامية يا سادتي وإن لم يسقط تماما.. تلك هي ثمرة التمرد العسكري التي جنتها الشياطين! فقد عزل الاتحاديون الـــسلطان المجاهد عبد الحميد الثـــاني رحمه الله! ولكنهم اضطروا إلى تولية شـــقيقه وولي عهده السلطان محمد رشاد.. وخطوا بـــذلك خطـــوة نحـــو هـــدم الأسوار..! نعم لقد كان محمد رشاد -رحمه الله- رجلا مثقفا أديبا فاضلا، لكنه من الناحية السياسية ليس بذاك! ثم كان قد انحدر إلى شـــيخوخته؛ إذْ كان يوم توليته قد سلخ من عمره خمسا وستين سنة!

قال لي: وبفضل الله أعدت ثمانية طوابير من المتمردين إلى الطاعة! بخطب مؤثرة جداً.. ولقد أظهرت نصائحي فوائدها بعد ذلك بزمن.. فقد مد الله في عمر الخلافة سنوات أخرى؛ ولو شكلا..! وما خلا شكل من خير على كل حال يا ولدي.. فغضب من ذلك أشباح الظلام من الاتحاديين، وأعضاء الجمعيات الماسونية، والأحزاب الشيطانية، وكانت النتيجة بالنسبة لي ابتلاء ورفعة..!

مع القضاة العسكريين

وكان أن اعتُبِرْتُ واحدا من قادة الفتنة في نظر أشباح الظلام..! ثم وجدت نفسي واقفا في قفص الاتهام مع المتمردين! وأنا أنظر إلى عدد من المعلقين بحبال المشانق خلف النافذة.. وقد أزيحت ستائرُها قصدا لإرهابي..! فقلت لهيئة المحكمة في صراحة تامة:

– "إنني متهيئ بكل شوق للذهاب إلى الآخرة! ومستعد للرحيل إليها مع هؤلاء المعلقين على المشانق! (...) لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد.. أما الآن فإنها تعادي الحياة بأكملها! فإن كانت الحكومة على هذا الشكل وعلى هذا المنطق؛ فليعش الجنون! وليعش الموت! ولتعش جهنمُ مَثْوىً للظالمين..!"

وفي الأيام الأولى من التحقيق سألوني مثلما سألوا غيري:

– وأنت أيضاً قد طالبت بالشريعة!

قلت:

– "لو كان لي ألف روح، لكنت مستعداً لأن أضحي بها في سبيل حقيقة واحدة من حقائق الشريعة! إذ الشريعة سبب السعادة، وهي العدالة المحضة! وهي الفضيلة! أقول: الشريعة الحقة!.. لا كما يطالب بها المتمردون!" وأنا أعني مَنْ كان خلفهم من مدبري الفتنة من الأشباح السوداء المستفيدين سياسيا! الذين يهيجون المتمرد ثم يقتلونه!

وخرجت من بين أيديهم بريئا -فعجبا! عجبا!- كخروج اللبن شرابا صافيا من بين فرث ودم! ولا غالب إلا الله!

ووقع بخاطري الذي لا يكذبني أنني مأذون في الرحيل إلى شرق تركيا مرة أخرى.. وناداني وارد النور: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ تلك كلمة إبراهيم عليه السلام.. أوَليس قد خرجتُ من المحنة آمناً كما خرج إبراهيم من النار سالما، وكانت عليه بردا وسلاما..؟! بلى، بلى!.. فقلتُ: لبيك سيدي..!

كنت في حاجة نفسية شديدة إلى سياحة روحية جديدة..! عسى أن أرى فيها ما لم أرَ.. وعسى أن يفتح الله بوارد جديد في خلوة من الخلوات! فقد اختلط ههنا الحابل بالنابل، ولعل لي عملا من طبيعة أخرى في جهة أخرى ينتظرني.. فقررت الرحيل؛ لا هربا ولكن من أجل البحث عن بدء الطريق السالكة في هذا الظلام الرهيب! والعودة بفرس جديد إلى اسطنبول.. فالمعركة لم تنته بعد! فكان أن غادرت إلى مدينة "وَانْ" وذلك لحكمة يجليها الله بعدُ.. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

نظرت خلفي إلى أسوار اسطنبول وأنا أغادر البوابة الأخيرة في آخر أيام الخريف.. كانت الثلوج قد بدأت تتساقط الْهُوَيْنَى، وتغطي أحجارها القديمة والقباب.. فقلت والدموع تدفئ مقلتيَ الحزينتين: في أمان الله محفوظةً أبداً بالماء والثلج والبَرَد يا مدينة السلام..!

* * *

من أقصى الشمال الغربي من بلاد الأناضول إلى أقصى الشرق.. ما بين اسطنبول ومدينة "وَانْ" كانت الآفاق تنفتح حينا وتنغلق أخرى.. حتى وصلتُ إلى قراري ووضعت عصا أسفاري.. ودخلت خلوة الروح فردا..! وقضيت أشهرا في البحث عن مواطن الفتق من نفسي ومكامن الضعف من أمتي.. وسألت نفسي لعلي أكون أنا المريض؟ فمن يكون طبيبي..؟ وكانت حيرةٌ في البحث عني في صفوف الفاتحين؛ فلم أجد لنفسي أثرا..!

هذه خيولهم تتراءى لناظري قادمة من وراء عالم الروح.. فأين أنا إذن؟ أين؟ وتذكرت النداء العميق: "يا سعيدُ كن صعيدا حتى لا تعكر صفو رسائل النور..!"

وبقيت حالتي الروحية تتأرجح ما بين مد وجزر إلى أن كان يومٌ هَبَّتْ على قلبي فيه رياحُ الشَّام..! وتذكرت..!

الشَّام.. وذلك مكان تجمَّع فيه كثير من العلماء من العرب والأتراك.. ولكن ماذا يفعلون؟.. ماذا يفعلون والأمة تنزف من أم رأسها..؟ ماذا لو شكلوا جيشا من الأمناء الأقوياء، ماذا لو أوقد كل منهم ما أفاء الله عليه من نور، وساروا بين الناس في الأسواق والنوادي يتصدون لهذا الظلام الزاحف على الأرض! لماذا هم منزوون بالتكايا والزوايا؟ أحقا هذا زمان التصوف؟ ذلك هو الإشكال! ونهض بي منادي الرحلة إليهم خاصة! وكانت رحلتي إلى الشام.. وهناك وُلِدَ بقلبي نور "الخطبة الشامية"، بالجامع الأموي بدمشق!

كان ذلك أواخر سنة: ١٩١٠م، كانت الأنوار كافية لإضاءة ما بين لابَتَيْهَا لو كان هناك مبصرون، وكان الدفء يسكن كل أركان الجامع الأموي، ولكن.. أين من يرى الحقيقة في هذه الزمان؟ أين والأنفس قد حجبتها الخواطر المريضة والأهواء البئيسة! والْخَطْبُ جليلٌ واحسرتاه..!

ذلك كان إعذارا لمن هنالك.. فالعودةَ العودةَ إلى بلاد النور وثغر الجهاد..!

هؤلاء هم العلماء قد تفرقت بهم السُّبُلُ والأهواءُ إلا من رحم الله..! ولا حياة للأمة بمن سواهم.. واحسرتاه! فكيف السبيل؟

كانت مدرسة الزهراء ترتفع حصونها في قلبي مرة أخرى، وتتراءى لناظري من بعيد.. وتفكرت مليا: لا خروج من الأزمة بغير التربية والتعليم!

لا خروج بغير دار الأرقم بن أبي الأرقم، لا خروج بغير ربانية الدرس والتدارس! فإنما قيمة السلاح بقيمة ضاربه!.. وتدفق خاطر أقوى هذه المرة على روحي: لا بد من اسطنبول مهما طال السفر..! وفي أقل من عصفة ريح -يا ولدي- كنت هناك..!

كان السلطان رشاد -رحمه الله- قد عزم على الخروج في سياحة عامة في البلاد؛ عسى أن يستجمع ما انفرط من حبات عقد فات أوان جمعه! وكانت الوجهة هذه المرة هي "روم ايلي".. وهي: المناطق العثمانية من قارة أوروبا.. وكان أن كنتُ أنا من المرافقين له؛ ممثلا للولايات الشرقية للأمة.. وفي تلك الرحلة المباركة وافق السلطان -رحمه الله- على مشروع "جامعة الزهراء" وخصص لتأسيسها تسع عشرة ألف ليرة ذهبية! وقد أرسيت قواعدها فعلا في منطقة جميلة تتوسد بحيرة "وَانْ" ولكن..

زمجرت وحوش الحرب العالمية الأولى..! وأطل الغزاة على البلاد، وزحف الدمار والخراب على كل شيء..! فناديت صحبي: ألا يا خيل الله اركبي..!

حكاية: فتنة "بتليس"

وعند بدء الخير يتحرك الشيطان بقوة! يا ولدي فتعلم..! ونحن منهمكون في الإعداد لجامعة الزهراء.. وإرساء برامجها وقواعدها.. قبيل الحرب العالمية الأولى جاءني في مدينة "وان" بعض الأشخاص المتدينين والمتقين، قالوا لي:

"إن بعض القواد تصدر منهم أعمال ضد الدين. فاشترك معنا لأننا سنعلن التمرد عليهم"! وصرخت في نفسي: الله أكبر! إلى هنا أيضا وصل كيد اللعين! إنهم يستفزون هؤلاء البسطاء، في وقت بدء البناء! ثم قلت لهم بهدوء:

– إن تلك الأعمال اللادينية وتلك السيئات تعود إلى أمثال أولئك القواد أنفسهم. ولا يمكن أن نحمل الجيش مسؤوليتها، ففي هذا الجيش العثماني قد يوجد مائة ألف من أولياء الله. وأنا لا أستطيع أن أمتشق سيفي ضد هذا الجيش؛ لذا لا أستطيع أن أشترك معكم. فتركني هؤلاء، وشهروا أسلحتهم، وكانت النتيجة حدوث واقعة "بتليس" الحزينة.. إذ تمردت العشائر القاطنة بضواحي مدينة بتليس في يونيو ١٩١٣م، برئاسة الشيخ سليم رحمه الله، وأعلنت الثورة ضد الحكم فاحتلت المدينة لمدة أسبوع! ولكنها -مع الأسف- لم تحقق إلا هدف الترويع والتقتيل للأبرياء..! فقد جاء الجيش بأسلحته الثقيلة وسحق الأخضر واليابس! وما هي إلا شهور حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى، واشترك ذلك الجيش في الحرب تحت راية الدين ودخل وطيس الجهاد، فارتقى منه مئات الآلاف من الشهداء إلى السماء..! ووقّعوا بدمائهم على شهادات الولاية! وبعدها بقليل.. حلت لحظة التجليات الكبرى..!

الفصل الرابع

تجليات الموت..!

"حقائق القرآن جواهر أفديها بروحي، لا أبيعها مثلك!.. أرى الموت صديقا لا أخافه مثلك!.. أدخل القبر باسما لا أرتعد مثلك!.."

(سعيد النورسي، الكلمات ص ٢٢٩)

المقام الأول: جبل "آرارت" يتكلم!

في تلك الليلة رأيته بلباس عسكري فعجبت! كان يحمل علـى كتفـه بندقية "ماوزر"! حاولت أن أسأله كي يبدأ درس الحكمة كالعادة، فوجدت ثقلا غريبا يقيد لساني، ويكبل شفتيَّ..! انتظرت أن يستأنف هو الحكايـة لكنه لم يتكلم! وطال سكوته - يا سادتي - حتى مللت! رجوته بالإشـارة فلم يستجب! ثم بكيت! كنت أعلم أن الشفقة تملأ وجدانه؛ ولذلك ما أن رأى دموعي حتى نظر إليَّ بحنو وقال:

- كيف تطمع في نيل الحكمة وأنت على حصير الاسترخاء في زمـن الشدة..؟

قلت:

- فعلمني سيدي..!

قال:

- امتشق سلاحك واقترب! هذا زمان "سعيد القديم"، فلا حيلة لـك دون المنازلة يا ولدي!

قلت بالإشارة:

- لبيك سيدي!..

فانشرح صدري وانطلق لساني!.. وما هي إلا لمحة من بصر حتى وجدتني أنا أيضا بلباس عسكري وبندقية! وبدأت أسمع الحكمة تتناثر بين طلقات المدافع!

قال لي:

- في البدء كانت رؤيا صادقة، كصدق الفجر المتدفق رَوْنَقُهُ على جبين

السماء.. رؤيا نزلت بساحي الحزين، فأخرجتني من ظلمات الحيرة إلى نور اليقين! كانت حول إعجاز القرآن! وكانت حادثةً غيرت مجرى التاريخ في حياتي..!

قال لي: " كان ذلك قُبَيْلَ اندلاع الحرب العالمية الأولى:

" آرَارَتْ " يا ولدي جَبَلٌ ليس ككل الجبال! إنه جبلٌ يحبني وأحبه!.. فهو مكان خلوتي، وموضع جلوتي، ومجال سياحتي..! ولي معه حكايات خاصة وأسرار..!

لقد قد كنتُ على سفحه العظيم تلك الليلة المشهودة، وهو يمتد فوق رأسي بقممه الشماء.. وبينما أنا هائم في أحوال أذكاري حلت فجأةً لحظةُ التجليات العظمى:

..انفجر صوتٌ مَزَّقَ سكونَ الليل، وشتت أشلاءه في الأصداء..! كان الجبل ينفلق من غور أعماقه بقوة..! والأرض تتزلزل أركانها الأربع من حوله، وينطلق الانفجار العظيم..! كانت الصخور العظيمة تندفع من عمق الجبل سريعةً مثل القذائف الكبرى، يرمي بها لاَهِبَةً في كل اتجاه..! لتشمل كل أنحاء العالم، وتغطي بهولها العظيم جميع الأرض..!

وبينما أنا هناك واقف بمكاني، والموت الرهيب يملأ الأفق أمامي، ويغمر فضاء العالم فوق رأسي.. مشدوه إلى ما أرى وأشاهد، مسلوب بما غشيني من رهبة حالي ومقامي.. إذْ رأيت والدتي -رحمها الله- بقربي..! فبَادَرْتُها بما أنا عليه من حال رأفةً ورحمةً، وناديتُها بما تدفق عليَّ ساعتها من وارد بَرْداً وسَلاماً: أُمَّاهُ..! أُمَّاهُ..! لا تخافي يا أمَّاهُ! إنه أَمْرُ الله..! إنه رحيم.. إنه حكيم..!

ولم تكن إلا ومضةُ خاطرٍ أو ومضتان حتى تجلّى عليَّ نور المقام:

ولقد رأيته.. كان شخصا عظيم الهيأة، غير أن النور يحجب ملامح وجهه؛ فأراه ولا أراه..! ثم أمرني من عَلُ قائلاً:

- يا سعيد..! بَيِّنْ إعجازَ القرآن..! ثم..

ثم أفقتُ من نومي..! وهل حقا كنت نائما؟

وأدركتُ بما وَقَرَ في قلبي جَرَّاءَ ذلك كله أنه سيحدث انقلاب عظيم في العالم، وأنه ستتهدم الأسوار التي تحيط بالقرآن الكريم؛ بسبب ذلك الانقلاب العظيم، وسيكون هدفا لهجوم شديد..! وسيتولى القرآنُ بنفسه الدفاع عن نفسه! وسيكون إعجازه هو حصنه الفولاذي الذي يحميه، ووقر بقلبي أيضا أنه سيكون شخص مثلي مرشحاً للقيام ببيان نوع من هذا الإعجاز في هذا الزمان -بما يفوق حدِّي ويتجاوز طوقي كثيراً- وأدركتُ أني مرشح للقيام بهذا العمل..!

وكانت تلك بداية التحولات في حياتي..!

ورأيت ملامح "سعيد الجديد" تتجلى في آفاق الأيام القادمة بخيالي.. بيد أني كلما التفت خلفي وجدت أن "سعيدا القديم" هو أيضا يسكنني.. وليس من السهولة بمكان أن أتخلص من سطوته وقوة شخصيته..! ودخلت في منازل من الحيرة، ومقامات من الأحزان والأشجان.. وما زلت بعدها تهوي عليَّ صفعاتٌ قويةٌ ولطمات..! إلى أن جاءت أيام الامتحان، وبدأ مخاض الولادة العسير..!

وانطلقت الحرب العالمية الأولى..! وأطلت حِرَابُ الغزاة من الروس على البلاد..! وكان الجيش العثماني في المعركة! وكان لا بد أن أكون..!

مقام الجهاد.. !

وكان قَدَرُ "سعيد الجديد" أن يكون ميلاده في الخطوط الأمامية للمعركة..! وما حقيقة ولادة لا تلتحف بالنار من أول يومها إلا كخروج موات من موات..! وإنما العالم الحق هو القائد دائما..! وما كان ينبغي أن يغيب الإمام!

فليكن إذن فيلقي من المتطوعين من هؤلاء الطلبة!.. وليكن الجهاد أول محطات الدراسة بجامعة الزهراء..! وارتفع النداء: "يا للأنصار..!"

فتجمع حولي فيلق كامل من الفرسان، شكلتُ منهم "فرقة الأنصار" الجهادية، كتيبة ربانية يتقدمها طلبتي النجباء..! وانطلقت الخيل المباركة تثير بسنابكها غبار الجنة في الفضاء!

قال لي:

كان ذلك سنة: ١٩١٦م. وكانت الرواجم تملأ السماء فوقنا بمآت القذائف..! تمر فوق رؤوسنا وتمطر الأرض من حولنا..! والجنود يندفعون بقوة أو يترنحون أشلاءً بين دخان ولهيب..! وكنت مع تلميذي الشهيد المُلاَّ حبيب رحمه الله! كنا ننطلق في هجوم على الروس في جبهة "پاسينلر".. كانت مدفعيتهم تواصل رمي ثلاث قذائف علينا في كل دقيقة أو دقيقتين..! وكان أن مرَّتْ ثلاث قذائف من فوق رؤوسنا تماماً وعلى ارتفاع مترين..! وتراجع جنودنا القابعون في الخندق..! وكان الامتحان الأول.. قلتُ للملا حبيب:

- ما تقول يا ملا حبيب؟ لن أختبئ من قنابل هؤلاء الكفار..!

فقال:

- وأنا أيضا لن أتخلف عنك ولن أفارقك..! فوقعت الثانية على مقربة منا..! فقلتُ واثقاً من الحفظ الإلهي لنا:

- إلى الأمام..! إن قذائف الكفار لن تقتلنا، نحن لن ننحط إلى الفرار أبدا..!

وكذلك كان..! تحدينا قذائفهم المدمرة الواحدة تلو الأخرى ونحن نتقدم إلى أمام.. وفرقة "الأنصار" تضخ النار على عدو الله وتطهر الأرض من رجسهم شبرا شبرا.. حتى كان إشاعة خبر أن قائد المتطوعين بديع الزمان النورسي يوجد بهذه الجبهة أو تلك يثير الرعب بين الجنود الروس فيولون مدبرين!

وقد حدث ذات مرة أن أُخبرت بأن الروس قد غنموا ثلاثين مدفعا تركيا في جبهة "نورشين"..! فثارت ثائرتي! وتقدمت بين الصفوف مناديا:

- من يبايعني على الموت؟ فتجمع حولي ثلاثمائة متطوع! واتجهت ليلاً صوب مدينة "نورشين" حتى إذا اقتربتُ منها أرسلتُ بإشاعة بين الجنود الروس الذين كانوا يتولون حراسة تلك المدافع، تفيد بأن قائد فرقة الأنصار الذي دافع عن "بتليس"، معه ثلاثة آلاف من جنوده، قادم لتخليص المدافع، ومعه أيضا القائد التركي "موسى بك" المشهور وألف من جنوده! فما أن أُشيع هذا الخبر حتى انقذف الرعب في قلوب العدو، فولى جنود الروس هاربين! ثم وزعتُ الجنود على المدافع فقاموا بسحبها إلى "بتليس"، الواحد تلو الآخر، وشَرَرُ الرصاص يخرق حلكة الظلام متطايرا بين الجبهتين! حتى إنني قد خلصت آخر مدفع بنفسي مع اثنين من طلابي.. عدنا به نجره جرا!

وخضنا بعد ذلك -يا ولدي- عجائب وغرائب، ودخلنا مقامات من الإيمان ما كان لنا أن ندخلها لولا ما فتح الله لنا من واردات الجهاد في سبيل

الله..! وأكرمنا الله بتجليات من العلم الخالص في مدرسة النور الأولى..!

لم تكن رؤيا جبل "آرارت" تفارقني.. فما بين خندق وآخر كانت سور القرآن تنتصب أمامي كالأسوار، ترفعني وتحميني.. والحرب سجال، عجبا..! كانت تتجلى عليَّ منازلُها العاليةُ منارات وقِبَاباً تطل على كل العالم.. فمِنْ على شرفاها كنت أرى وأشاهد ما لا يشاهده غيري..! فأصوب بندقيتي من الخندق أو من على وجه الأرض في خط الاقتحام! حتى إذا هدأت النار شرعت في رسم مشاهدتي من خندقي أو من على صهوة حصاني تفسيرا إعجازيا للقرآن الكريم، كان ذلك إملاء يتدفق على لساني مثل الشلال! أمليه على تلميذي النجيب الملا حبيب! حتى كان من كل ذلك كتاب (إشارات الأعجاز في مظان الإيجاز)..!

مقام الرحمة

حكاية

قال لي:

كان الجنود الأرمن يُذَبِّحُونَ أطفال المسلمين في عدد من المناطق..! وكان بعض جهلة المسلمين يقابلونهم بالمثل؛ فيذبحون أبناءهم أيضا..! إلى أن كانت حادثة عجيبة.. دحرنا العدو عن أحد مواقعه دحرا، ووقع بين أيدينا عدد كبير جدا من أطفالهم.. كان جنودي يحاصرونهم من كل الجهات..! وكنت أتفرس في الفزع الصارخ من تلك الوجوه الصغيرة البريئة..! كانت الطفولة تستغيث ربها..! وتجأر إليه فزعا من الموت الرهيب..! هذا النور الصغير الصافي المتدفق مثل جدول البستان، من عيون لا يد لها ولا رجل في إيقاد أوزار الحرب وفتنتها، كيف تكون هي أول من يصطلي بنارها وكلها أمل في الحياة.!؟ أي شيطان هذا الذي أملى على الإنسان اغتيال الجمال المشرق في هذه الوجوه اللطيفة؟

وصرخت من أعماق نفسي: كلا...! كلا..! كانت الجبال تميد من حولي وتتمطى متأوهة، وهي تبتلع أصداء صوتي الجارح الحزين..!

ثم التفت من على صهوة حصاني وناديت في الجنود بأعلى صوتي:

– لا تتعرضوا لهؤلاء الأطفال بشيء..! أطلقوا سراحهم جميعاً..!

سمعت صوتا وكأنه يستدرك:

– ولكن..!

فصرخت وكأني لم أسمع شيئا:

- جميعا.. جميعا..! ويلكم! إن قتل الأطفال في الدين حرامٌ..! حرام..!

ثم سقناهم محروسين آمنين مطمئنين إلى أمهاتهم خلف الخطوط الروسية..!

وقلنا لهم بلا خطب ولا كلمات: هذا ديننا - أيها الروس - فليتكلم دينكم! ورجعنا شاكرين ذاكرين. وكان حوارا إيمانيا عجيبا.. أخرس وحوش الحرب اللئيمة..!

كان ذلك درساً قيماً وعبرة بليغة للأرمن؛ مما دفعهم إلى الإعجاب بأخلاق المسلمين؛ فتخلى جنودهم عن عادتهم السيئة في تذبيح أطفال المسلمين.. وكان عهدا حقيقيا بيننا، بلا وثيقة ولا بروتوكول..!

ثم نجح الطلاب إلى مستوى الصف الثاني من خندق الجهاد، واستمرت التجليات تترى.. إلى كان الامتحان الثاني.. وكان -يا ولدي- أعجب من الأول وأغرب..كان ذلك في معركة "بتليس"، وقد كنتُ ساعتها في الجبهة الأمامية، إذ اشتد القصف على المجاهدين؛ فأصابت ثلاث طلقات للروس مواضع من جسدي، لكنها لم تثنني عن الثبات بخندقي..! واستمر القصف ساعات.. إلى أن جاءت قذيفة الكسر والأسر..!

كان المفروض ألا يبقى فِيَّ عظم ولا لحم! إلا ما يُجمع بعد الحرب من أشلاء الجندي المجهول..! أصابتني أربع قذائف دفعة واحدة! وانفجر المكان كله من حولي، شعرت بألم عظيم، وانطلقتُ أستقبل الموت بيقين.. ولكن ما أن تجلت حُجُب الدخان والغبار حتى وجدتني طريحا بساق مكسورة، وجرح عليها بليغ.. ورأيت الناس حولي أشلاء ممزقة، وجثثا من الشهداء تمددت على الثرى، بينما رحلت أرواحها إلى الملأ الأعلى..! ولم يكن غير صمت الموت وحده يتكلم في الميدان الرهيب..!

كان الثلج يغطي ميدان الحرب، وجيش الروس يحاصر المكان.. وأنا هناك بذلك الخندق الصغير طريحا على الوحل، يتجرع جسمي الكسير سم الماء القارس والطين..!

وبعد قليل هرع إلي من بقي حيا من الطلاب ووضعوا بنادقهم تحت ساقي المكسورة كنوع من الضماد! كانوا ينظرون إلي بأحوال؛ فأنظر إليهم بحال..! وكان لا بد من أن أتكلم فقلت:

- إخوتي..! لقد حكم عليَّ القدر بالأسر..! فانظروا إلى أمر نجاة أنفسكم..! ما ينبغي أن تبقوا هنا جميعا.. هيا ارحلوا عن هذا المكان..!

....

وانعكست زرقة السماء على وجه الأرض!.. كانت الكلمات قاسية جدا على الطلاب المخلصين.. فهذه القلوب المجتمعة ما كان لها أن تتفرق إلا بالموت..! ولذلك ما أن أفرغ الشيخ شجنه العميق حتى أجهش الجميع بالبكاء..!

وتكلم أحدهم:

- إلى أين نذهب يا أستاذنا؟ كيف نتركك على وضعك هذا؟ ألم يبق لنا شرف وغيرة؟ فلئن متنا أو بقينا أحياء فكل ذلك عندنا سواء ما دمنا في خدمتك! أبدا يا أستاذ لن نرحل! بل نموت هنا معك!

ومضت أربع وثلاثون ساعة من الألم والرَّهَبِ كشهور، بلا طعام ولا شراب، ولا إسعاف أو دواء! والبرد شديد، والثلج لا يفتأ يردم المكان، ويدفن الجثث المتناثرة هنا وهناك.. والجوع يفتك بكل شيء إلا غِربان الحرب وحدها كانت متخمة!

وأخيرا قضت مشاوراتهم أن يذهب أحدهم إلى موقع الروس فيخبرهم بموقعهم.. فكان أن غدوا أسرى بمعسكر سبيريا..!

مقام الاستشهاد

تتمة الحكاية

"سبيريا" هي بلد الموت البطيء.. هناك حيث تنخفض الحرارة إلى عشرات الدرجات تحت الصفر، ويموت النسل في أصلاب الرجال؛ تجمد الدمعة في المآقي ويصبح البكاء مستحيلا..! عاصفة الثلج وحدها تعزف مرثية المستضعفين! ويبقى الكبرياء الروسي يبني جبروته بجماجم الهلكى وجثث المجمَّدين حتى الموت الأزرق! ومن فينة لأخرى يمر طاغوت الحرب الروسي "نيكولا نيكولافيج" خال القيصر والقائد العام لجبهة القفقاس.. يستعرض عضلات الطاغوت الروسي على الأسرى من مختلف الجنسيات. حتى إذا اقترب منهم بحصانه هبوا بين يديه وقوفا؛ تعبيرا عن الخضوع والامتثال! كذلك كانت تعليمات السجن الروسي. إلى أن كان يوم بديع الزمان.

هو ذا القائد العام ماثل أمام أطياف الأسرى.. وهذه هياكلهم الهزيلة قد بادرت إلى التحية وقوفا بين يديه.. كان يجول بعينيه الزرقاوين بين الصفوف، وعليهما ملامح ابتسامة ساخرة، تنفثان الشماتة وتشربان الفخر والكبرياء! كانت الصفوف مستوية إلا صفا واحدا به ثلمة! كان هناك رجل واحد قد بقي جالسا بموضعه في هدوء غريب! قطب الجنرال حاجبيه فزعا! ونظر تجاهه، ثم نظر ونظر، ثم عَبَسَ وبَسَرَ..! فكأنما هو لا يصدق أن يكون في الكون شيء لا يقف له احتراما!.. اقترب من الرجل الأسير ولكنه بقي جالسا على حاله لا يحرك ساكنا ولا يبالي..! خطا الجنرال خطوات قليلة

بعيدا عن الصف، ثم عاد ليجرب مرة أخرى؛ ومر أمام الرجل فلم يجد منه تجاوبا ولا اكتراثا! عجبا..! ما هذا..؟

سأل الجنرال المترجم منتفضا:

- أما عرفني؟

ويقول بديع الزمان بهدوئه العميق:

- بلى عرفتك!.. أنت نيكولا نيكولافيج، خال القيصر والقائد العام لجبهة القفقاس!

- فلِمَ إذن قَصَدْتَ الإهانة؟

- كلا! معذرة..! إنني لم أستهن بك. وإنما فعلت ما تأمرني به عقيدتي!

ويرد الجنرال ساخرا وهو يصك أضراسه غضبا:

- عقيدتك؟ وبم تأمرك عقيدتك ؟

- أنا عالم مسلم؛ أحمل في قلبي الإيمان، والذي يحمل الإيمان في قلبه أفضل ممن لا يحمله.. ولو أنني قد قمتُ لك؛ لكنتُ قليل الاحترام لديني ولأهنت عقيدتي!

وتكلمت عينا الجنرال بالحكم قبل أن تتكلم شفتاه: "إنك ميت!" ثم قال مبينا حيثيات عريضة الاتهام:

- إذن؛ بإطلاقك صفة "عدم الإيمان" عليَّ تكون قد أهنتني، وأهنت جيشي، وأهنت أمتي، والقيصر؛ فلتُشكَّل محكمةٌ عسكرية حالاً!

ويأتي الضباط الأسرى من الأتراك والألمان والنمساويين، جنسيات شتى ولكن إحساسهم واحد! ترقب الموت بين مخالب الروس! ويلتفون حول بديع الزمان، يلحون عليه مترجين أن يبادر إلى الاعتذار وطلب العفو من هذا الطاغوت الجبار!

كان ينظر إلى السماء في صمت عميق وهو يستمع إلى كلماتهم الرقيقة،

وما أن فرغوا من محاولاتهم العاطفية حتى تكلم بصوت أشبه ما يكون بصوت أخروي، فقال:

– أشكر لكم إحساسكم الجميل تجاهي! لكن اعذروني أيها السادة! إنني راغب في الرحيل إلى الدار الآخرة! إنني في شوق للمثول بين يدي الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم..! فأنا بحاجة إلى جواز سفر للآخرة..! ثم إنني لا أستطيع أن أتصرف بما يخالف إيماني.. فعذرا..!

ويدخل الجميع في صمت لا يخرمه إلا تنهد أسير هنا أو هناك، يرسل نَفَساً من حرارة صدره الحزين، وهو ينظر إلى بديع الزمان نظرا يتردد بين إشفاق واستغراب!

وما هي إلا لحظات حتى كانت المحكمة السريعة قد أصدرت قرار الإعدام! بموجب مادة إهانة القيصر والجيش الروسي. ثم تحضر شرطة عسكرية يقودها ضابط روسي لأخذه إلى ساحة الإعدام.. ويقوم بديع الزمان إلى الضابط قائلاً له بابتهاج: اسمحوا لي خمس عشرة دقيقة فقط؛ لأؤدي واجبي تجاه ربي..! ويؤذن له؛ والجميع ينظر ماذا يريد؟

يتوضأ الرجل بسرعة ثم يستقبل القبلة ويرفع يديه مكبرا ثم يدخل في رحاب الصلاة..!

– الله أكبر..!

كان واقفا مثل النخلة الشماء.. وعيناه إلى الأرض. وكانت شفتاه تتمتمان بقرآن الصلاة.. ثم يركع ويسجد.. في رحلة كونية تجرف كل ما حوله من شجر وبشر، وترتفع بهم جميعا إلى منازل الملأ الأعلى..! كانت الثلوج تذوب أضلاعُها تحت قدميه القائمتين، والأحجار تسيل عيونُها بين يديه الساجدتين..! كان كل شيء حوله يشتعل؛ بما فاض من قلبه المتبتل رغبا ورهبا؛ من حرارة الشوق إلى لقاء الله..!

وغير بعيد من الساحة كان الجنرال نيكولا يطل من شرفته العالية، يرقب صنيع بديع الزمان.. كانت عيناه ذاهلتين، وكان يقتحمهما حال يشبه الخوف أو الإعجاب، أو شيء مشترك بينهما..! وكأنما قوة ما قد أمطرت جسده العاتي بشرر من نار..! فجعل يتحرك بمكانه ليتخلص من شيء ما لا يدري ما هو.. ولكنه لا يستطيع! ثم اندفع بقوة إلى أسفل ليجد نفسه بين يدي بديع الزمان، وكأنما شخص آخر تكلم على لسانه وهو يقول بصوت هادئ خاضع:

– المعذرة! إنني أعتذر لكم! لقد كنت أظن أنكم قمتم بعملكم هذا قصد إهانتي، فاتخذت الإجراءات القانونية بحقكم.. ولكني الآن أدركت أنكم تستلهمون هذا العمل من إيمانكم حقيقة! وتنفذون ما تأمركم به عقيدتكم! إني أُبْطِلُ قرار الحكم بحقكم! إنه حكم باطل! إنكم تستحقون كل التقدير والإعجاب؛ لما أنتم عليه من صلاح وتقوى! أرجو المعذرة مرة أخرى فقد أزعجتكم! أكرر رجائي مراراً: أرجو المعذرة..!

ونظر الأسرى والضباط الروس إلى الرجلين مستغربين..! أحقيقة ما يشهدون أم خيال؟ كيف؟ وما أفلت من بطش "نيكولا" قبل بديع الزمان أحد!

كانت عيون كثير من أسرى الترك قد اغرورقت بالدموع، وهم لا يدرون أَفَرَحاً بنجاة شيخهم يكون؛ أم فرحا بكرامة الإيمان وعزة الإسلام؟

مقام المدد..!

قال لي:

..كان ذلك عندما كنت أسيرا في شمال شرق روسيا بمدينة صغيرة تدعى"قوصترما".. وكان هناك مسجد صغير للتتار على حافة نهر "فولغا" المشهور أنظر إليه من سجني وكأنما أنا واقف بمحرابه الحزين أصلي.. ثم أُذن لي بالخروج للصلاة فيه، وربما بت فيه أحيانا، تحت نظر المراقبة وحراستها، على نحو حياة المنفى. ورغم ما نلت من حرية نسبية فقد هاجمتني الأحزان والهموم لِمَا صرت أجد من الغربة الموحشة، بهذه المنطقة المعزولة عن العالم!

كانت حادثة الجنرال رحمة إلهية تنزلت عليَّ فكان من شأنها ما كان؛ فلانت الحراسة المشددة حولي.. وكأنما أُذنَ لي بشيء..!

وفي تلك الليالي المحزنة الطويلة، وما شهدته من أحوالها الحالكة الثقيلة، المضمدة بأشجان الفرقة والغربة؛ كان عجزي وفقري هو سفينتي الوحيدة التي أركبها كل مساء للإبحار إلى الله، والتقرب إلى عتبة رحمته تعالى.. وكان لتلاوة القرآن آنئذ بقلبي لذة ما ذقت مثلها من قبل قط! ولا شهدت بهجة أنوارها في حياتي قط! ولقد شهدت عند خضوعي بين يدي الحضرة الإلهية ما فاض عليَّ ساعتها من المدد القرآني الجليل، والنور الرباني الجميل..! وكأنما ارتفعت عني الحجب من هناك وانزوت لي الأرض؛ فرأيت الطريق سالكة فسيحة إلى اسطنبول..! عجبا وأنا في منافي اليأس من حدود الأرض الشمالية..! وفي ليلة لا أدري ما هي خرجت من سجني كما خرج رسول الله ﷺ من بيته بمكة مهاجرا، والحراس واقفون على الباب ولكنهم لا يبصرون..!

كانت الأرض تطوى تحت قَدَمَيَّ طيا..! وكان لأضلاعي دفعٌ عجيب كدفع النسر بأجنحته القوية، وجسمي يتصبب عرقا من شدة الحرارة المتقدة بدمي، في قر الثلج الروسي! عجبا..! ومن حين لآخر أشعر بالريح تُدْخِلُ صهوتَها بين رجلي، وكأنما هي فرسٌ تحملني فتجري بي رخاءً حيث أصيب!

وإنني ما زلت إلى اليوم - يا ولدي — مندهشا ومتعجبا..!

إنني لا أدري كيف استطعت الفرار من قبضتهم الحديدية؟ وكيف استطعت الوصول إلى اسطنبول في أيام قليلة..؟! وكيف قطعت مسافة هائلة سيرا على الأقدام؟ مسافة لا يمكن قطعها مشياً إلاَّ في عام كامل! ولم أكن أعرف شيئا من اللغة الروسية! ثم تخلصت من الأسر بصورة عجيبة مُحيِّرة! ولم يكن ذلك قطعا إلا بفضل العناية الإلهية التي أدركتني لحظتَها؛ بناءً على عجزي وضعفي.. وما زلت أذكر كيف خرجت من روسيا ومررت بـ"وارصو"، ثم "فيينا"... ثم... إلى أن وصلت إلى اسطنبول! عجبا! ونجوت من ذلك الأسر الرهيب بإذن الله العلي القدير..! فله وحده الحمد والمنة!

مقام الاحتفال

وما أن دخلت شوارع اسطنبول، ودلفت إلى أزقتها الحزينة حتى انتشر الخبر بين العامة والخاصة: لقد وصل بديع الزمان! لقد وصل العالم المجاهد..! لقد وصل سيد الأبطال..! إلى غير ذلك من الصفات والألقاب التي أثقلت كاهلي كثيرا؛ حتى فكرت في الفرار..! وعلمت بعد ذلك أن أخبار المعارك كانت تصل من معسكرنا تباعا إلى دار الخلافة ومشيخة الإسلام.. ثم ما لبثت إلا قليلا حتى جاءني رسول الخليفة يدعوني إلى حضرة السلطان، وما كان لي إلا أن ألبي الدعوة.. فكان ما لم أكن أتوقعه: استقبالٌ رسمي..! ويحي! ما لي ولهذا؟ كيف؟ وإنما أنا رجل السجون والمنافي وطيف الخلوات؟!.. ها هو ذا السلطان، وها هو شيخ الإسلام، والقائد العام، وطلبة العلوم الشرعية بإسطنبول، جميعا يصطفون لاستقبالي.. كان المشهد جميلا وجليلا..!

كان ذلك في اليوم التاسع عشر من شهر رمضان المبارك ١٣٣٦هـ، الموافق لثامن يوليوز ١٩١٨م، لقد قوبلت بتكريم وحفاوة أكثر مما استحق بكثير.. وقرأت في أعين السلطان وشيخ الإسلام -في غمرة الفرح الظاهر- ملامح الأسى والحزن العميق، وكأنما فاتهم شيء عظيم..! ولست أدري أهو هزيمة الدولة العثمانية أم ضياع الأمر وسقوطه من يد السلطان؛ بما حصل من سيطرةٍ لأشباح الظلام!؟ كان الاتحاديون قد اتخذوا أنقرة عاصمة فعلية لهم! فمن هناك تصدر الأوامر الحقيقية التي عليها العمل! وبقي السلطان هملاً بإسطنبول، وبقيت مشيخة الإسلام -إلى جانبه- قطعةً متحفيةً تُذَكِّرُ بالتاريخ الذي كان! وكأنما الفرح بي كان نوعا من التعبير عن الندم، أو

التكفير عن الإفراط والتفريط.. فقد أسندت أمور الدولة إلى الشياطين، ومُكِّن لليهود تمكينا أضرم النار في البلاد والعباد! وأُبعِدَ أهلُ الحل والعقد من العلماء المخلصين للخلافة الإسلامية وللسلطان؛ فكان الذي كان!

سجن الحكمة..!

كان أن عُيِّنْتُ بعدها عضوا بدار الحكمة الإسلامية بإسطنبول.. ولبثت فيها حوالي ثلاث سنوات.. ودار الحكمة الإسلامية -يا ولدي- كانت يومئذ تابعة للمشيخة الإسلامية العامة للدولة العثمانية، وكانت لا تضم إلا كبار العلماء، كشاعر الإسلام محمد عاكف واضع النشيد الوطني التركي، وإسماعيل حقي أزميرلي، وحمدي ألمالیلي، وأمثالهم.. ولكن ماذا بعد؟ ذلك هو السؤال وتلك هي القضية!

إذْ ما لبثت أن وجدت أن مكاني الحقيقي ليس هناك! وشعرت بأنه لا بد من البحث عن رأس الفتنة، فلا فائدة من قطع ذيل الأفعى! فإنما كل هذه الأشكال هي الآن ميتة! قد فقدت حقيقتها، وصارت أشبه ما تكون بلعب الأطفال، تركها أشباح الظلام إلى حين؛ خدعة للخليفة ولعلماء المسلمين..! دار الحكمة! إنه سجن من نوع آخر إذن! فلا بد من الرحيل قبل فوات الأوان..!

ولنبدأ البحث الآن!

بدأت روحي تنتفض من أعماقي في حركة كالإعصار بحثا عن المخبوء من وظيفتي، وكشفا للحدس الذي لم ينكشف بعد!

فلعل حركة قوية بقعر البحيرة المظلمة تخرج ثعابينها إلى أعلى!

قال لي:

كان لا بد إذن من امتحان سعيد النورسي! أبديع الزمان هو أم بدعة الزمان؟ لا بد من تجريب عزيمة الروح، ومدى صدقها وصفائها؛ وإلا فلا

فائدة من الإبحار! فليكن أول الخطو تفريغ القلب مما سوى الله! فلأخرج من الدنيا أولا! ثم ليكن ذلك بجعل هذا المرتب المالي الذي أتقاضاه أجرة من دار الحكمة وقفا على الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله! ولن آخذ منه غير ما يقيم أودي! هذا أول الغطس نحو القاع!

نظر إلى ابن أخيه وتلميذه النجيب عبد الرحمن، وقد كان مكلفا بتدبير أمور عيشه وصرف نفقته اليومية، ثم خاطبه بجده الرهيب قائلا:

- عبد الرحمن! سأوكل إليك إدخار هذا المال!

عجب الفتى من هذا الأمر الغريب؛ فما كان من المرتب قدر فائض أصلا!! وإنما هو الحد الأدنى للعيش الكريم! ثم استفسر قائلا في إشفاق بالغ:

- وما السبب يا عماه! لماذا تجحف بنفسك هكذا؟!

- أريد أن أعيش كالسواد الأعظم من الناس!.. ألا ترى أحوال الأمة؟.. إنهم يتداركون معيشتهم بالقدر القليل من المال. وأنا لا أريد أن أقلد الأقلية المسرفة!

يا عبد الرحمن! سحقتني آلام الأمة الإسلامية!.. لقد انهزمت الدولة العثمانية!.. يا عبد الرحمن! إنني أستطيع أن أتحمل كل آلامي الشخصية، ولكن آلام الأمة الإسلامية سحقتني..! يا عبد الرحمن! إنني أشعر بأن الطعنات التي وُجِّهت إلى العالم الإسلامي قد وجهت إلى قلبي أنا أولاً! فآهٍ وآهْ...!

ودخل الرجل في تجريب وجداني عميق! وزهد روحاني عال!.. ولكن عبد الرحمن كان أضعف من أن يطيق هذا المسلك الحاد! فكان من حين لآخر يصرف من المبلغ الموقوف -خُفْيَةً- قدر ما يوسع عن الشيخ قليلا، أو يرفع عنه بعض الضرر! وإنما ذلك شفقة عليه ورحمة! هكذا كان يرى أو يخيل إليه!

إلى أن كان يوم انكشف فيه الأمر! فانتفض الشيخ وصـــرخ في وجـــه تلميذه بقوة:

- ماذا تصنع؟ إنه لا يحل لنا هذا المال! إنه ملك الأمة! فلم صـــرفته؟.. امض! لقد عزلتك عن تدبير أموري، ونصبتُ نفسي بدلاً عنك!

ودخل الليث أدغال غابته فردا..! فمن ذا يطيق مسلك الـــصِّدِّيقين إلا أبدال الزمان!

مرت أيام وشهور.. ثم بدأت تجليات المسلك تؤتي ثمارها.. وكان لصفاء الروح مرايا ذات جلوات! كان كلما أنهى العمل بدار الحكمـــة، وانفـــض مجمع العلماء بها خرج وحده إلى خلوته قاصدا إحدى القمم العاليـــة مـــن هضاب اسطنبول، إما مشرفا على جمال البوسفور، أو مطلا على بحر مرمرة الساحر، يقرأ كلمات شمس الأصيل وهي ترسم قصيدة الأمل على خـــدود اسطنبول الباكية!

وكان أن رأى ما رأى!..

كان الأفق لهيبا يضرم كل ما يلفحه بلسانه الأحمر الرهيب.. وكانـــت عواصف الدخان تملأ الأبصار بالرماد الحار! وشممت روائح الاحتراق كأنتن ما تكون! الله! ما هذا يا سادتي؟

ونظرت إليه بدهشة كالمستغيث! فقال لي صارخا بما يشبه الإنذار أو أمـــر القائد العسكري بالاستعداد:

- العلوج قادمون!

ونظرت إلى ساعة الزمان: كان ذلك في يـــوم ١٣/١١/١٩١٩م، فقـــد دخلت خمس وخمسون سفينة حربية من أساطيل دول الحلفاء إلى اسطنبول؛ حسب هدنة "موندروس" التي عقدت في ٣٠/١٠/١٩١٨م.. اثنتان وعشرون

منها لانكلترا.. واثنتا عشرة منها لفرنسا، وسبع عشرة لإيطاليـــا، وأربـــع لليونان! ثم وَجَّهَتْ مدافعَها جميعا نحو قصر الخليفة! هذا الـــذي أصـــبح في حكم الأسير في قصر "دولمه باغجه"!

ثم احتل الإنكليز اسطنبول في ١٨ مارس ١٩٢٠م.

وشممت رائحة الخيانة قوية! ولكن أين وكيف؟

ثم كان خاطر عجيب.. وهو أن أخوض معركة التحرير هـــذه المـــرة بالقلم! ورأيت كلماتي سيفا من نور وهاج يمزق حجب الظلام! وشـــرعت بعدها مباشرة في طبع ما ألَّفته في اثنتي عشرة رسالة! ودفعت ما ادَّخرتُه من مال إلى المطبعة، ثم أَمَرْتُ بتوزيع الرسائل مجاناً بين الناس، سوى رســـالة أو رسالتين.. هذا مال الأمة يجب أن يعود إلى الأمة!

وانتشرت الرسائل بسرعة فائقة؛ فكان لأثرها أمرٌ عجيب! وكان ذلك بدء عهد جديد في حياة تركيا وفي حياة بديع الزمان!

مقام الكلمة

قال لي:

كان ذلك يا ولدي عندما بدأ القائد العام للجيش الإنكليزي -الذي احتل اسطنبول- يزرع بذور الخلاف بين المسلمين.. عندها شعرت بخطورة الأمر، وعلمت أن السلاح الجديد ليس في القوة العسكرية فقط، بل لا بد من فعل آخر، ومقاومة من نوع جديد.. فالداء كان قد تغلغل في الجسم المريض! والعدو صار يجري من الدولة العثمانية مجرى الدم في العروق! فقمت آنذاك بتأليف كتابي "الخطوات الست" ضد الإنكليز وضد اليونانيين، وقام المجاهد السيد "أشرف أديب"رئيس تحرير مجلة "سبيل الرشاد"، بطبعه ونشره، مما ساعد على إبطال مفعول الخطة الجهنمية لذلك القائد.

ثم كان أن وصل خبر الرسالة إلى قواد حركة التحرير في أواسط الأناضول وعلموا بتأثيرها في أوساط العامة والخاصة، وما كان لها من أثر بالغ ضد المحتلين في اسطنبول؛ فدَعَوْني إلى العاصمة الجديدة: "أنقرة" مرتين؛ تقديراً لتلك الأعمال البطولية -زعموا- والخدمات الجليلة نحو الأمة والبلاد..! كانت الحرائق مهولة في البلاد، وكان الدخان شديداً؛ بحيث كان من الصعب جدا أن تكشف حقائق الأشياء بسرعة، أو أن تميز بين الدعوة الصادقة والدعوة المدسوسة، أو بين صف المجاهدين وطابور العملاء! فاللسان واحد والمقاصد شتى!

ونظرت في خلواتي مرات ومرات، وسألت نفسي: من هؤلاء؟ وماذا يريدون؟ ثم كانت خطَراتٌ وخطرات إلى أن كان كَشْفٌ وكانت جلوات!

من اسطنبول إلى أنقرة؟ كيف وههنا جبهة المعركة؟ أي دعوة هذه وأي تكريم؟ كلا! كلا!.. ثم رددتُ عليهم برفض الدعوة! وكانت لنا في ذلك كلمات:

- أيها المجاهدون! إنني أريد أن أجاهد في أكثر الأماكن خطراً..! وليس من وراء الخنادق فقط، إنني أرى هذه اللحظة أن مكاني هنا في اسطنبول أخطر من الأناضول! فسلام عليكم!

ولكني ظللتُ -رغم ذلك- قَلِقَ الفكر، مضطرب الوجدان..! فما كان عقلي يتركني لأستريح من وهج الأسئلة..! وما وجدتُ لي راحة ولا لذة جهاد، كما كنت أجدها من قبل في حرب الروس أو في خلوات الروح! وها أنا ذا اليوم هنا بإسطنبول! في وطيس المدافعة والذود عن حمى الأمة المستباح، أشعر بأن شيئا ما ينقصني.. وما شعرت بأنني أؤدي واجبي كما ينبغيْ أن يكون! عجبا..! ماذا حدث لي؟

ثم قررت أن أدخل في رحلة روحية أخرى، تمضي بي صعدا نحو العالم العلوي؛ لعلي أرى شيئا غير ما أرى! فكانت لي حركة وجدانية شديدة، تذرع غابات اسطنبول ما بين دار الحكمة ومشارف الخلجان والبحار..!

الفصل الخامس

مكابدات "سعيد الجديد" . . !

عندما قرأت الجزء الأول من كتاب "التلال الزمردية" للأستاذ "فتح الله كولن" هزني الشوق إلى اللحاق بقافلة النور.. فسألت صاحبي عن الأحباب متى رحلوا وإلى أين..؟ تأسف وقال: بيان معالم الطريق يا صاح ما يـزال سرا مكنونا بين تلال الأجزاء الأخرى، ولَمَّا تبدأ بعد ترجمتـها مـن لغـة الوجدان، فلا تفهمها اليوم سوى طيور البحر المجذوب..! ويممـت تجـاه مواجعي فبكيت..! ثم وجدتني واقفا على تلة تتأرجح في برزخ بين الـروح والطين..! تجذبني أشواق السماء حينا؛ فأرى النوارس تحلـق بي في الأفـق الصافي بأجنحة من نور، وتحملني بمناقير من ألماس.. ثم تعـصف بي الـريح السفلية أحيانا أخرى، ترمي بصري بذرَّات الحمأ المسنون؛ فلا أبصر غـير لهيب النار يحاصر جسدي!

ثم فتحت كتاب "عصا موسى" للنورسي؛ لعلي أجني من بستان الحكمة فاكهة تداوي حيرة قلبي.. فإذا بالصفحات تتبدى بين يديَّ أسوارا عاليـة ذات أبراج وشرفات..! نظرت إلى الهامش فإذا ببـاب ضـخم ينتـصب أمامي.. طرقت بقوة حتى أُسمع من في الداخل، فإذا بالشيخ يفتح لي البـاب بنفسه وهو يقول: "هذه دار الحكمة يا ولدي فتأدب!" خجلت، ومـشيت خلفه مطرق الرأس لا أتكلم، حتى أذن لي فجلست بمكتبة البيت. ثم جلس هو على سجادته الصغرى أمامي.

قال لي:

دار الحكمة يا ولدي كانت في حياتي برزخ تحولات كبرى..!

عندما عُيِّنْتُ بعضويتها كنت يومئذ على تخوم سن الأربعين..! وكان لذلك في نفسي قصة أخرى!

الأربعون!.. هذا البرزخ الزمني الرهيب.. أيقظ في قلبي شعورا قويا بالموت! وإحساسا شديدا بالفناء! صحيح أن الأربعين هي لحظة القوة والشدة من عمر الإنسان، ولكن أليست هي لحظة البدء أيضا لخطوة الانكسار من مخطط عمره المحدود؟ أليست هي بدء العد العكسي في اتجاه النهاية؟ تلك هي القضية إذن! وذلك هو الأرق الشديد الذي داهمني فجأة، ثم لازمني ليلا ونهارا.. فمن يخلصني..؟

والعجيب أني ما كنت أخشى الموت ولا الفناء! فقد خضت تجارب الحروب مراراً، وخَرَقَ الرصاصُ جسدي الكسير..! ووقفت على تجربة الإعدام مرات..! ولا كان لذلك أي أثر سلبي على نفسي، ولا أدنى شعور بالفزع أو التردد في الزحف والمواجهة! بل كان التحدي هو حصاني الأقوى الذي أركبه بين يدي الطغاة! ولا سبق أن قدمت إشارة اعتذار واحدة للجلاد! والسيف فوق رأسي مصلت! فما الذي حدث لي الآن بدار الحكمة هذه؟ ما هذه الرهبة التي تملأ كياني وتزلزل وجداني؟! ما هذا الغول الذي يلاحقني؟

وظللت على هذه الحال أزمنةً لا أدري لها مدى.. أركض كالمجنون ما بين مقر دار الحكمة ومجلى خلوتي الخاص، هناك "بِتَلِّ يُوشَع" أو بقمة "شَامْلَجَا"، عروسة اسطنبول، مطلا على ضفاف البوسفور وبحر مرمرة.. وعند كل مساء أنحدر مع غروب الشمس الحزين، منكسر الخواطر، كسيح الفؤاد، وكأني أرسم لحظة الانكسار من عمري..! ثم لا أدري كيف ينبعث

الصراخ المستغيث من غور أعماقي: يا باقي..! يا باقي..! يا باقي..! ما كنت أنطق من ذلك بشيء! ولا كان لساني يتحرك منه بحرف، ولا كان فمي يمتلئ له بهواء، ولكني كنت أسمع الجبال كلها حولي تردد أصداء صراخي، موجا قويا تتحطم دفقاته على صخورها، الواحدة تلو الأخرى.. ثم تمضي بعد ذلك أنينا كسيرا، يضمحل شيئا فشيئا.. حتى يذوب في البوسفور، مع بكاء النوارس: يا باقي..! يا باقي..!

وعشت بدار الحكمة أياما رهيبة أتلقى فيها صفعات على رأسي صباح مساء..! وكان امتحانا شديدا..! حتى حل ذلك اليوم المشهود.. حيث كان الكشف وكان التجلي.. وانفتح باب الأسرار..!

كانت الصفعات أكبر من أن تطاق! وكنت أشعر خلالها أن الموت فعلا بدأ يغزو روحي! وكان ذلك حقا لا وهما ولا خيالا! فقد رأيت بإحدى الأمسيات شبح نفسي يسقط طريحا على الأرض وينسل من جسدي الواهن بغير حراك..! وسألت نفسي: عجبا! ما هذا الذي أشاهد؟ أجبت على الفور: إنه سعيد! إنه هو نفسه! نعم بديع الزمان سعيد النورسي! إنه الآن يموت!

وأدركت لحظتها أن شخصا ما في وجودي الباطني قد مات، وأني بصدد استقبال شخص آخر في عمري!.. أوَّاهُ يا ولدي! لقد مات "سعيد القديم"..!

* * *

ها كل شيء يتهيأ الآن لاستقبال المولود الجديد..! كانت الأضواء خافتة، والكتب تطل عليَّ بأعناقها من كل الرفوف، كانت تناديني من هنا وهناك: افتح هنا!.. افتح هنا!

مقام توحيد القبلة

شعرت كأنما أنا غارق في الأوحال.. استنجدت، مددت يدي أبحث عن طريق، شعرت بالعجز، وأدركت بأنني في حاجة إلى منقذ يأخذ بيدي.. كانت الكتب بين يدي كثيرة، والأفكار بذهني مضطربة، وكانت السبل تنتصب أمامي متزاحمة.. ولست أدري كيف وضعت يدي على كتاب "فتوح الغيب" للشيخ عبد القادر الجيلاني -رضي الله عنه- فتحتُه أطلبُ فأل خير، فوقع بصري في الصفحة على العبارة الآتية:

- "أنتَ في دار الحكمة فاطلبْ طبيباً يداوي قلبك!"..

عجبت أشد العجب!. لقد كنت يومئذ عضواً في "دار الحكمة الإسلامية".. اعتقدتُ أنما جئتُ إليها لأداوي جروح الأمة، والحال أنني كنت أشد مرضاً وأحوج إلى العلاج من أي شخص آخر.. فالأولى للمريض أن يداوي نفسه قبل أن يداوي الآخرين!

- قال لي: "أنت مريض.. ابحث لك عن طبيب يداويك!"..

- قلت: "كُنْ أنتَ طبيبي أيها الشيخ!"

وبدأت أقرأ.. كان يخاطبني أنا بالذات.. آه يا ولدي كم كان شديد اللهجة!.. لقد كان يحطم غروري ويهد كياني..! فأجْرَى بذلك عمليات جراحية عميقة في نفسي!.. ولم أتحمل!.. ولذلك قرأته إلى ما يقارب النصف، فلم أستطع إتمامه، ثم وضعت الكتاب جانبا..!

ومَرَّ زمانٌ من عمري النفساني لم أدر له مدى، ثم أحسست بأن آلام الجراح قد ولّت، وخلفت مكانها لذائذ روحية عجيبة!.. وملأني حنين

شديد إلى كتاب "فتوح الغيب" مرة أخرى!.. عدت إليه، وأتممت القراءة كلمة كلمة فكان هو أستاذي الأول في بدء الطريق الجديد.. استفدت منه فوائد جليلة، وأمضيت معه ساعات طويلة.. أُصْغِي إلى حكمه وأوراده، وأشرب من شلال مناجاته.

ثم وجدت كتاب "مكتوبات" للإمام أحمد الفاروقي السرهندي، فتفاءلت بالخير تفاؤلاً خالصاً، وفتحته، فوجدت فيه موافقات أخرى وتعجبت!.. حيث صادفت فيه رسالتين إلى شخص باسم: "ميرزا بديع الزمان" هكذا.. فأحسست كأنه يخاطبني أنا بالذات، إذ كان اسم أبي رحمه الله: "ميرزا". والرسالتان موجهتان إلى "ميرزا بديع الزمان". فقلت: يا سبحان الله! إن هذا ليخاطبني أنا بالذات! لأن لقب "سعيد القديم" كان هو "بديع الزمان"، وإذْ ما كنتُ أعلم أن أحداً قد اشتهر بهذا اللقب غير "الهمذاني" صاحب المقامات، الذي عاش في القرن الرابع الهجري؛ فلا بد أن يكون هناك أحد غيره قد عاصر الإمام الرباني السرهندي وخوطب بهذا اللقب، ولا بد أن حالته شبيهة بحالتي حتى أني وجدت دوائي بتلكما الرسالتين!..

كانت وصية الإمام السرهندي تؤكد للمريد أن يُوَحِّدَ القبلة! أي: أن يتبع إماماً ومرشداً واحداً ولا ينشغل بغيره! فكان خطابه بين الفينة والأخرى ينادي أنْ : "وَحِّدِ القِبْلَةَ!

لم توافق هذه الوصية – آنذاك – استعدادي وأحوالي الروحية.. وأخذت أفكر ملياً: أيهما أتبع؟ الجيلاني أم السرهندي؟ أأسير وراء هذا أم وراء ذاك؟ احترت كثيراً.. وكانت حيرتي شديدة جداً، إذ في كل منهما خواص وجاذبية، ولم أستطع أن أكتفي بواحد منهما.

وبينما أنا في غمرة الحيرة الشديدة.. إذا بخاطر رحماني يطرق قلبي فجأة ويهتف بي:

– يا سعيد..! إن بداية هذه الطرق باختلافها، ومنبع هـذه الجـداول كلها.. وشمس هذه الكواكب السيارة جميعها.. إنما هو القـرآن الكـريم! فتوحيد القبلة الحقيقي إذن؛ لا يكون إلاّ بالقرآن الكريم!

أوَليس القرآن هو أسمى مرشد!.. وأقدس أستاذ على الإطلاق؟

وكان ذلك اليوم يوما مشهودا في حياتي.. فقد خرجت مـن ضـلال الحيرة، ورأيت بسمة الأمل ميلادا جديدا في عمري.. وكان فَرَحٌ لم أشهده قط في حياتي!.. نعم؛ لقد رأيت حلول "سـعيد الجديـد"! في روحـي، ووجدت شخصيته تملأ كياني! وانطلقت أركض برجلي في "مغتسل أيوب" ماءً باردا وشراباً! فكان الشفاء وكانت فرحة الميلاد!

لقد وجدت القرآن؛ فوجدت "سعيد الجديد"!

ومنذ ذلك اليوم أقبلت على القرآن تلاوةً لا تنقطع، وتدبرا لا يمـل ولا يكل! فلم أزل به معتصما، أستمد منه حقائق الإيمان، وأقرأ به أحوال الزمان والمكان، وأرقب من خلاله مشاهدَ صيرورة الكون والحياة والإنسان!..

وأدركت لأول مرة في حياتي كيف يكون الإبصار حقا في هذا العـالم الجميل! ولست أدري كيف بدأت أكتب ما أرى وأشاهد مـن أسـرار.. كانت الكلمات تفرض نفسها علي فرضا! وكان واردها القوي لا يستأذن إذ يطرق باب قلبي، حيث يدخل مباشرة إلى مسالك الروح من جـسدي، فأجد للمواجيد حرارة لا تطاق! فإما أن أكتبها بخطي الضعيف جدا؛ وإمـا أن أملي لهيبها على بعض الأحبة؛ فأستريح من وهجها الفيـاض! وبـذلك كانت "الكلمات" وكانت بداية "رسائل النور!"

* * *

وفي الطريق مع القرآن صارت مقامات السلوك تتجلى.. الواحد بعـد الآخر..! فكان الْمَقامُ الأول:

مقام الهدى

عندما كنت أسعى للخروج من حالة (سعيد القديم) ازَّلْزَلَ عقلي، وارتج قلبي، وتدحرجا الاثنان مني ضمن الحقائق المتدحرجة في حركـة إعـصارية رهيبة! ومخاطبات جدلية نفسانية قاسية تمضي من النقيض إلى النقيض! تصعد ثم تهوي من أعلى إلى أسفل ثم ترتقي من أسفل إلى أعلى.. من الثريـا إلى الثرى ومن الثرى إلى الثريا! وذلك لانعدام المرشد الإمام، ولغرور الـنفس الأمارة!

ولكن بدخولي مسلك القرآن الكريم شاهدت أن مَعَالِمَ الـسنة النبويـة الشريفة -حتى في أبسط آدابها- كل منها في حكم بوصلة تبين اتجاه الـسير للسفن الماخرة عباب المحيط.. أو في حكم مصباح كاشف، يـضيء مـا لا ينحصر من الطرق المظلمة للحائرين مثلي!

قال لي: إنا آتيناك من السنة النبوية سببا؛ فاتبع سبا..!

قلت: قد اتخذتُ سيدي رسولَ الله -صلى الله عليه وسـلم- لي إمامـاً مُرْشداً في مسلك القرآن.. لن أرضى بغيره سببا!

ثم قال لي: الآن نعم! يا ولدي وَلَكَ المقام الثاني معلمة جديدة؛ فتعلم!

مقام التفرد

نظرت إلى هذا العصر الغريب وظلماته الرهيبة.. فشاهدت السالكين إلى الله على طرق شتى، كانت شموعهم جميعا تتبدد في حلكة الظلمات الشديدة! وكنت وحدي أضرب بنور القرآن في مسلكي فردا..!

نعم يا ولدي ففي زماني هذا وجدت أنني قد سلكتُ طريقاً غير مسلوك، في برزخٍ بين العقل والقلب..!

قال لي:

- لا تحسبن أن ما أكتبه شيء مضغته الأفكار والعقول.. كلا! بل هو فيض! فاض على روحٍ مجروح وقلب مقروح، شلال نور تلقته مواجدي الحرَّى من القرآن الكريم رأساً! فلا تظننه حالاً تتذوقه القلوب حينا ثم يزول.. كلا! بل هو مقام أنوار متوهجة أبداً، وحقائق إيمان ثابتة سرمداً. إنها ليست لي.. فأنا لست بِمُدَّعٍ! وإنما هي شمس القرآن انعكست على عقلٍ عليلٍ، وقلبٍ مريضٍ، ونفسٍ حَيْرَى! فانبعث من رماد "سعيد القديم" "سعيد الجديد" يبشر العالم بالنور.. ذلك قدري يا ولدي، فانظر! هذه آية الطريق لك معلمة ثالثة:

مقام المشاهدة

كانت مشكلتي الأولى هي عقلي! فما كنت أتلقى العلوم والمعارف إلا من خلال قناة العقل! وتلك هي علة غروري.. وكذلك كان "سعيد القديم". ولطالما تعذبت وتدحرجت في المتاهات باحثا عن سكينة النفس لدى سلطان العقل! فكنت أبني الحجاج النظري بناء، حتى إذا ارتفع واستوى، وكان كأرفع ما يكون العمران؛ تبين لي اعوجاجه وتصدعه! فَرُحْتُ أهدمه هدما وأنقضه نقضا! فواتعساه لك يا عقلُ! ألستَ أنتَ الذي بنيت ما بنيت من برهان وحجاج؟ فكيف تكفر بما آمنت به من قبل؟ وناديت من أعماقي مستغيثا: أوَّاهُ يا رَبَّاه..! رحماك! أين -أم كيف- أجد الراحة لكياني..؟! ثم جاءني "سعيد الجديد" بأمر عجيب حقا!.. لقد جاءني بنور البصر الوهاج!.. عندما رأيته كان يحمل مشكاة ذات مصباح ينبض بالنور، كأنه كوكب دُرِّيٌّ يُزْهِرُ في الأفق الأعلى.. ثم دنا مني فتدلَّى، حتى كان قاب قوسين أو أدنى..! واستغرقتني أمواج النور كليا حتى لم يبق مني خارجه شيء! ثم علَّق بقلبي بصيرةً ذات مشاهدات، تسطع أنوارها فوق دليل العقل أبداً..!

قال لي:

- ساقني القدر الإلهي إلى طريق عجيب، صادفتُ فيه مفاوز ومهالك..! وكانت الحيرة وكان الاضطراب؛ فالتجأت بعجزي إلى ربي.. وأخذتِ العنايةُ الإلهية بيدي، وعلَّقَتْ بصري بشمس القرآن؛ فآتاني الرحمن رشدي، وانفتحت عيناي من بعد عَمًى مُظْلِمٍ دام دهرا..! ثم صرت بصيرا ونجوت!

فما كتبتُ من أحوالي بعد ذلك يا ولدي إلا ما شاهدتُ!.. كانت الحقائق تظهر لي من شمس القرآن يقينا ساطعا، بحيث لم يبق لنقيضه عندي إمكانٌ وهمي! هكذا شاهدتُ..!

مقام الغضب!

في غمرة المشاهدات الجديدة ناداني أرباب الدنيا مرة أخرى، فقد تجددت الدعوة إلى أنقرة للتكريم والاحتفاء؛ ظناً منهم أنني "سعيد القديم"! ولكن هيهات!.. فمع بداية المشيب تبدلت نشوة "سعيد القديم" وابتسامته للنجاحات الدنيوية وحل محلها نحيب "سعيد الجديد"، وبكاؤه على ما فات وعلى ما هو آت! فما لي وللدنيا؟.. ثم وضعت رسالتهم جانبا كسابقاتها، ورفضت الدعوة..!

بيد أن العجيب هذه المرة أن دعوتهم استمرت تتوالى تباعا، فلم تزل رسائلهم تصل إليَّ الواحدة تلو الأخرى! وَتَوَاتَرَ الإلحاحُ عليَّ بصورة غريبة! مما جعلني أعمق النظر فيما وراءها أكثر وأكثر، ثم فكرت في الجواب بصورة أخرى! وقلت في نفسي: وما يدريك؟ لعل من الحكمة أن أقف بنفسي على ما يجري هناك! ثم هذه حربٌ، والحرب خدعة! فقد يكون من الحكمة إظهار الانخداع!

ثم قررت الذهاب إلى هناك.. أنقرة عاصمة السحرة الكبار!.. فكانت الرحلة التي قلبت كل المفاهيم في رأسي!.. كان ذلك سنة: ١٩٢٢م، لقد رأيت الثعابين تسبح في دماء الأمة بصورة واضحة! واستطعت تمييز أنواعها، وطبيعة سمومها، ودرجات خبثها وخطرها؛ وكان ذلك حدثا مهما جدا في حياتي، ساعدني على تبين معالم الطريق، وعلى إكمال رسم شخصية "سعيد الجديد" في حياتي.. عجبا! لقد أرادوا بي أمراً، ولكنَّ الله أراد أمراً آخر!.. ألاَ "للهِ الأمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ"!

أنقرة! عاصمة الدخان..! المظاهر ذات ألوان، والحقائق لها ألوان..! الخرق واسع جدا والريح شديد..!

قال لي: شاهدت فرح المؤمنين وابتهاجهم باندحار اليونان أمام الجيش الإسلامي.. وكانت احتفالات وهتافات.. إلاَّ أنني أبصرتُ -خلالها- زندقة كبرى تدب ثعابينُها داخل الأمة بخبث رهيب، ومكر شديد..! وتتسلل مفاهيمُها الإلحادية إلى أذهان المسلمين..! فتألمتُ من أعماق روحي، وصرختُ مستغيثاً بالله العلي القدير..! أوَّاهُ يا رب! مَنْ لهذا الغول الرهيب الذي يريد أن ينقض أركان الإيمان؟

كان الاستقبال على أروع ما يكون! وكانت بهرجته كافية للإيقاع بأي عاشق للبريق والألوان!.. كل المسؤولين حاضرون، كل النواب في البرلمان، كل الأعيان، وجموع الأهالي تملأ المكان! ما هذا؟ وماذا يراد بي؟

ودخلت البرلمان.. كان واضحا أنه مجرد لعبة لإلهاء الأمة! فما هو إلا مسرح للجدل بلا عمل! واد لتفريغ الطاقة وإشغال العباد بنفخ الرماد! والسم يسري بجسم الأمة وأَسفاه! فأين المبصرون؟ ثم تمر الأوقات تلو الأوقات وتتوالى نداءات الصلوات ولا مستجيب!.. عجبا؟ أنحن في دولة الخلافة الإسلامية أم أنني وَاهِمٌ؟ ما هذا الكابوس الرهيب يا الله؟

وخطر ببالي أنه لا بد من عمل شيء ما! لا بد أن أرد على هذه المفاهيم التي تقذف بها الأفواه المنتنة، والعقول المريضة من هنا وهناك، لا بد من فضح هذه الزندقة الماكرة والتبرء من نسبها اللقيط! ما هي منا ولا نحن منها! ثم لا بد من تحذير أولئك السذج من الصالحين المنخرطين جهلاً في هذا الجدل العقيم، ينادون مع الزنادقة بهدم "البناء القديم" وهم المقصودون بالهدم ابتداءً ولكنهم لا يشعرون!

لا بد من تمييز الصفوف إذن! لا بد من كشف اللعبة!

وكانت تجربة يوم عجيب! كتبت بيانا على وجه السرعة، ضمنته عظمة الإسلام وأهمية العبادات فيه، ولا سيما الصلاة! ثم وزعته في البرلمان عليهم جميعا..! نوابا ومسؤولين! فكان وقعُه عظيما على الفريقين! رَغَباً وَغَضَباً! ما زلت أذكره.. كان أوله هكذا: "يا أيها المبعوثون!.. إنكم لمبعوثون ليوم عظيم!".. كان استهلالا كافيا لإيقاظ "من كان له قلبٌ أو ألقَى السمعَ وهو شهيد".

ومن خلف الستار.. هناك وراء حجب الظلام، قرأه الجنرالُ "كاظم قره بكر" على الرأس الأكبر!.. "مصطفى كمال"..! لم يكن الرجل حينئذ معروف الاتجاه عند الجماهير بوضوح!.. فكان الذي كان..!

كانت أمسية عجيبة.. فقد تاب فيها إلى الله ستون برلمانيا! واستأنفوا الصلاة! حتى إن القاعة المخصصة للصلاة لم تسع المصلين الجدد! فاتخذوا قاعة أوسع منها! وتحركت موجة الدين في البرلمان! و....

وغضب الذئب الأغبر! تصدر مجلس النواب وهو يجلس على كرسيه الفخم بسرعة أمام النواب!.. قطب حاجبيه الرماديتين، ووجَّه نظراته الحادة إليَّ..! ثم قال بنوع من الاحتياط المبطن بالسخرية اللاذعة:

- إننا لا شك بحاجة إلى عالم قدير مثلك..! فنحن دعوناك إلى هنا؛ للاستفادة من آرائك السديدة.. فأجبتم الدعوة.. إلاَّ أن الغريب أن أول عمل قمتم به هو كتابة أمور حول الدين وحول الصلاة! فكان أن بذرتم الخلاف فيما بيننا..!

وتحرك شبح "سعيد القديم" في جوفي مرة أخرى، وارتفعت حرائق الغضب من تحت كبدي..!

لم أمهله طويلا..! كان لا بد أن أطلق رصاصتي القاتلة! أليس هذا هو..! بلى! إنه هو بعينه! فماذا أنتظر إذن؟ لا بد من فضحه أمام هؤلاء

السذج المجهَّلين! لا بد من كتابة تاريخ الأمة بدماء الحقيقة الصارخة: كلمة حق أمام سلطان جائر..! "والعاقبة للمتقين"!

رفعت رأسي عاليا، وفتحت عيني أمام ناظريه بقوة وأطلقت منهما شعاع التحدي..! ورأيت قوة بصره تنقلب إليه خاسئة وهي حسيرة! حتى إذا أبصرت مصرعه المعنوي بين يدي؛ أشرت نحوه بأصبع مستقيمة كالسهم، بدقة لا تخطئ ما بين ناظريه!.. ثم رفعت صوتي مخاطبا إياه بقوة:

– بَاشَا..! بَاشَا..! إنَّ أعظم حقيقة في الإسلام –بعد الإيمان– هي الصلاة..! والذي لا يصلي خائن! خائن! وحكم الخائن مردود..!

كانت الرصاصة أشد مما تصور هو وحاشيته! وساد القاعةَ صمتٌ قاتل..!

كان حرجه شديدا..! فقد جعلته في مواجهة مباشرة مع الدين! لا مع سعيد النورسي! فكيف مخرجه الآن؟ كيف الخلاص؟ لم يكن ينقصه الدهاء طبعا، وبدا واضحا أنه سينهي المعركة بصورة سلمية ولو إلى حين، ثم قال لي:

– لعلكم لم تفهموا مقصود كلامنا..! ويبدو –أيها الشيخ– أن أنسب وظيفة لكم؛ لخدمة الوطن هي أن تشتغلوا بالوعظ والإرشاد! وإذن؛ فإننا نعينكم في وظيفة "الواعظ العام" في الولايات الشرقية، براتب قدره ثلاثمائة ليرة!

واستطاع أن ينهي الاجتماع بسلام..! راضيا بشيء من الهزيمة لأمر ما يفكر فيه!

ثم كانت لي بعد ذلك خلوات، وجلوات.. شاهدت فيها أن قسماً مما ورد عليَّ من الأحاديث النبوية الشريفة في المتن الأصلي لرسالة "الشعاع الخامس" حول الدجاجلة ورؤوس الفتنة بآخر الزمان يكاد ينطبق على هذا

الشخص الغريب! فاضطررت إلى ترك تلك الوظيفة المهمة؛ إذ اقتنعت بأنه من المستحيل التفاهم مع هذا الرجل! ثم نبذت أمور الدنيا والسياسة جانبا، وحصرت وظيفتي في مهمة إنقاذ الإيمان!

وكان ذلك بالنسبة لي لقاء علمني واجب الوقت! ووضعني على بداية الطريق الذي يجب أن يسلكه سعيد الجديد!

ثم أتبعت سببا..!

مقام الغربة!

انطلقت كالحصان الراكض نحو مدينتي المحبوبة "وَانْ"، هناك في أقصى شرق تركيا، حيث مدرستي الأولى "خورخور"، كل شيء يحبني وأحبه، كل شيء يعرفني وأعرفه.. كان الشوق والحنين يغمران وجداني الكسير، ويسليان قلبي عن ظلمات الغربة الثقيلة!.. مسالك الطريق أنس فياض، فقد كان الخيال المتدفق علي بصور أحبتي من زملاء الدراسة وتلامذتي النجباء المخلصين يجعل من سفري جمالا متألقا!..

ولكن ما أن أشرفت على المعالم الأولى لـ"وَانْ" حتى دب الرعب بقلبي..!

رباه! ما هذا الذي أرى؟.. وَيْ! كأنه لا أثر للحياة بهذه المدينة؟ لا حركة وأصوات!..

توجهت مباشرة نحو مدرستي "خورخور" بضاحية المدينة، فرأيت أن الأرمن قد أحرقوها مثلما أحرقوا بقية البيوت المتناثرة هنا وهناك..! ولم يبق منها إلا أطلال حزينة وخرائب تبكي الزمان الذي كان!

دخلت بعض الدروب ألهث كالمجنون، كنت أبحث عن وجه ما أعرفه، ولكن دون جدوى..! رأيت بعض المارة يعبرون المسالك في هدوء جنائزي ثقيل! هذا جيل غير جيلي.. إنه جيل آخر تماما، إنه جيل الهزيمة والانكسار..! فبأي لغة يتكلم يا ترى؟

كنت أظن أنني قد نجوت من الاغتراب حيث رجعت إلى مدينتي، ولكن -ويا للأسف الشديد!- قد دخلت أفجع غربة! وفي مدينتي نفسها! كانت

الصعقة أقوى مما أتصور! فقد وجدت المئات من طلابي وأحبتي الذين ارتبطت بهم روحياً مثل عبد الرحمن وزملائه قد أهيل عليهم التراب وانهارت على أبنائهم الأنقاض! ورأيت منازلهم جميعا قد أصبحت أثراً بعد عين! ثم رحلوا جميعا ليصطفوا بمقابر المدينة الموحشة شواهدَ إدانة قاسية، تطل من عالم البرزخ على هذا الزمان الكسيح! وشعرت أنني قد دخلت مضيقا رهيبا لم أجد منه مخرجا! ورحت هائما بين الحرائق والخرائب على وجهي...!

وبينما كانت روحي تبحث عن نقطة استناد ما؛ إذا بآية من القرآن الكريم تنبعث بقلبي فجأة، وتضخ عليَّ من أفقها العلوي شلالا قويا من الرحمة والحياة! ولست أدري كيف جعلت أتلو بأعلى صوتي كالمجذوب: ﴿سَبَّحَ لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.. وبدأت صورها الحية تتجلى أمامي بوضوح، وتنقذني من ذلك الواقع المرعب الأليم، وتخرجني من ألم الموت والفراق، فاتحةً عيني وبصيرتي على حياة أخرى.. التفتُّ إلى شجيرات تطل عليَّ بأغصانها الغضة من بين الخرائب.. كانت الثمار الجديدة معلقة بأفنانها الطرية، ورأيتها تنظر إليَّ مبتسمة في إشفاق وهي تضمد جراحاتي.. كانت عيون التين والعنب الطري ترمقني بحب عميق وعتاب لطيف.. وانبعثت الخواطر بقلبي قوية ورأيت شفتي رمانة ساحرة تتحركان بالكلمات: "كفى حَزَنَاً يا صاح! كفى..! كفى أسىً وأسفاً..! لماذا تحصر نظرك في الخرائب وحدها؟.. هلاَّ نظرت إلينا نحن أيضا! معشرَ الثمار والأزهار والعناقيد والأطيار، ومعاقد الخمائل والأنداء والظلال ومسالك الجداول والأنوار؟.. هل من التفاتة منك إلينا؟.. هلاَّ أنعمت النظر فينا يا صاح!؟"

ووجدت أن حقيقة هذه الآية الكريمة تنبه القلب بقوة مذكِّرةً إياه قائلةً: لِمَ يُحزنك -إلى هذا الحدِّ البئيس- ضياع رسالة عمرانية كُتبت بيد

الإنسان.. لِمَ تحزن على سقوطها في السيل الجارف من قَدَرِ الله..؟ وقد نزل في صورة "احتلال روسي"، فمحا آثارها وأذهب كتابتها؟ وإنما هي صفحة واحدة. وضياع صفحة واحدة لا يعني ضياع الكتاب كله! فنحن هنا يا صاح!.. ارفع بصرك إلى الله الخالق البارئ المصوِّر -جلَّ عُلاه- رب كل شيء ومالكه الحقيقي، فناصيتك بيده! تدبر! ثم أبصرْ..! فهذه كتاباته سبحانه على صحيفة "وَانْ" لا تزال تُكتب مجدداً باستمرار، بكمال التوهج والبهجة.. إنها الحياة ما تزال تولد من جديد! وأما ما شاهدته من عمران ولّى، ومن حياة غابت وفنيت، وما خلفت من بكاء ونحيب؛ إنما هو بسبب الغفلة عن مشاهدة مالكها الحقيقي! وبسبب هذا التوهم القاتل الظان أن الإنسان هو المالك لها! وإنما هو في الحقيقة مجرد ضيف على هذه الأرض! إنه عابر سبيل ليس إلاّ!

فكان أن انفتح لي -يا ولدي- من تجليات تلك الحال اللاهبة الشديدة، بابٌ لحقيقة عظيمة، تهيأت النفسُ لتقبلها تحت وطأة الألم، كالحديد إذ يُدخل النار فيلين، ويعطى له الشكل المرغوب النافع. كذلك لانت نفسي الحزينة واستسلمت للقدر العظيم. بفضل آية من القرآن الكريم، وما كان لها على القلب من تجليات!

مقام الهجران..!

حكاية..

ذات يوم رجلاً عليه سيماء العلم يقدح عالما آخر، بتعصب شديد حتى بلغ به الأمر إلى حد تكفيره! وذلك لخلاف ناشئ بينهما حول أمور سياسية! بينما رأيته قد أثنى -في الوقت نفسه- على أحد المنافقين ممن يوافقه في المذهب السياسي!. فأصابني من هذه المشهد رعب شديد! وانفجرت ببدني رجفة مزلزلة، واستعذت بالله مما آلت إليه السياسة في هذا الزمان! ولم أدر كيف فاض قلبي بهذا الدعاء.. قلتُ:

"أعوذ بالله من الشيطان ومن السياسة!"

كلمة صارت لي دعاء ومثلا، أردده كلما وقفت على مثل هذا المشهد الرهيب! ومن ثَمَّ انسحبت من ميدان الحياة السياسية! وتفرغت لخدمة القرآن الكريم؛ فدخلتُ بذلك الحياةَ من بابها الأوسع! لقد خرجت من حياة الشك إلى حياة اليقين؛ فوجدت ما أريد كاملا غير منقوص!

لقد وجدتني -يا ولدي- أتقدم في العمر وأستجيب رغم أنفي لِلَهيب الشيب، ولست أدري كم سأعيش بعد هذا السن! إنْ كان لي بعده من عيش! لذلك قررت العمل لحياة أبدية! وبما أن الإيمان هو الوسيلة للفوز بالحياة الأبدية والمفتاح الوحيد لدار السعادة الخالدة؛ قررت أن أجتهد لاكتساب أعلى مقاماته!

ومن هنا كان الاشتغال بألاعيب السياسة مقامرة خاسرة! بل إنها ضرب

من الجنون! ولست مستعدا أن أقامر بمصيري الأخروي ومآلي الأبدي! وأنا الآن في زمن الشيخوخة!

قال لي:

– أمَّا إن قلت: كيف تمنعك خدمة القرآن والإيمان عن السياسة؟

– فأقول: إن الحقائق الإيمانية والأنوار القرآنية ثمينة جدا، وغالية مثل جواهر الألماس! فلو انشغلت بهذه السياسة، لخطر بفكر العوام أنما أريد أن أجعلهم منحازين إلى حزب سياسي! ولقالوا: إنما هذا الذي أقوم به دعاية سياسية نفعية؛ لجلب الأتباع وخداع الرعاع! ويكونون بذلك قد حكموا ظلما على تلك الجواهر النفيسة بأنها مجرد قطع من الزجاج التافه! وحينها أكون أنا قد ظلمت حقائق القرآن! وبخستها قيمتها الثمينة!

فيا أهل الدنيا! لِمَ تضايقونني؟ ألاَ دعوني وشأني! فما أنا منكم ولا أنتم مني، ولست لكم بمنافس! فقد وجهت وجهي للحياة الآخرة!

قال لي: لقد خاض "سعيد القديم" غمار السياسة نحو عشر سنوات! كان يقول: لعله يخدم الدين والعلم معا عن طريقها..! ولكن هيهات! لقد ذهبت محاولته أدراج الرياح..! فما كان للخداع والأكاذيب أن تكون مفاتيح لأبواب الخير أبداً..!

وتلك أسهل وسيلة لوقوع الفضلاء السذج في شرك الشطرنج! أعني أن يصبح السياسي مجرد آلة مستعملة بيد الأجانب، يخربون به البلاد والعباد وهو لا يدري! وهذا باب الولوج إلى مستنقع آلاف الآثام والأوزار! لأجل ذلك فقد ترك "سعيد القديم" السياسة ومجالسها الدنيوية، كما ترك إدمان قراءة الجرائد والصحف..!

فإلى الجبل بعيدا عن هدير الفتن ودخانها!

....

وهناك في جبل " أرك " المنتصب بضاحية "وان" كانت لنا تأملات في الكون والحياة مع ثلة من الطلاب النجباء.. وكانت لنا بذلك أزاهير من نور القرآن.. ونشطت في التربية والتعليم لطلابي، إعدادا لربيع جديد..

حكاية أخرى

"المُلاَّ حميد" أحد تلاميذ بديع الزمان، تخرج على يديه في جبل "أرك"، تذكر شجونه فبكى، ثم استنشق نفَسا عميقا وبدأ يحكي:

..كنت أنشرح كثيراً عندما أصلي مقتدياً بالأستاذ، كان قيامه للصلاة يزيد الإنسان رهبة وخشوعاً.. وكان يرشدنا إلى أن التسبيحات والأذكار عقب الصلاة إنما هي بحكم نوى للصلاة وبذور لها.. كان يسبح الله بصوت رخيم حزين، فعندما يقول "سبحان الله.. سبحان الله" كنا نسمعه يصدر على مهل من أعمق أعماق قلبه..!

إنني لم أرَ قط مثل الأستاذ بديع الزمان! ما رأيتُ من كان يصلي ويسبح بمثل تلك الرهبة وبمثل ذلك الخشوع! مع أنني رأيت كثيراً من الشيوخ والعلماء.

عندما كان يقول: "لا اله إلاّ الله" ويبدأ بالتسبيحات، يصبح صوته كفرقعة مدفع في قوته وشدته! رغم أن جهره ما كان إلا هادئا منخفضا. وإنما عمق مخارج مواجيد الأذكار يجعل صدره يهتز كالبركان! فيكتسب صوته صدى البحر المتلاطم على ضفاف قلبه!

كان يقوم لصلاة التهجد كل ليلة.. وكنت أحياناً أراه وهو يصلي فلا أستطيع النوم، وعندما كان يراني مستيقظاً يقول:

- ما دمت مستيقظاً فتعال شاركني في الدعاء..

ولكني كنت لا أحفظ أي دعاء، فكان يقول لي:

- سأدعو أنا وقل أنت بعدي: آمين..

وكنت أغفو أحياناً في أثناء الدعاء فكان ينظر إليّ بإشفاق ويقول:

- لقد كنتُ أنا أيضاً مثلك، فاصبر إنك ستتعود..!

لقد كانت أيامنا بذلك الجبل الجميل مدرسة أرقمية لا تنسى.. نتنقل خلالها بين ساعات للدرس، وساعات للذكر والصلاة، وساعات للتفكر والسياحة بين الشعاب والأشجار..!

فعلى جوانب نبع "الزرنباد" الصافي القريب، المتدفق بسخاء بين الصخور في مكان كثيف الأشجار، صنعنا للأستاذ بين الخمائل العالية منصة خشبية؛ كي يجلس عليها.. أما نحن فكنا نجلس على الأرض تحت الظلال..

كانت المنصة تطل على بحيرة "وان" الكبرى، بصورة تستوعب مشاهد شتى.. إذْ يرقب الناظر منها مشهد العبّارات والزوارق وهي تعبر الهوينى إلى مختلف القرى الرابضة على الجزر والضفاف، ويستشرف آفاق السهول الممتدة على سفح جبل "أرك" العظيم.. كان مشهد البحيرة يستهوي الأستاذ كثيرا.. فهي أعظم بحيرة بتركيا على الإطلاق، حتى إن الأهالي في المنطقة الشرقية يسمونها "بحرا"! ولذلك فقد كانت تلك المنصة هي محرابه المفضل لأداء مناجاته وأذكاره. كان يجلس فوقها جلسة التشهد في الصلاة، وغالبا ما كان يطيل الجلوس على هذه الهيئة؛ حتى تقرحت إحدى أصابع قدمه..!

"ملا رسول" تلميذ النورسي، رجل مكتهل، أكبر من الأستاذ قليلا.. كان ذات يوم منهمكا في إيقاد الحطب بالموقد للاصطلاء وصناعة الشاي.. ناداه الأستاذ لمداواة إصبعه بمرهم كان عنده، فجاء تملؤه الحيوية والنشاط، وبينما هو يعالج إصبع أستاذه التفت إليه قائلاً:

- يا أستاذنا المحبوب! إنك تقسو على نفسك كثيرا! إننا نحن أيضاً نخشى الله تعالى ونخافه، ولكنك أنت ترتعد من خشيتك حتى تكاد مرارتك تنفجر..! فلو كنت تخلد إلى الراحة أحيانا لما تقرحت إصبعك!

فأجابه قائلاً:

- ملا رسول! ملا رسول! لقد جئنا إلى هنا لكي نظفر بحياة أبدية خالدة، بهذا العمر القصير والدنيا القصيرة. أأعيش هنا كيفما أشاء ثم أطمع في الجنة؟.. لا يجوز هذا أبداً...! لا أجرؤ على العيش كما أهوى!

كان الأستاذ لا يصرف وقته سدى، فلا أراه إلا قائماً يصلي، أو داعياً متضرعاً، أو مسبحاً ذاكراً، أو متأملاً في ملكوت السموات والأرض.. وربما زاره بعض المحبين، فكان يأخذ معهم بأطراف الحديث، وأول ما يبادرهم بالسؤال:

- هل من مسجد في قريتكم؟ وأي درس يدرسه أئمة المساجد؟ فإذا أجابه الزائر بأنه ليس لديهم مسجد ولا معلم يعلمهم كان يتألم كثيراً ويحزن! ويعجب من أمرهم كيف يعيشون في مكان ليس فيه مسجد ولا مرشد؟!

وكان لا يسمح لأي أحد بأن يغتاب أحداً عنده، ويغضب من ذلك كثيرا..!

مقام الاغتيال

الخلافة الإسلامية وحكاية النهاية..!

قال لي:

عندما توفي السلطان محمد رشاد -رحمه الله- سنة: ١٩١٨م، تولى السلطان محمد وحيد الدين -الشقيق الثالث للسلطان عبد الحميد الثاني- منصب الخلافة. فمكث في إسطنبول بعد احتلالها من قبل الإنكليز. وفي فاتح نوفمبر ١٩٢٢ أعلنت حكومة أنقرة بقيادة مصطفى كمال إلغاء النظام السلطاني! فانتهت سلطنة وحيد الدين رسميا، لكن مع بقاء خلافته! فطلب من القيادة البريطانية الإذن لمغادرة البلاد! فخرج من اسطنبول إلى "مالطا"، ومنها إلى الحجاز، ثم إلى "سان ريمو" في إيطاليا، حيث توفي هناك -رحمه الله- يوم: ١٥ ماي ١٩٢٦م عن خمس وستين سنة. وقد أوصى أن يدفن في وطنه، إلا أنه كان قد وُضِعَ حظرٌ قانوني - من قبل حكومة أنقرة - على جميع آل عثمان. فطلب أن يدفن في بلد إسلامي على الأقل! وكانت رغبته أن يدفن في دمشق بمقبرة صلاح الدين الأيوبي. عاش محمد وحيد الدين في المنافي وحيدا فقيرا، وبعد وفاته وقع حجز على جثمانه من قبل أصحاب الديون! وعندما علم بذلك رئيس سوريا "أحمد نامي بك" أدى جميع ديونه، واستقدم جثمانه إلى دمشق، إلا أنه لم يكن مكان في مقبرة صلاح الدين، فدفن في حظيرة التكية السليمانية.

عندما أُلغي الحكم الملكي وغادر السلطان وحيد الدين البلاد، كان ولي

العهد آنذاك هو عبد المجيد أفندي، الذي أيد المقاومة الوطنية؛ فاضطر مجلس الشعب التركي -الذي أسسه مصطفى كمال في أنقرة- إلى الإعلان عن خلافته في ١٨ نوفمبر ١٩٢٢م ولكنها خلافة بلا سلطنة! أي أنها تسود ولا تحكم!

حتى كان يوم المأساة الكبرى: ٣ مارس ١٩٢٤م/١٣٤١هـ، ذلك اليوم الحزين في تاريخ الأمة الإسلامية! حيث أصدر مجلس الشعب التركي - بقيادة مصطفى كمال- القرار التاريخي الرهيب بإلغاء الخلافة الإسلامية! رمز وحدة الأمة وجامع شخصيتها الكلية. فتم نفي كافة أفراد آل عثمان إلى خارج البلاد. ونُفي الخليفة الأخير عبد المجيد أفندي إلى سويسرا، ثم إلى باريس حيث توفي هناك رحمه الله عام: ١٩٤٤م. وقد أوصى أن يدفن في اسطنبول، لكن رغم كل المحاولات لم يتم هذا، فحنط جثمانه وحفظ في حجرة خاصة بمسجد باريس لمدة عشر سنوات كوامل! وفي عام ١٩٥٤ وبعد وساطات أخرى نقل جثمانه إلى المدينة المنورة ودفن بها.

قال لي: عندما انهار سور الخلافة الإسلامية الكبير فتمزقت الأمة الإسلامية شذر مدر، وشرعت ذئاب الاستعمار في تقسيم تركة "الرجل المريض"؛ كنت ما أزال بمعتكفي في جبل "أرك"؛ فأحسست بقدميَّ تغوصان في صخره العاتي، وبقممه العالية ترتعد من حولي..! كان الألم يعتصر فؤادي العليل.. فلاحظ تلامذتي اصفرار وجهي وارتجاف أطرافي، فاستفسروا عما بي، فقلت مرة أخرى: سحقتني آلام أمتي الحزينة!

وانتصبت رؤيا جبل "آرارت" أمامي.. تلك التي رأيتها قبل عشر سنوات! وسمعت الصرخة القوية تخترق أذنيَّ مرة أخرى:

- يا سعيد..! بَيِّنْ إعجازَ القرآن..!

كان الانفجار العظيم قد تأول بهزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية

الأولى واحتلال الإنجليز لإسطنبول! فأجبت النداء وكتبت "الخطوات الست"، وكان من أمرها ما كان! ثم ها هو ذا يتأول مرة أخرى بسقوط الخلافة الإسلامية وتمزق وحدة الأمة، وانتشار الزندقة والإلحاد في كل مكان!.. والأمر أن أتولى أنا الدفاع عن حقائق القرآن العظيم!.. كانت شخصية "سعيد الجديد" قد اكتملت صورتها في كياني؛ فعلمت أن هذا أوان الخروج..! ثم وضعت سبابتي في التراب أرسم معالم الطريق..!

مقام الاحتراق..!

في سكون ذلك المعتكف المنـزوي بعيدا عن الحياة السياسية -بجبل "أرك"- وصلني خبرٌ لاهبٌ رهيب!.. لقد كانت الثورة تندلع في الولايات الشرقية، بقيادة الشيخ "سعيد بيران"! ولم نلبث إلا قليلا حتى جاء رسولُه إلينا يطلب استغلال نفوذنا لإمداد الثورة! فكان السؤال عندي دائما هو: لحساب من؟ ومن المستفيد الحقيقي من هذا كله؟ فهذه -في جميع الأحوال- دماء المسلمين! ولذلك رفضت المشاركة! وكتبت إلى الشيخ بيران رسالة جاء فيها:

"إن ما تقومون به من ثورة تدفع الأخ لقتل أخيه ولا تحقق أية نتيجة! فالأمة التركية هي رافعة راية الإسلام وقد ضحَّت في سبيل دينها بمئات الألوف بل بالملايين من الشهداء، فضلاً عن تربيتها ملايين الأولياء، لذا لا يستل السيف على أحفاد الأمة البطلة المضحية للإسلام، هذه الأمة التركية! وأنا أيضاً لا أستله عليهم".

كان مقر إقامتي بجبل "أرك" عبارة عن صومعة قديمة خربة.. هناك جعلت أعيد ترتيب أفكاري مع طلابي.. وبينما نحن على تلك الحال إذ وقف علينا ثلاثة فرسان يمتطون خيولا أصيلة.. كان يتوسطهم رجل مهيب طويل القامة، عظيم الهيئة..! إنه حسين باشا شيخ عشيرة حيدران..! فما الذي جاء به؟

قال لي: ربط الفرسان خيولهم بالأشجار الموجودة في باب الصومعة، ثم دخلوا عليَّ، فألقوا السلام، واقتربوا مني في أدب جَمٍّ حتى قبَّلوا يدي، ثم

جلسوا أمامي.. كان حسين باشا مهيب الهيئة، متقلداً شارات وميداليات خاصة بالباشوات في ذلك الزمان.. أخرج منديلاً فيه ما يقدر بنصف كيلو من الذهب! ووضعه على الأرض بين يديَّ..! ثم نظر إليَّ كالمتوسل..! عجبتُ من تصرفه ذاك، وعلمت أن وراءه أمراً.. بادرته بالسؤال بنوع من الحدة؛ لأستخرج ما عنده من مخبوء الغايات، قلت:

- ما هذا..؟

قال:

- فداك روحي، إنها زكاتي جئت بها إليكم، أخرجتها من خالص أموالي!

قلت:

- ألم تجد أحدا ممن حولك يستحقها؟ لا أحد من أقربائك؟ ولا من قريتك حتى أتيت بها إلى هنا..؟

قال:

- سيدي.. إن أقاربي ومن حولي كلهم أغنياء، لا فقير فيهم، فرأيت أنكم الأحق بها!

قلت:

- لا يجوز نقل الزكاة من بلادها..! فلِمَ أتيت بها وقد تجاوزت كثيراً من القرى والأرياف وهي ملأى بالفقراء والمساكين!

قال:

- يا سيدي..! أرجوك! تقبل بضع قطع منها على الأقل.. وأنفقها على من معك من الطلاب..!

قلت:

- كلا! كلا..!.. لا حاجة لنا في الزكاة..! اجمع أموالك مشكورا يا باشا..!

كان وجه حسين باشا يتصبب عرقا، وكانت الدهشة تـزرع عينيـه.. وارتبكت الكلمات في فمه قليلا ثم انحبست! فما كان منه إلا أن انحـنى إلى الأرض يجمع قطع الذهب الواحدة تلو الأخرى.. حتى إذا فرغ رفع بـصره إليَّ كالمتوسل مرة أخرى، فقال:

– سيدي..! أود أن أستشيركم في أمر خاص، وأرجو أن تأذن لطلابك بالخروج؛ لأني أريد أن أتحدث معكم حديثاً خاصاً على انفراد.

قلت:

– لا يمكن.. فهؤلاء الطلبة جزءٌ من كياني، إنهم لا يفارقونني على كـل حال..! فأفصح عما عندك.. وقل ما تريد!

قال:

سيدي! أرجو أن تأذن لنا بالتمرد! إننا نريد الخروج مع الشيخ "سـعيد بيران" إلى الثورة! فنحن مستعدون!

رفعت رأسي نحوه ثم ركزت بصري في وجهه وقلت:

– لِمَ تقومون بالتمرد؟ إنْ كان لزيدٍ أو لعمروٍ ذنبٌ فما ذنب غيرهما؟.. لماذا إهدار دماء المسلمين؟

فأجاب بصوت يشبه البكاء:

– لقد أهلكنا الروس يا سيدي! إنهم قد قتلونا وأبادوا أموالنا وذرارينا، ولكن مع ذلك ظل شرفنا مصاناً ولا مسَّه من أحد بسوء..! أمـا الآن يـا سيدي فقد أصبح ديننا مهدداً، وصار شرفنا معرضاً للهتك..! كيف الصبر على مثل هذا المصير الرهيب المخزي؟ فأْذَنْ لنا يا سيدي بالتمرد! ائْذَنْ لنـا بالثورة! إن جنودنا سواء منهم المشاة أو الفرسان كلـهم علـى اسـتعداد للخروج..!

أنصتُّ إليه باهتمام عميق، وأنا مطرق الرأس، ساكن الأعضاء.. وما أن سكتَ حتى رفعتُ رأسي نحوه مرة أخرى والأسى يجرح قلبي، ثم قلت لـه بصوت يغمره اللطف وتـثقله الشجون:

– ومن ستقاتلون يا باشا؟

أجاب على الفور:

– مصطفى كمال!

فبادرته:

– ومن هم جنود مصطفى كمال؟

فاضطرب الباشا.. قليلا ثم قال:

– جيش الدولة، الجنود..!

فقلتُ معقبا:

– ومن هم الجنود؟ أليسوا أبناء عشيرتي وأبناء عشيرتك؟ أليسوا مسلمين؟

أطرق الباشا فلم يرد بشيء.. ثم استأنفت الكلام محافظا على نبرة صوتي الهادئ:

– يا باشا..! إن الثورة شر..! ولقد سبق أن أرسلت رسـالتي إلى الـشيخ سعيد بيران وبينت له فيها موقفي..! هذا ليس بحل وإنما هو تمديد لعمر الظـلام لو تعلمون! ثم إن هذا الجيش الذي ستقاتلون إنما هو جيش الدولة العثمانية فيه رجال صالحون، وفيه مسلمون مغفلون..! والأمة هي الخاسرة على كل حال، سواء انتصرتم أنتم أم هم الذين انتصروا! إنني يا باشا لست منكم ولا منهم..! إن لي عملا آخر أراه هو الأجدى!

قال:

– يا أستاذ لقد أوهنت عزيمتي وأطفأت همتي..! فلو عدتُ إلى عـشيرتي فسيقولون: جبن الباشا فتخلى عن الثورة..!

قلت له بنوع من المواساة:

– نعم، ليقولوا اليوم "جبن وخاف"، خيرٌ من يقولوا غداً: "أراق الدماء وقتل الأبرياء..!"

قام الباشا مثقلا بالغم والهم لا يدري ما يصنع ولا ما يجيب به! ثم ودعنا وخرج مطرق الرأس كاسف البال.. فأتبعته بصوت قوي محذرا:

– لا ترق الدم يا باشا..! لا ترق الدم..! لا ترق الدم..!

* * *

عاد حسين باشا إلى بلدته ثم فرَّق قواته، ولم تحدث أي حادثة في منطقة "وان" وحفظ الله العشيرة من شر الاقتتال!

ولكن الفتنة عصفت بالبلاد والعباد على إثر اندلاع الثورة في الولايات الشرقية! وتقدمت جيوش الحكومة تحاصر العشائر الثائرة وتحرق الأخضر واليابس وتدمر كل شيء..! وبعد فشل الثورة واندحار قواتها أُعْدِمَ قائدها الشيخ "سعيد بيران" رحمه الله..! ثم بدأت حملة الاعتقالات في صفوف كل من اشتبه فيه أنه ساند الثورة، ولو بإشارة.. ورغم الموقف العلني الواضح الذي عُرف به الشيخ سعيد النورسي فقد كان من أول المعتقلين..! وحشرته الحكومة مع رؤساء العشائر والمشايخ، وأصحاب النفوذ في الولايات الشرقية الثائرة، ثم نفتهم جميعا إلى غرب الأناضول! و....

وكان اندلاع الحريق...!

مقام الدخان

كانت الغابات كلها تشتعل نارا..! وكانت المأساة.. الطيور تتطاير أجسامها الصغيرة في الهواء، ما بين شظية ملتهبة وكتلة متفحمة استنفدت النار منها أغراضها فهوت بها الريح قَشَّةً حارةً بين الشعاب والوديان...! يا الله! ما أحزن هذا الزمان وما أشده! فلا زقزقة ولا تغريد إلا زمجرة الجحيم تلتهم الحياة..! وها كل شيء يموت.. فمن لم يمت محترقا بنار المحن مات مختنقا بدخان الفتن..!

ودخان هذا الزمان يا سادتي عاصف رهيب.. دخان أتى على كل شيء في البلاد شرقا وغربا..! دمر حقائق الإيمان، وعصف بأركان الإسلام..! فقد وضع أشباح الظلام العديد من القوانين، واتخذوا الكثير من القرارات؛ لقلع الدين من جذوره، وإخماد جذوة الإيمان في قلب الأمة التركية، التي رفعت راية الإسلام عالية في العالم طوال ستة قرون من الزمان!.. مُنع تدريس الدين في كل المدارس، وبُدِّلت الأرقام والحروف العربية في الكتابة وصيرت إلى الحروف اللاتينية! ومُنع الأذان باللغة العربية، وكذا إقامة الصلاة! وجرت محاولات رهيبة لفرض التعبد بتلاوة الترجمة التركية للقرآن الكريم!

وأُعلنت علمانية الدولة، علمانية كالحة جاحدة! علمانية حرمت المستضعفين من الماء والهواء ومن حق البكاء..! غلقت أبواب المواجيد الجميلة وكسرت منابر النور، ووأدت قصيدة الشعر في مهدها! ثم غلقت العيون قهرا على ظلام شديد تحت سقف من حديد، ومُنِعَتْ من النظر إلى السماء..! التهمت ثعابينها كل مياه البحر، وحجبت راياتها السوداء شروق الشمس! ثم...

ثم خرجت القوانين على الناس تترى.. مُنعت عبادة الله الواحد القهار في الأرض! ومُنع القيام بأي نشاط إسلامي، ثم حُظر طبع الكتب الإسلامية والعربية، وأُرغم الشعب على تغيير الزي الإسلامي والعدول عنه إلى الأزياء الأروبية.. فليس للرجال من اللباس إلا القبعات الغربية والمعاطف الرومية والبنطلونات! وحُصدت العمائم برؤوسها من كل الشوارع والدروب! وتدحرج الإيمان مخضبا بدمائه يئن أنينا ما يزال البوسفور يردد صداه الشجي إلى اليوم! ولم يبق للنساء بعد ذلك إلا أكسية كاشفة عارية.. فليركض السفور والعري في كل مكان..! ولتمض أخلاق الحياء إلى متاحف الشعوب البائدة!

ثم شُكِّلت محاكم زرعت الخوف والرهب في طول البلاد وعرضها! ونُصبت مشانق في كل مكان، علق عليها آلاف العلماء! حتى إن منهم من شنق على أعمدة الكهرباء في الشارع العام..! فرحل كثير من العلماء والأدباء إلى مصر والشام، مفضلين حياة المنفى على لبس القبعات..! فساد جو من الذعر وحالة من الإرهاب في أرجاء البلاد.. حتى صار الناس يخفون نسخ المصاحف التي عندهم عن أنظار موظفي الدولة..! ونشطت الصحافة في نشر الفسق والفجور والأخلاق الساقطة، وإعلان الاستهزاء بالدين والسخرية من حقائق الإيمان! فانتشرت كتب الزندقة والإلحاد في كل مكان..!

وشرع طابور من المعلمين والأساتذة -تخرج من معاهد حديثة لهذا الغرض- يحاول مسح كل أثر للإيمان في قلوب الناشئة من التلاميذ والطلاب الصغار.. فلا درس لتفسير الحياة والوجود إلا الفلسفة المادية، وسفسطة إنكار الخالق -جل علاه- وإنكار النبوة والبعث بعد الموت، وكل حقائق اليوم الآخر والمعاد..!

كل شيء ممنوع ممنوع.. ولا أن تبوح بآه!

حكاية

"قارا علي" جلاد بليد.. كان واحدا من زبانية الطغاة.. قاء يوما خمره على مائدة اللئام؛ فكانت لقطة من فضائح خفافيش الظلام، قال:

علّقتُ بيدي على المشانق خمسة آلاف ومائتين وستة عشر شخصاً..! في الاثنتي عشرة عاما الماضية![1] ووصف كاسِرٌ آخرُ الأعمال الجارية في شرقي الأناضول: لقد التجأ ما يقرب من ألف وخمسمائة "شقي" إلى مغارات جبل آرارات، وألقت طائراتنا قنابل مكثفة عليهم، فكانت الانفجارات مستمرة حتى "طهرت" تلك البقاع من "العصاة"، إذ أحرقت جميع القرى التي التجأ إليها "الأشقياء"، وامتلأ وادي زيلان بجثث الذين أبيدوا.. والبالغ عددهم ألفا وخمسمائة شخص..![2]

وسكتت الدنيا كلها على جرائمهم.. ولكن؛

ارفع رأسك نحو السماء يا ولدي عاليا، حتى إذا خرقتْ أذناك حجب الصوت البشري فأنصت!

كانت الرياح تفجر عويلها الرهيب بين شماريخ الجبال، وتنطلق نادبة حظ هذا الزمان الحزين، فتفزع لهولها الأشجار والأطيار، وتغمر النوارس الشطآن بالشهيق، مآتم رهيبة تهيج الأحزان والأشجان.. ثم تعزف الأمطار من نشيجها العميق جذبة الدرويش، وتضرب الرعود والبروق قلب البحر؛ فللأمواج في الشطآن والخلجان لون الدم!

(١) صحيفة "صون بوسطة" في عددها الصادر في ٣/ ٣/ ١٩٣١.
(٢) صحيفة "جمهوريت" في عددها الصادر يوم ١٦/ ٧/ ١٩٣٠.

ولم تزل يا سادتي مرثية السلام ترتل قصيدها الشجي، شهقةً فشهقةً، ما بين "نُورس" و"بارلا"، وما بين "إزمير" و"اسطنبول"! ولم تزل حناجر المآذن تستغيث! ولم تزل قبابها تردد النشيج، تُخَزِّنُ الأصداءَ في أعماقهـــا، تنتظـــر الفتى الذي يفك لغزها، ويقرأ في صلاة الليل سرها، ثم يطلق الخيـــول مـــن عقالها.. ويبدأ الصهيل!

أتسمع يا ولدي؟

هذه القلوب المتوضئة اليوم تسمع كل شـــيء.. والـــصم وحـــدهم لا يسمعون!

* * *

رفعت بصري عاليا، فرأيته يحمل زاده الصغير على كتفه، ويرمي بعصاه القديمة بين الأحجار، حتى إذا علقت قليلا أسند إليها شيخوخته العليلة فخطا إلى الأمام. وخطوة فخطوة كان يمضي نحو الجبل وينظر إلى أعلى!

ناديته بأعلى صوتي: إلى أين يا سيدي؟

وأجاب دون أن يلتفت إلي:

- هذا زمان الصمت يا ولدي.. فإلى "بارلا" منفـــى الأرواح الحزينـــة والأشباح الكليمة! إلى بارلا؛ عسى أن أتعلم من أشجارها لغة الـــصمت، وأتلقن من هداهدِها منطق الطير!

وانتفضت يا سادتي مذعورا، فهتفت كالمستغيث:

- سيدي..! ألا تنتظرني؟

ووقب الليل فجأة على الجبال؛ فلم أدر أحجبه عني أم حجبني!

الفصل السادس

منفى "بارلا" مولد النور والجمال..!

"بارلا" يا سادتي قرية جبلية صغيرة، معزولة عن ضجيج العالم، لم تـــزل مجهولة في جمالها البكر، متخفية بين قرى ولاية "إسبارطة"، في الجنوب الغربي من بلاد الأناضول.. متحصنة بين جبال "طوروس" الغابوية.. تطـــل علـــى بحيرة "أكريدر" البرية ذات المياه العذبة، والأسماك البلورية الجميلة.. بـــارلا هذه العذراء ذات الجمال الخارق، تكتسي ما بين الفصول أحوالا من السناء والبهاء.. تشرب العين منها لذة الوجد، وتشاهد فيها تجليات الروح! ففـــي الشتاء تتنـــزل حلل الثلوج على القمم الشاهقة، وتطرز نقشها البراق على صدر غابات الصنوبر وأعطاف البساتين! ثم تنفح رياحُهـــا البـــاردة ميـــاهَ البحيرة فتجعل صفحتها الصافية جليدا جميلا، كلما أشرقت عليه الـــشمس عكس منها آلاف الشموس والشعاعات، فصار الفضاء مهرجانـــا للأنـــوار المتجلية بكل ألوان الطيف!

حتى إذا بدأت رياح الربيع بعزف أغاريدها، هيجت مواجيدَ الثلـــوج، فاستجابت لأشواقها، وبدأت جوانحُها تـــذوب في الجـــداول والغـــدران! وتتفرق سيولها من هنا وهناك، لترتمي جميعُها على صدر البحيرة العـــريض، لقاءً أبديا يُخَلِّدُ أروعَ قصص الحب العذري!.. وإذا بالمياه الجديدة الحاملـــة لحرارة الوجد الربيعي تذيب ما بقي من قطع الجليد الطافية على سطح الماء.. فتخرج الأسماك مرة أخرى من أعماقها الدافئة، تداعب صفحة الماء بأذيالها

حينا، وبرؤوسها أحيانا أخرى.. لترسم لمعاتٍ وومضات من رسائل النور، ثم تغطس نحو الأعماق.. وتتحرك الأمواج الصغيرة بهدوء رتيب، تلاطف جزيرتي: "جان" و"نيس" الساحرتين، ترمي أشجارها برذاذها، فتتزين الوريقات والأغصان الصغيرة بالخضرة والأنداء؛ استعدادا لأعراس الطيور القادمة من كل مكان.. وتعود الطيور إلى أوكارها؛ لتبني أعشاش الحب بين أحضان البساتين المتناثرة هنا وهناك.. وتبدأ الأعراس.. فإذا الزقزقات والتغاريد تملأ الشعاب والوديان بتلاحينَ تترنح لها الأشجار طربا! وتصرع أبدعَ السمفونيات البشرية مِزَقاً..! فلا تستطيع المعازفُ ولا المقامات ترتيبها من جديد!

حتى إذا نضجت فاكهة الصيف تدلت العناقيد من أعالي البساتين المرتفعة، عيونا تشف عن لعاب الحور، وانتثرت أسراب النحل بين عرائس التين والخوخ والمشمش والرمان، تحمي الحريم من أصابع الفضول بكل النوافذ والأبواب.. وتدفقت المنابع والعيون الباردة بين الصخور، فمضت سيولُها الصافية منحدرة نحو السفوح، تُوَقِّعُ بخريرها أغرودةَ الشوق إلى بحيرة أغريدر..!

أما لوحة الخريف فلها شأن آخر..! إذْ تندفع خيول الفلاحين والأبقار نحو السهول والبساتين، الممتدة على ضفاف البحيرة العظيمة، وترتفع الأهازيج البدوية مرنِّمة أفراحَها على وقع الحوافر والأظلاف، وهي تجر المحاريث والعربات.. وبين الفينة والأخرى تُلقي الريحُ بين أرجلها أوراقَ الأشجار اليابسة، فَتُحْدِثُ خشخشةً لطيفةً، تمتد أصداؤها على طول الطريق الصخرية المنحدرة إلى السهول..

"بارلا" هذه القرية العذراء، ظل جمالها الخارق سرّاً مهملا حتى اكتشفته عين بديع الزمان؛ فكان لها شرف الاحتضان لفارس النور؛ وصار لها بعد ذلك شأنٌ آخر.. فلنصغ للحكاية!

"شوكت دميرآي" -يا سادتي- دركي من جنود الدولة، كان قدره أن يكلف بنقل الأستاذ النورسي إلى ناحية "بارلا".. فكانت تلك الحادثة قصةً لم ينسها قط!

حكاية..

كُنتُ في مدينة "أغريدير" عندما استدعوني إلى مركز البلدية صباح فاتح مارس ١٩٢٧م.. فلما ذهبت وجدت هناك القائمقام، ورئيس الدرك، مع أعضاء هيئة البلدية، وشخص غريب معمم، يلبس جبة بسيطة، وله هيئة وقورة.

خاطبني رئيس الدرك قائلاً:

– اسمع يا بني..! عليك أن تأخذ شيخنا هذا بديع الزمان إلى قرية "بارلا".. إنّ وظيفتك هذه مهمة جداً فانتبه! وعندما تسلمه إلى المخفر هناك اطلب توقيعا رسميا على أوراق التسليم، ثم أخبرنا بذلك.

وأدركني وجل لا أدري حقيقته بالضبط، فقد قمت مرارا بحراسة مطلوبين أو بالقبض عليهم، ولكن منظر هذا الرجل أربكني..! نظراته القوية تتدفق بسر ما، وقسمات وجهه الهادئ تعبر عن شيء ما، ما كنت أدري ما هو، ولكني شعرت بعمقه وعظمته! وللتو شعرت بالإثم يجرح وجداني وأنا أتخيل أنني أقتاد الرجل أسيرا بين يدي! وصرخت في أعماقي صراخا نفسانيا:

– أي مصيبة هذه حلت بي اليوم؟ ولكنني ربطت جأشي، وثبت لساني؛ فلم أنطق من ذلك بشيء! وأجبت رئيس الدرك:

– حسناً يا سيدي!

ثم خرجت مع الشيخ والصمت يثقل خطواتنا، وفي الطريق لم ألبث أن قلت له كالمستغفر:

– يا شيخنا أنت بمثابة والدي وإن هذه وظيفة كُلِّفتُ بها كما رأيت، فلا تؤاخذني..! فأجابني بنظرة عميقة تملؤها الشفقة وتفيض بالمحبة، فغمرت قلبي بالأمان!

...كان الفصل شتاء، البرد الشديد يُقَرِّسُ كل شيء.. ومياه البحيرة التي تفصلنا عن "بارلا" متجمدة هنا وهناك، وكانت هي معبرنا الرئيس إلى القرية، وكان أحد جذافي القارب في الأمام يكسر الثلوج بعصا طويلة، لفتح مسلك للقارب وتيسير حركته فوق الماء.. والآخر بالخلف يجذف الماء ويدفع القارب بقوة.. وكنت أنا والشيخ جالسين في الوسط.. وبعد قليل بدأ بتوزيع بعض الزبيب علينا وبعض قطع الحلوى.. كنت أتفحصه بدقة، وأحاول قراءة أسراره بلا جدوى، لقد كان أعمق من أن تُقرأ نظراتُه أو قسماته! كان يتأمل البحيرة بهدوء، والجبال المحيطة بنا.. ينظر إلى الأفق حينا ثم إلى الماء أحيانا أخرى.. ثم يطرق برأسه قليلا كأنما يقرأ في كتاب.. وكنت أتساءل في نفسي: ترى أي رجل هذا؟

ثم لم ندر كيف أزف وقت العصر؟ فقد ذبلت الشمس بسرعة من يوم شتوي قصير.. وما يزال القارب يلهث سابحا بين قطع الثلج، مصطدما بهذه تارة وبتلك تارة أخرى.. وفجأة وقف بديع الزمان وسطنا، وجعل يهمهم بكلمات، ففهمت أنه يتهيأ للصلاة!.. فولينا القارب تجاه القبلة.. ورأيت الرضى ينتشر على قسمات وجهه، ثم رفع يديه حذو منكبيه، وما لبث أن سمعت صوتا رهيبا ينطق بقوة:

– الله أكبر!..

لم أكن قد سمعت في حياتي كلها تكبيرة بهذه الرهبة! فقد ارتدت أصداؤها العميقة تيارا كهربائيا يغوص في كل كياني، وانتصب الشعر في كل جسدي كالمسامير الدقيقة! ثم جعل يصلي ركوعا وسجودا، وكلما

ارتقى نظرتُ إلى وجهه المتدفق بالنور، وكأنما كان يسبح في عوالم أخرى، أو يدخل إلى أحوال أخرى.. وكانت صلاة ما رأيت مثلها في حياتي قط! لم تكن حركاته ولا أطواره تشبه الشيوخ الذين عرفناهم من قبل.. عجبا..! فأي رجل هذا؟

كنا جميعا نحاول جهدنا أن نبقي القارب ساكنا على خط مستقيم، راسيا باتجاه القبلة.. حتى إذا أنهى الشيخ صلاته، التفتَ الينا بهدوئه العميق قائلاً:

– شكراً لكم يا إخوتي، لقد أتعبتكم!

* * *

كانت التجليات قد انقطعت مواردها عني منذ زمان بعيد..! فأصابني ضجر شديد، كنت في اسطنبول، فقررت السفر في رحلة استكشافية لمعاينة أطلال الأحبة والوديان، عبر حواضر تركيا وبواديها، خصوصا المناطق التي عاش فيها بديع الزمان سجينا أو منفيا؛ لعلي أتخيل بعض صور المعاناة التي عصرت قلبه، ونوع المسافات التي قرحت كبده! فجعلت وجهتي إلى "قسطموني" في شمال الأناضول، لأنحدر بعدها نحو مدن الجنوب الغربي عبر أواسط البلاد، مرورا على "أنقرة" حتى "أسكي شهر"، فـ"أميرداغ"، ثم "أفيون"، ثم "بارلا" ثم "إسبارطة" فـ"دنيزلي". ثم أشد الرحيل -بعد ذلك- إلى "أورفة" في الشرق الجميل، فأزور المواقع الشرقية المباركة، ما بين "أورفة" و"ماردين" و"سعرد" و"بتليس" و"تُورْس" ثم مدينة "وَانْ". وربما عبرت نحو العراق أو الشام..

* * *

كانت السيارة تتسلق سلسلة جبال "طوروس" الضخمة، الرابطة ما بين أواسط تركيا وشرقها! بقع الثلج ما تزال -في عز الصيف- تزين بعض

القمم الشامخة هنا وهناك، وتعكس من أشعة الشمس صفاء البلور وبريق الألماس! ولخمائل الغابات الخضراء عناقات أبدية تُعَبِّرُ عن وفاء العاشقين بهذا البلد الأصيل..! والينابيع الطبيعية تتدفق بقوة من الأعالي بالماء الثلجي البارد، وتتفجر في السفوح والمنخفضات بالماء البركاني الحار..! وبين هذه وتلك مقامات شتى من شلالات الاستشفاء والتداوي. سألت طبيبي عما يصلح لي بينهما؟ فأجاب:

– دواؤك يا ولدي في شلال الأشواق السبعة!

قلت:

– أوَيُوجَدُ شلال بهذه الأوصاف؟

قال:

– من كابد المحبة وَجَدَه!

وقفت أنا وصديقيَّ على مقربة من ماء بارد، ينبع من صخرة خضراء، فتذكرت قصة الخضر عليه السلام، فقلت: خليليَّ انتظراني.. ومضيت أتسلق نحو القمة .. رأيت راعيا يسلك بغنمه ما بين الأشجار والأحجار، فسألته:

– أفي هذه المناطق شيء اسمه "شلال الأشواق السبعة"..؟

تبسم في وجهي وأشار بعصاه إلى أعلى، ثم أدبر عني ومضى يزجر غنمه!

أصابتني الحيرة وتساءلت في نفسي: أتبسم ترحيبا بي أم سخرية مني؟ ثم أهو قد دلّني حقا على الطريق بعصاه؛ أم أنه إنما كان يهش بها على غنمه..؟ لست أدري! لكني مع ذلك اتخذت الأعالي سبباً، واقتحمت العقبات حتى اقتربت من القمة العليا.. كان هدير الماء يضرب بقلبي كالطبل بقوة؛ ففزعت! رفعت رأسي إلى أعلى فرأيت صخرة عظيمة تتربع على ذؤابة الجبل، وهي تطل عليَّ من سبع مغارات، تقذف الماء بقوة فوق الأشجار والأحجار..! ولست أدري لماذا شعرت كأنني صرت محاصرا بهذا المكان

الغريب، جعلت أنظر ورائي وأفكر في الهروب، فسمعت صوتا يصرخ بي:

- ويحك يا صاح..! ما كان لمن ارتقى المقامات العليا أن يُدْبِر!

فرأيته! كان يخرج من إحدى المغارات هناك، والماء يسري عبر كل جسده! تفرست في وجهه فإذا هو بديع الزمان!

خاطبته مسرورا:

- سيدي لو نزلتَ إليَّ قليلا حتى أسمعك؛ فهدير الماء يضيع الأصوات!

قال لي:

- لا أستطيع، بل أنت تَرَقَّ إليَّ! ألم أكتب لك من قبل: "إنني أتكلم من مقامي، لا من مقام المستمع إليَّ -خلافاً لسائر المتكلمين الذين يفرضون أنفسهم في مقام المستمعين- فيصير المستمع أمام كتابي الذي وَجْهُهُ إليَّ، ومعكوسه إليه، فكأنما ينظر إلى الكتاب من مرآة؛ فتتعسَّر القراءة عليه! فإذن لا أنزل إلى مقامه، بل لِيُرْسِلْ هو خيالَه إليَّ لأجعله على عينيَّ، عساه يرى ما أرى!"

طأطأت رأسي، وقلت:

- ذلك مقام فوق طاقتي واقتداري يا سيدي!

قال:

- فإذن ليس لك إلا خطاب الغياب..! هذا زمان الفتنة اللاهبة من سيرتنا يا ولدي.. وإذْ لا طاقة لقلبك بمشاهدة الريح اللاهبة مُكاشَفةً، ولا قدرة لكفك على القبض الثابت على جمر مواجعنا قهراً؛ فادخُلْ خابيتَك المكسورة! واقرأ عنا بضمير الغائب سِرّاً، فأشباح الليل تلاحق الشاهد والمشهود..!

ثم تلاشت الصورة من فوقي، وانحدرتُ إلى أسفل أتدحرج بين الماء

والطين!.. ركبتُ السيارة بألطاخي ثم انطلقنا.. وبينما كان السائق يتسلق بنا أعالي "بارلا" جعلتُ أقرأ في مرآة السيارة صورته بضمير الغائب:

ها هو ذا بديع الزمان قد وصل إلى منفاه في قرية "بارلا".. قضى الليلة الأولى في مخفر الشرطة، ثم خُصص لإقامته في وسط القرية بيت صغير يتألف من غرفتين، ويطل على مروج "بارلا".. كانت أشجارها الممتدة نحو بحيرة "أغريدير" العذبة، تنشر أمامه جمالها الجذاب، وتميد بأغصانها كالعرائس الجذلى .. وكانت هنالك شجرة عظيمة من أشجار الدلب، تنتصب أمام البيت الصغير -المعد لإقامته القسرية- وترتفع بقامتها الضخمة المهيبة، لتوزع أغصانها الكثيفة في الفضاء؛ فتزيد المكان جلالا ووقارا..!

ولأمر ما تعلق قلب بديع الزمان بتلك الشجرة، فجعلها هي محل خلوته ومحراب مناجاته، يصعد إليها متولِّهاً كالمجنون، يعانق أغصانها الواحد تلو الآخر حتى يندس بين حمائلها، فيسكن إلى الصمت قليلا، ثم ينطلق في ترتيل أذكاره وأوراده، فإذا أصداؤها الخاشعة تمضي في الفضاء مع قصائد الطير هديلا جميلا، يجد نغمه الموزون بسرعة في شقشقة التغريد والتفريد..

ثم تطوع أحد النجارين المحبين -بعد ذلك- فصنع وسطها غُرفة خشبية صغيرة مثبتة عند مفترق أغصانها الضخمة. فكان الأستاذ يقضي فيها أغلب أوقاته في فصلي الربيع والصيف، متعبداً لله، ومتفكراً في ملكوت السماوات والأرض.. وربما قضى الليل كله هكذا حتى انبلاج الفجر، حتى إن أهالي "بارلا" لا يعرفون متى ينام ولا متى يستيقظ! إذ لا يمر أحد منهم قرب الشجرة في أي وقت من سكون الليل إلا ويسمع هَمْهمة العالم المتعبد المتهجد..!

كان الأستاذ عليل الجسم غالباً.. وكان قليل الإقبال على الطعام.. إذ كان يكتفي في اليوم الواحد بإناء صغير من الحساء مع شيء قليل من الخبز. كان طعامه يأتيه من بيت أحد الجيران، وكان يصر على دفع ثمنه دائماً..!

فقد كان شعاره الذي فرضه على نفسه بقوة شديدة طوال حياته هــو: ألا يأخذ شيئاً من أحد دون مقابل! وقضى حياته كلها ملتزما بهذا الشعار، و لم يتخل عنه حتى في أصعب الظروف! مستغنياً عن الآخرين بما فــرض علــى نفسه من خصال الزهد والاقتصاد، وما أكرمه الله به من البركة!

كانت عيون السلطة تترصده من كــل الجهــات، تراقــب حركاتــه وسكناته.. لذا فقد كان الأهالي يتجنبون الاقتراب منه والتحدث إليه، فكان يقضي أكثر وقته إما في البيت وإما هائما بين شعاب جبل "چام" وأشجاره الكثيفة، خاصة في فصلي الربيع والصيف.. حيث يختلي هنــاك بنفســه في أعالي القمة، وينــزوي بين الأشجار متأملاً ومتعبدا.. حتى كان ذلك اليوم، يوم انطلاق النور!

* * *

كعادته دائما خرج من بيته أحد أيام الصيف متوجهاً إلى الجبل.. كــان الجو صحواً والشمس مشرقة، ولكن ما أن وصل إلى القمة حــتى تلبــدت السماء بالغيوم؛ منذرة باقتراب عاصفة..! وما هي إلا لحظات قليلة حــتى أرعدت وأبرقت.. ثم بدأت الأمطار تتساقط بغزارة..! كان النورسي يمشي وحيداً على قمة الجبل، لا ملجأ له ولا مخدع يتقي فيه سيول المطر المنهمر، وما كانت الأشجار كافية لتمنع عنه هذا المطر العاصــف! فقــد كانــت أغصانها هي نفسها تتطاير في الهواء!.. ثم صارت كل ثياب الشيخ مجــاري للماء الجارف، يسيل من رأسه إلى أخمص قدمه! فغاصت قدماه في الوحــل والطين، وصار في وضع حرج ومنظر كئيب! و لم يزل كذلك على حاله بين الأغصان حتى خَفَتَ سقوط المطر قليلا، ثم انتهز الفرصة وقفل منحدرا نحو بيته الصغير بالبلدة. و لم يقطع إلا مسافة يسيرة حتى تمزق حذاؤه، فــدخل البلدة وهو يحمله بيده، وقد علا الطين جواربه المصنوعة من الصوف الأبيض فأحالها إلى لون يتردد بين الحمرة والسواد!

وهناك.. بالقرب من نبع الماء كان بعض أهالي "بارلا" مجتمعين يتحدثون، فشاهدوا هذا المنظر المؤثر، منظر العالم الجليل المهيب المنفي عــن موطنــه.. الوحيد في غربته.. المقاطع من قبل الجميع، يمشي وحده، ويحمل حذاءه الممزق بيده، ويغوص بثيابه الرثة في الماء والطين! خيم سكون ثقيل علــى النــاس.. وترددت القلوب بين عاطفتين مختلفتين، عاطفة الإسراع لمد يد المساعدة إليه، وعاطفة الخوف من عيون السلطة المترصدة لكل حركة من حركاته!.. وأخيراً اندفع من بين الجمع شخص اسمه "سليمان".. فأخذ الحذاء من يده وغسله في الحوض، ثم رافقه إلى منــزله بحنو كبير، وصعد معه إلى غرفته. كان ذلك هو "سليمان كروانجي"، الذي صار أول صديق للنورسي في منفاه، وأول تلميذ له في مرحلة نشر "رسائل النور"، ومن تلك اللحظة صار خادما مخلصا للأستاذ. وبدأت رهبة الاقتراب من الأستاذ تزول يوما بعد يوم، حتى التف حوله عدد من الشباب لا بأس به، فجلسوا بين يديه في خلوات الليل والنهار يستنسخون منه كلمات "رسائل النور" ذرةً ذرةً، ثم شعاعا شعاعا.. وهكــذا أشــرقت الشمس مرة أخرى على تركيا من "بارلا"!

كانت الحروف العربية قد حُظرت ومُنع تداولها رسميا، ووضعت مكانها الحروف اللاتينية، ثم أغلقت كل المطابع العربية، فكانت طريقــة النــسخ اليدوي سراً هي الطريقة الوحيدة الكفيلة بنشر مؤلفات رجل أصــر علــى استعمال الحرف العربي! وبقيت "رسائل النور" تنتشر بهذه الطريقــة نحــو عشرين سنة!

حكاية أخرى..

"عبد الله جاويش" رجل أمي، كان أحد السابقين الأولين في خدمة دعوة النور. حدَّث يوما من ذكريات شجونه قال:

"ذات يوم جئت إلى الأستاذ، وإذا بالحافظ علي وعدد من الطلاب عنده، بدأ الأستاذ يوزع أجزاء من القرآن الكريم عليهم ليستنسخوه، مع تعليمات بكيفية النسخ، وحيث إنني أمي لا أعرف الكتابة والقراءة، قمت لأهيء لهم الشاي..! عسى أن أشاركهم في الأجر؛ ولكن ما إن أتيت بالشاي لأوزعه عليهم حتى نهض الأستاذ وأخذ الشاي مني، وبدأ هو بالتوزيع فخجلت! إذ كيف يوزع الأستاذ الشاي على طلابه بنفسه؟ ثم أنا ماذا أصنع؟ وجعل يقول لهم:

"إن استنساخكم أجزاء من القرآن الكريم، وسعيكم في سبيل خدمة القرآن مقبول عند الله الذي يراكم في وضعكم هذا، وملائكته الكرام يلتقطون صوركم في أوضاعكم هذه، وأنا لكوني خادماً للقرآن الكريم ينبغي أن أقوم بخدمتكم..." فجعل يوزع عليهم الشاي وهم منهمكون بحب عجيب في عملية الاستنساخ!

وما هي إلا لحظات حتى وجد لي الأستاذ وظيفة؛ فأخرجني من ورطتي! وكأنما علم بما كنت عليه من حرج.. لقد كلفني بحمل نسخ القرآن الجاهزة وما تم استنساخه من "رسائل النور" إلى القرى والمدن المجاورة سرّاً.. فدخلت في شبكة من أغرب شبكات التوزيع في التاريخ..!

كنت أغادر قرية "إسلام" بعد المغيب حاملاً في حقيبتي الرسائل التي

استنسخها "الحافظ علي" وأسير الليل كله مشياً على الأقدام، بين الجبال والوديان، حتى أصل مع الفجر إلى "بارلا" فأرى الأستاذ في انتظاري، يستقبلني بسرور بالغ فنصلي الفجر معاً.. ثم أستسلم للنوم.. وهكذا كنت أتسلم في اليوم التالي المسودات من الأستاذ، وأغادر "بارلا" ليلاً لأصل قرية "إسلام" فأسلم المسودات إلى الحافظ علي..!

كانت المسافات بالنسبة لي نزهة عجيبة، وكانت الأخطار متعة أتلذذ بملاقاتها..! ما كنت أبالي أين أضع قدمي.. أعلى حجر أم على شوك وشجر! أرتفع حينا على الروابي فيمتد ظلي -في الليالي المقمرة- مثل الأشجار على السفوح، ثم أختفي حينا بين الغابات والأدغال فلا يدري المراقب أنّى مدخلي ولا أنّى مخرجي..! ثم أهوي في جوف الشعاب أشق أعماق الوديان فلا أدري أنا نفسي كيف أجدني في الجهة الأخرى من الوادي.. أركض مثل الحصان البري النافر من الترويض! كانت الكلاب الوحشية تعترض طريقي من حين لآخر فلا أبالي بها أبدا.. كانت تنبح نباحا أشبه ما يكون بزئير الأسود..! والعجيب أنني كنت أطرب لذلك طربا! وأجد له متعة لا أدري ما مصدرها. فربما كنت أشعر بحمايتها أكثر مما كنت أشعر بهجومها! وفعلا، ما هي إلا لحظات حتى أراها تجري بموازاتي صامتة كأنما هي تشيع صديقا حميما، فتخفرني حتى أودع واديها وأغيب عنها بين الشعاب الأخرى..!

* * *

وبدأت حلقات الطلاب تتسع، ثم بدأت الرسائل تصل إلى القرى والنواحي القريبة من "بارلا" وتتلقفها الأيدي سراً، ثم توصلها إلى المدن البعيدة، حيث بدأت تكتسب قلوباً جديدة وأرواحاً عطشى إلى الهداية والنور.

بدأ العشرات، ثم المئات، ثم الآلاف من طلبة النور رجالاً ونساءً في الانكباب على استنساخ "الرسائل".. ساعات عديدة من الليل والنهار، حتى إن أحدهم مكث سجين منزله سبع سنوات كاملة، لم يغادره قط، وهو مكب على هذه المهمة العجيبة! منزويا بعيدا عن فتن الزمان وأهله! وقد كان في قرية "ساو" القريبة من "إسبارطة" ألف ناسخ لرسائل النور!

وكان للنساء دور عجيب.. فقد شاركن في هذه الحملة مشاركة فعالة.. فالفتيات اللائي كنَّ يعرفن الكتابة قمن بالاستنساخ، واللائي يجهلنها كُنَّ يُقَلِّدْنَ أشكال الحروف تقليداً، على طريقة النقش والتصوير، تطريزا على الأقمشة بشتى الأشكال؛ فتكتمل بذلك الكتابة!

وأقبلت قرية "بارلا" على خدمة النور.. رجالها ونساؤها، شبانها وكهولها.. الكل يشتغل بمد خيوط النور إلى كل مكان، خطوطا يدوية وكلمات متوضئة ووريقات بلورية، تتناقلها الأيدي سرا من هنا إلى هناك، لكن بسرعة مذهلة.. حتى كان الخبر في كل بيت! وكان ذلك علامة على أن الله قد أذن بشيء! قرية بكاملها صارت مدرسة لإعلاء كلمة الله ورفع راية الإيمان.. فتدفق النور إلى القرى المجاورة ثم إلى كل مكان من مدن تركيا وبواديها..!

كان الشيخ يرى ببصيرته النورية أن المدرسة المرجوة لهذا العصر قد قامت بالفعل، فلا بد من تأسيس تربوي للأجيال.. لا بد من حكمة الانطلاق التي يجب أن تحكم العمل وتعصمه من الانحراف والزلل.. وبدا له أن أخطر صخرة قد تعوق تفجر الحكمةِ النورية وتدفقها على العالم هو شخصه نفسه!.. إنه "أنا"، فكيف تخليص المشرب وتصفيته من ذات هي منبعه الفياض؟ كيف الخلوص بالروح من رائحة الحمأ المسنون؟ آه يا خابيتي أما آن لك أن ترشحي بماء لا تخالطه ريح العلق؟

قال لي: إن بقاء السراج وهاجا -رغم عواصف هذا الزمان العصيب- دونه الاعتصام بمقام شق الصدر عن قلب النبوة! فمن ذا قدير على تحمل هذا الألم؟ تلك هي قصة التحدي يا ولدي فاكشف صدرك للسكاكين إن كنت حقا من الصادقين، وإلا فعلى مواجيدك الكاذبة السلام!

مقام التأسيس

كان ذلك ذات يوم، في غمرة الاشتغال بالنسخ والاستنساخ قام وسط طلابه يلقي حكمته البالغة بحرارة الناظر إلى المستقبل.. وانطلقت الكلمات تروي قلوب المستمعين بالنور..

"إخوتي الأعزاء!

إن أستاذكم ليس معصوماً من الخطأ، بل من الخطأ الاعتقاد أنه لا يخطئ! ولكن وجود تفاح فاسد في بستان لا يضر بالبستان، ووجود نقد مزوَّر في خزينة لا يسقط قيمة الخزينة. ولما كانت السيئة تعد واحدة بينما الحسنة بعشر أمثالها، فالإنصاف يقتضي: عدم تعكير صفو القلب تجاه الحسنات..!

اعلموا يا إخوتي ويا رفاقي في الدرس! أنني أُسَرُّ إن نبهتموني بكل صراحة لأي خطأ وجدتموه عندي.. بل أقول: ليرضَ الله عنكم إذا قلتموه لي بشدة! إذ لا يُنظر إلى أمور أخرى بجانب الحق.. إنني مستعد لقبول أية حقيقة يفرضها الحق. وإذا كنتُ أجهلها فسأقبلها وأضعها فوق العين والرأس، ولن أردها مهما كانت مخالفة لأنانية النفس الأمارة!

اعلموا أن هذه الوظيفة الإيمانية وفي هذا الوقت بالذات جليلة ومهمة! فلا ينبغي لكم أن تضعوا هذا الحمل الثقيل على كاهل شخص ضعيف مثلي، وقد تشتت فكره! بل عليكم معاونته قدر المستطاع..!"

كان سكون الليل قد أذِنَ لحشرات الوادي أن تزين خطبة الشيخ بصرير وصفير.. وكانت حلقة الدرس تغوص بالطلاب، تتخذ من نور الكلمات

فضاءها، والأستاذ وسطها يتصبب عرقا، وما هي إلا لحظات قلائل حتى انتصب واقفا، ثم أخذ بتلابيب طيفه الضعيف كأنما يصارع نفسه، فأضاء وجهه بنور غريب، حتى صار كأنه سراج وهاج وسط الجميع! وإذا بشيء كالروح يتسلل من جسمه هاربا إلى أعلى.. كانت تلك صورته تجلت في طيف شفاف يشع بجمال بلوري، وإذا بجسمه العليل بعد ذلك يذبل شيئا فشيئا حتى صار كشجرة يابسة! وتتبعنا مشهد الروح الصاعد إلى أعلى..

كان السراج يرتقي ويرتقي.. وكلما ازداد ارتقاء ازداد جمالا وتوهجا! حتى إذا شارف قمم الجبال المحيطة وأعالي الغابات انتشر قليلا يمينا وشمالا، حتى صار أشبه ما يكون بالثريا، ثم نادى في فضاء الليل الساجي:

"يا سعيدُ..! كن صعيدا حتى لا تعكر صفو رسائل النور..!"

ومضت الأصداء مثل البروق تركض بقوة بين الشعاب والغدران..! وانتشرت الثريا شعاعات ولمعات في كل مكان، فكان للنور فوق كل واد وهج كاشف! ثم... ثم كان أن فزعت خفافيش الظلام!

فتوحات السجون وتجليات المنافي...

.. البوم تولول في كل مكان، والخفافيش تُعْوِلُ على طول البلاد وعرضها.. كان العَشَا يطمس أبصارها جميعا، فتنطلق هاربة من أشعة النور، حتى تصطدم بالأشجار والجدران..

ويتجمع الكيد مرة أخرى.. فتنقض الخفافيش الكاسرة على مصابيح الأزقة والدروب لتكسرها بمناقرها الجارحة! ولكنَّ القَدَرَ سبق الشَّرَر! فكان ما أراد الله وقدَّر.. وخاب المبطلون..! فقد جاء منفى "بارلا" على قَدَرٍ حكيم..! تلك القرية المعزولة بين الجبال، الشاردة بعيدا عن العالم، لا تكاد تسمع فيها إلا الهديل والتغريد، وأصوات الحيوانات والدواجن.. ولا أدنى رجة لسيارة أو دراجة! فإما ثغاء أغنام أو خوار أبقار أو نباح كلاب أو نداء راع سارب هنا أو هناك بين الغابات والشعاب..! فأنَّى للنور أن يشرق من هنا؟ وأنى للكلمات أن تلهب الجموع التائهة في محاشر المدن المزدحمة وسواد العمران الغارق في ضجيج المدنية، الراكض خلف الكسب والاستهلاك لا يكاد يصغي لصوت الفطرة إلا قليلا قليلا..! في زمان مفتون قلما يتذكر الإنسان فيه أنه إنسان!

ولكن دعوة الله إنما هي دعوة الله! وتلك هي القصة كاملة باختصار، يا ولدي فتَدَبَّرْ..!

وقد قضى رب الدعوة أن يكون منفاها -الذي اختاره أشباح الظلام لخنق أشعة النور- هو عينه مكان مولدها وإشراقها على كل العالم! فانطلقت أقلام الأهالي وأقدامهم جميعاً لنشر الكلمات في كل مكان.. فما

هي إلا فترة يسيرة حتى أعلن خبراء الشر إفلاس المنفى! فصارت القرية المهمشة عاصمة! فلتدخل إذن القضية معركة أخرى، ولتلج الدعوة فصلا آخر..!

* * *

كانت المحنة الجديدة أن يسجن النور إلى حين.. فإذا بالسجن فتح جديد لمنافذ الشعاعات! ودخلت الأشباح في حيرة من أمر هذا الرجل ودعوته، فصار كالجمر أو كالنيزك المشتعل بين أيدي القضاة والحكام، كل منهم يلقيه إلى الآخر بسرعة؛ عسى أن يبوء بإثم اغتياله أو إعدامه! فهيأ الله بذلك مدارس للنور في كل مكان، من منفى إلى منفى، ومن سجن إلى سجن؛ حتى صار للنور مشارق شتى..! وإذا بالشمس التي كانت تشرق من "بارلا" تشرق من سجن "أسكي شهر"، ثم من منفى "قسطموني"، ثم سجن "دنيزلي"، إلى منفى "أمير داغ"، ثم سجن "أفيون".. فإلى "أمير داغ" مرة أخرى، وهكذا حتى صارت الشمس إلى رابعة النهار..!

كانت السجون مدارس يوسفية لتربية طلاب النور، تصفيةً لِخُلَّصِ الرجال وخلوات ربانية لتأليف رسائل النور.. كما كانت المنافي منازل لكل ذلك جميعا، ومحاريب لتجلي حكمة النور، والتقاط لآلئه المرجانية وأسراره الخفية. فأي غباء هذا الذي قاد حقد الأعداء ضد رجل محفوظ من السماء..؟!

الفتوحات اليوسفية بسجن "أسكي شهر"

عهد "بارلا" كان زمنا للمعاناة الجميلة وفصلا للألم اللذيذ..! كانت أشباح الظلام تتربص الدوائر بكل حركة تجدد الإيمان أو تخدم القرآن.. ولكن الله أتاها من حيث لم تحتسب..! فما أن شعر الطواغيت أن رسائل النور تنتشر بقوة، وأن الإيمان عاد يترسخ في قلوب الناس، حتى فكروا في حل آخر؛ للخروج من ورطتهم وتدارك هزيمتهم الكبرى.. فكان أن دبروا مكيدة لاعتقال الأستاذ النورسي ومن معه من طلاب النور، واتهامهم بتشكيل جمعية سرية، والقيام بأعمال ضد النظام الحاكم... إلى آخر اللائحة التقليدية من الاتهامات الجاهزة! فأُلقي القبض على الأستاذ مع مائة وعشرين من طلابه! ثم سيقوا مكبلي الأيدي إلى مدينة "أسكي شهر" يوم: ٢٥ مارس ١٩٣٥م .. وزُجَّ بهم في زنازين انفرادية، وسِيمُوا أنواع العذاب! ثم كانت المحكمة!

وبعد خطاب قوي رافع به النورسي نفسُه؛ دفاعا عن دعوته وطلابه، خطاب هز جنبات المحكمة وأوقع القضاة في دهشة وارتباك؛ شعر رئيس الجلسة بحرج شديد إذْ لم يبق له من صك الاتهام شيء يستند عليه..! ولكن لا بد لأشباح الظلام من تجريم النور! فعلى الرغم من مصادرة نسخ "رسائل النور" من بيوت الطلاب، وإجراء التحريات الدقيقة في مضامينها فإن المحكمة لم تعثر على مادة واحدة تصلح للاتهام. ولكن مع هذا حكم القاضي على الأستاذ بالسجن أحد عشر شهراً، وعلى خمسة عشر من طلابه بستة أشهر، وأُطلق سراح البقية.

قال لي:

كان سجن "أسكي شهر" -يا ولدي- أول مدرسة يوسفية لطلابي الأوفياء، حيث جعل الابتلاء منهم رجالا يزنون الجبال الرواسي! وكان بالنسبة لي فصلا خصبا لتلقي بركات الواردات.. فقد تلقيت فيه من الفتوحات ما صار لنا "شعاعات" و"لمعات" تومض برسائل النور، مما ألهب مواجيدنا وغذى أرواحنا.. وتجلت علينا فيه دفاعات نزلت حججُها في المحكمة صواعق على الظالمين، ثم صارت بعدُ أسوارا عظيمة لطلاب النور، ترفع رايتهم بإذن الله إلى يومنا هذا!

ولك الآن مني -يا ولدي- حكاية شجية، مما شاهدت في سجن "أسكي شهر" ترشح بالحِكَمِ والنور..!

حكاية

"كنت في أحد الأيام جالسا أمام شباك سجن "أسكي شهر"، المطل على مدرسة إعدادية للبنات.. فكانت تلميذاتها اليافعات يلعبن ويرقصن في ساحة المدرسة ببهجة وسرور، منشدات أغاني الوطن بمناسبة عيد الجمهورية. وفجأة تراءت لي شاشة كبرى تملأ ساحة المدرسة، فبدأت تعرض أمامي ما سيؤول إليه حالهن بعد خمسين سنة..! وفي لحظة سريعة رأيت أجسامهن الغَضَّةَ تَكْبُرُ وتَكْبُرُ، ثم تكتهل فتشيخ وتهرم..! ورأيت: أن نحواً من خمسين من مجموع ما يقارب الستين طالبة قد تحولن إلى تراب..! وها هي ذي أجداثهن تملأ المكان! ثم شاهدتهن يعذبن في القبور..! كما رأيت أن عشرة منهن قد تحولن إلى عجائز ذميمات يزحفن بين السبعين والثمانين من العمر.. اختفى حسنهن وشاهت وجوههن يقاسين الآلام من نظرات التقزز والاستهجان! إذْ لم يَصُنَّ عفتهن أيام شبابهن... نعم! رأيت هذا بيقين قاطع، فانخرطت في بكاء سخين متأسفا على حالهن الأليم، مما أثار انتباه بعض طلابي في السجن، فأسرعوا إليَّ مستفسرين عما بي... فقلت لهم: دعوني الآن وحالي، وانْصَرِفُوا عني..!

وعندما كنت أسمع من نافذة السجن، الضحكات البشرية البليدة، تتفرقع في المهرجانات الليلية البهيجة، ينكشف أمام خيالي شريط من الصور الحية يجري نحو المستقبل بسرعة، فأرى لقطات رهيبة من المآتم الحزينة: وكان من ذلك أني شاهدت الجنائز البئيسة تسير الهوينى، والنعوش الكئيبة تحمل أولئك الذين سيكونون في المستقبل القريب من أصحاب القبور..! وبكيت على هؤلاء الغافلين الضاحكين الآن، فانتابني شعور بالوحشة والألم..! ثم راجعت

عقلي، وسألت الحقيقة قائلاً: ما هذا الخيال الرهيب الذي يعذبني..؟ فأجابتني الواردات:

- إن خمسة من كل خمسين من هؤلاء البائسين الضاحكين الآن، الذين يمرحون في نشوة الغفلة، سيكونون شيوخا بعد خمسين عاماً، وقد وهنت منهم العظام وانحنت الظهور، وناهزت الأعمار السبعين! وأما الخمسة والأربعون الباقية فَيُرمُّون في القبور..!

فتلك الوجوه الملاح عندئذ، وتلك الضحكات البهيجة، ستنقلب إلى أضدادها. وبما أن "كُلُّ آت قَريب"؛ فإن ما شاهدته حقيقةٌ وليس بخيال! فصرخت من أعماقي: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِن رَّسُولٍ إلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ!﴾.. ثم انهارت قُوَاي!

* * *

عام إلا شهرا واحدا، تلك هي المدة التي قضاها النورسي لحظة في سجن "أسكي شهر"..! ثم كان الإفراج وكانت المشكلة!.. أين يضعون النورسي؟ كيف يتخلصون من هذا الذي يبث أفكاره بمجرد وجوده في المكان قبل أن يتكلم؟! كل إدارة وكل ولاية تفكر كيف تتخلص منه؟ وبأي طريقة؟ فليرحل إذن إلى منفى جديد..! وليكن هذه المرة في "قسطموني"..!

تجليات العناية الإلهية بمنفى "قسطموني"

قال لي:

عندما ساقوني منفياً إلى قسطموني وأنا الشيخ المريض، مكثت معتقلا هناك في مركز الشرطة حوالي ثلاثة أشهر! وبينما كان اليأس يحيط بي من كل جانب، إذا بالعناية الإلهية تغيث شيخوختي؛ فكان أنْ تَجَلّى عليَّ الوُدُّ من أفراد الشرطة أنفسهم، المسؤولين في ذلك المخفر نفسه، وإذا بهم يتحولون إلى مريدين أوفياء! فصار حُرَّاسي في الاعتقال خدمي!.. يخرجونني متى شئت للاستحمام، ويرافقونني للتجوال في سياحة حول المدينة.. وقد قاموا بخدمتي خير خدمة. وما ألزموني قط بلبس القبعة أو بنزع عمامتي، بل إنهم قد سمحوا لي بدخول المدرسة النورية التي كانت مقابل المخفر والمشاركة في درس النور.. إلى أن كانت محنة التلاميذ.. فدخلتُ فصلا آخر من مكابداتي!

حكاية: نثر الحكمة للتلاميذ

جاءني فريق من طلاب الثانوية في قسطموني قائلين: عرِّفنا بخالقنا، فإن أساتذتنا لا يذكرون لنا الله!

فأحزنني أن تتفتح هذه الزنابق الصغيرة من تحت الصخر الأصم ولا تجد من يشم أريجها.. فنثرت لها من قلبي العليل مواجيد المحبة، قلت:

"إن كل علم من العلوم التي تقرؤونها يا أبنائي يعرفكم بالخالق الكريم جل علاه! ولكن بلغته الخاصة.. فأنصتوا إلى المقالات البليغة لتلك العلوم دون جهل أولئك الأساتذة..!"

وانطلقت الأصابع الصغيرة تحاول الإمساك بخيوط الأشعة المتناثرة هنا وهناك، فإذا بها تكتسي ألوانا ذهبية كالأسماك الجميلة.. فصار لقسطموني كلها بعد ذلك شروق جديد.. وانتصب الإشكال بين أيدي الطغاة مرة أخرى: أين يضعون النورسي؟ أين يضعون هذا الرجل الذي يتلقى الناس كلماته كما تتلقى الأرض العطشى قطرات الغيث!؟

لا بد إذن من فصله عن الناس..! فليدخل السجن مرة أخرى..!

صاعقة المرافعات النورية في محكمة "دنيزلي"

بدأ العملاء يحرضون بعض المسؤولين ضد بديع الزمان، وكذا بعض المغرورين من العلماء، وبعض الجهلة من مشايخ الصوفية، فأصبحوا شبكة استعملها الأعداء، للقبض عليه مرة أخرى، واعتقال طلابه من عدة ولايات، والزج بهم جميعا في مدرسة يوسفية جديدة بسجن "دنيزلي"!.. كان ذلك يوم: ٢٠ شتنبر ١٩٤٣م.

قال لي: لقد كانت أياما مشهودة لا تُنسى.. سجن قبل أي محاكمة! وإني لأذكر إذْ زجوا بي في ردهة كبيرة ذات عفونة ورطوبة شديدتين! ومخالب البرد المشرعة بين أركانها تمزق جسدي العليل! وتذكرت ما أصاب إخواني الأبرياء بسببي، وما قد يكونون عليه من ألم وعذاب في الزنازن الأخرى؛ فاعتراني حزن عظيم! ثم تذكرت ما أصاب انتشار "النور" من مصادرة، مع ما كنت أعانيه من الشيخوخة والمرض.. جعلت أتقلب مضطرباً في ضجر كئيب.. ولكن العناية الربانية ما لبثت أن أغاثتني مرة أخرى، فحولت سجني إلى مدرسة نورية جديدة، وكانت فتوح أخرى! فقد بدأت رسائل النور تزداد انتشاراً وتوسعاً في المجتمع، حيث نشط أبطال المدارس النورية في كتابتها بأقلامهم الألماسية. حتى إن أحدهم قد استنسخ أكثر من عشرين نسخة من رسالتي "الثمرة" و"الدفاع" خلال مدة لم تتجاوز أربعة أشهر رغم ضراوة الظروف المحيطة بنا. فكانت تلك النسخ سبباً للفتوحات في السجن وخارجه.. وهكذا تحولت أحزاننا فيه إلى مسرات وأفراح.. وشاهدنا مرة أخرى سرا من أسرار الآية الكريمة: ﴿وعَسى أنْ تَكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكُم﴾.

وانطلق طلاب النور يوقدون الشموع في السجن، ويعلقون القناديل الصغيرة بين زواياه المظلمة، جاعلين فيها زيتا من رسالة "الثمرة"، التي كُتبت للمسجونين خاصة؛ فتاب إلى الله بذلك أكثر من مائتي سجين! وتحول قطاع الطرق والمجرمون إلى أهل صلاح وورع، حتى إن قاتلا لعدة أنفس صار يخشى بعد ذلك أن يقتل بقة واحدة!

ثم انعقدت جلسة المحكمة!.. تواترت التهم كسابقاتها تترى: تأليف جمعية سرية، وتحريض الشعب على الحكومة العلمانية، ومحاولة قلب نظام الحكم! ثم تسمية مصطفى كمال "بالدجال" !

وقفت في قفص الاتهام، ثم نظرت يمينا وشمالا.. كانت قاعة المحكمة غاصة بالجماهير.. والقضاة -بألبستهم المزينة بالنياشين- يطلون عليَّ من منابرهم العالية في كبرياء ظاهر وجبروت.. وانتفض الدم -يا ولدي- في قلبي كالبركان، ومضى يركض كخيول الفتح في شراييني..! وتجلى عليَّ مقام تلميذ الراهب بين يدي الساحر وملك الأخدود، فُتُوَّةً تملأ شيخوختي حيويةً وقوةً، ما عهدتهما حتى في شبابي! وورد عليَّ أنه لا بد من إعلان كلمة الحق لكل الناس.. فهذا يوم الصدع بالأمر والإعراض عن المشركين!

ونظرت إلى هيئة المحكمة مرة أخرى، فشاهدت أشباح الظلام تختبئ بين ثنايا معاطفها.. وسمعت صوتا هادرا ينطلق من أغوار قلبي، نَفَساً عميقاً تتجاوز أصداؤه قاعة المحكمة والمدينة كلها..! وشاهدت قمم الجبال مرة أخرى تغوص بخيول الفاتحين..! وعلمت أن الأوان قد آن..!

كانت العبارة أقوى من أن تتحملها سكينتي المعتادة، ومضى الصوت الصامت يركض في كل مكان:

- يا خيل الله اركبي..!

وانتظرت حتى إذا فرغ المدعي العام من سرد لائحة الاتهام، والتقطت

إشارة رئيس المحكمة، أسرجت حصاني بنفسي ولم أدع لمحامي الدفاع مقالا وأطلقت العنان لواردات فتى الأخدود:

"..السيد الرئيس!

لقد تم اتخاذ ثلاثة أسس في قرار المحكمة:

المادة الأولى: الجمعية

إنني أُشهد جميع طلاب النور الموجودين هنا وجميع من قابلوني وتحدثوا إليّ، وجميع من قرؤوا أو استنسخوا رسائل النور -وتستطيعون أن تسألوهم أنتم- بأنني لم أقل لأي أحد: إننا سنشكل جمعية سياسية أو طريقة نقشبندية! بل كنت أقول دائماً: إننا نحاول إنقاذ إيماننا. ولم يجر بيننا حديث خارج عموم أهل الإيمان، وخارج مفهوم "الأمة الإسلامية" المقدسة، ولم نجد لأنفسنا مكاناً خارج القرآن الكريم، الذي يجمع تحت ظله جميع أهل الإيمان. ولأننا حصرنا جهدنا في خدمة القرآن فلا شك أننا من "حزب القرآن". فإن كان قرار الاتهام يشير إلى هذا فإننا نقر بذلك بكل خلجة من خلجات أرواحنا! وبكل فخر واعتزاز! أما إن كان يشير إلى معان أخرى فإننا لا نعلم عنها شيئاً.

المادة الثانية: إن قرار الاتهام يعترف -استناداً إلى تقرير وشهادة شرطة "قسطموني"- بأن "رسالة الحجاب" و"رسالة الهجمات الست وذيلها" وجدت داخل صندوق مغلق ومسمّر، تحت أكوام الحطب والفحم. وهذا معناه أنها لم تكن معدة للنشر مطلقا. وقد مرت من بحث محكمة "أسكي شهر" وتدقيقها، فأدّت إلى إصدار عقوبة خفيفة عليّ. ولكن الادعاء العام اليوم الذي أخذ بعض الجمل من هذه الرسائل وأعطى لها مفهوماً ومعاني غير صحيحة، يريد أن يرجع بنا تسع سنوات إلى الوراء، وأن يحمّلنا مسؤولية جديدة حول تهمة سبق أن عوقبنا من أجلها!

المادة الثالثة: ورد في قرار الاتهام -في مواضع عدة- عبارات مثل "يمكن أن يخل بأمن الدولة!" أي تم وضع الاحتمالات والإمكانات محل الوقائع الثابتة. وأنا أقول: إن من الممكن ومن المحتمل أن يقوم كل شخص باقتراف جريمة القتل، فهل يمكن إدانة كل شخص وتجريمه على أساس الاحتمال؟

أيها السادة!.. إننا لا ننظر إلى أشد عقوباتكم إلا أنها تسريح وظيفي، وتذكرة سفر إلى عالم النور.. لذا فإننا ننتظرها بثبات كامل.. ولكننا نعلم علم اليقين أن الذين وقفوا ضدنا وأصدروا الأحكام علينا سيلقون عما قريب عقابهم بإعدام أبدي! ويُزج بهم في سجن انفرادي حقيقي! وإنه لعقاب مرعب رهيب!.. إننا موقنون بذلك وكأننا نشاهدهم في عذابهم هذا كما نشاهدكم أنتم الآن في هذا المجلس! لكننا مع ذلك نتألم كثيراً من الناحية الإنسانية من أجلهم!

إن أمامكم طريقين: إما أن تطلقوا الحرية الكاملة لرسائل النور، وإما أن تحاولوا القضاء -إن استطعتم- على الحقائق الإيمانية الواردة فيها..!

والخلاصة أنه ما دمنا لا نتعرض لدنياكم، فيجب عليكم ألاّ تتعرضوا لآخرتنا!

أيها السادة! لقد قرأ عشرون ألف شخص عشرين ألف نسخة من رسائل النور في ظرف عشرين سنة، ورضوا بها وتقبلوها. ومع ذلك لم تقع حادثة واحدة مخلة بالأمن من قبل طلاب النور. ولم تسجل المراجع الرسمية أي حادثة من هذا القبيل، كما لم تستطع المحكمة السابقة ولا الحالية العثور على مثل هذه الحادثة، بل الحال يقتضي -لو كان الاتهام حقا- أن تظهر حوادث ووقائع في هذه العشرين يوما فقط، تحت تأثير الدعاية القوية الواسعة الانتشار ضدنا!

إن وضعنا خارج السجن -في هذه الظروف البئيسة- أسوأ مائة مرة من

وضعنا داخله! فلم يبق بعد هذا الاستبداد المطلق أي نوع من أنواع الحرية في الوطن!.. لا الحرية العلمية، ولا الحرية الوجدانية، ولا الحرية الدينية!.. ولم يبق أمام أهل الشهامة وأهل الصلاح من سبيل إلا الموت، أو الدخول إلى السجن! أما نحن فلا يسعنا إلاّ أن نعتصم بربنا ونلوذ به، ونقول: "إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون!"

وما دامت هذه هي الحقيقة فإننا نصرخ بكل قوتنا:

أيها البائسون الذين سقطوا في درك الكفر الصريح!.. يا من بعتم دينكم بدنياكم!.. اقضوا ما أنتم قاضون! ولتكن دنياكم وبالاً عليكم! وستكون!.. أما نحن فقد وضعنا رؤوسنا فداءً للحقيقة المقدسة، التي يفتديها مئات الملايين من الأبطال برؤوسهم!.. إننا متهيئون وجاهزون لاستقبال كل أنواع عقوباتكم.. وليكن حكما بالإعدام!"

كانت الكلمات تهوي كالمناجل على أعناق الأعشاب اليابسة! وكانت وجوه هيئة المحكمة تدخل فيما يشبه الغيبوبة؛ بما انتابها من الحيرة والاضطراب! فقد تدفقت الحياة كالشلال على الجماهير، وملأ جمال الخضرة فضاء المكان، وأشرقت الشمس على أنداء الزهور مرة أخرى، فنشرت أشعتها، ترسم على وجوه الشباب ابتسامة الربيع.. تلك كانت رشحة واحدة فقط من شعاعات النور، فضحت خفافيش الظلام على الملأ، وأربكت فرعون في يوم زينته! وهيجت سعار طاغية الأخدود، ليرتكب أسوأ جريمة في التاريخ! وتخرج رسائل النور من الميدان رافعة علم الانتصار!.. فقد تسلطت الأشعة قوية على هيئة المحكمة؛ فما كان من الرئيس إلا الحكم على بديع الزمان بالبراءة! رغبة في التخلص منه والإلقاء به على مسؤولية جهة أخرى، فكان النفي إلى "أميرداغ"!

منفى أميرداغ

بين محنة الإقامة الجبرية وجريمة التسميم!

"أميرداغ" كانت منفى من نوع آخر.. فقد أُلقي بي فيها وحيدا، ووُضِعْتُ في غرفة صغيرة تحت الإقامة الجبرية، نحو ثلاث سنوات! ابتداء من فاتح غشت ١٩٤٤م.. كانت عيون الخفافيش ترصدني، وتتعقبني ليلا ونهارا، فلا أحد يتجرأ على زيارتي أو مقابلتي! ولا من أبثه قبسا من مواجيد النور المتوهجة بقلبي! فكيف أُمْلي رسائلَ النور إذن؟! وبدا لي كأنني قد حُرمت من الحياة حقا؛ فتعذبت لذلك أشد العذاب حتى إني مللت الحياة، وتأسفت لخروجي من سجن "دنيزلي"! ثم كتبت إلى المسؤولين في أنقرة كتابا كان عنوانه: "إذا كان القاضي والمدعي واحداً، فإلى من تُرفع الشكوى؟".. وجاء جوابهم لي بعد ذلك محاولة اغتيال!

كان ذلك ذات ليلة عقيمة.. لا بدر فيها ولا نجوم! حيث دس أحدهم سما قاتلا في طعامي، فكان ذلك عشائي تلك الليلة الرهيبة! واشتعل الألم بجسدي كله إلاّ أن الله نجاني بلطفه من الموت المحقق، فقد بقيت أياما طريح الفراش أقاسي طعنات الألم الشديد! ولم أزل أنتظر الموت، دائم التلاوة للأوراد والأذكار.. حتى وجدتني أتماثل للشفاء وأستعيد حياتي! وشاهدت مرة أخرى أنني لست ملكا لنفسي وأن العناية الإلهية تحفظ خدمة القرآن العظيم في شخصي العاجز الضعيف.

ثم كان بعدها أن وصلني خبر عجيب، فقد أُلقِيَ إليَّ سرّاً أن طلاب النور قد حصلوا على آلة "الرونيو" -التي ظهرت حديثاً آنذاك- فصارت "رسائل

النور" تخرج بخمسمائة نسخة عن النسخة الواحدة. وتـواترت الفتوحـات الإلهية علينا، وتدفق الأمل على قلبي من جديد؛ مما جعلني أحب تلك الحياة الضجرة بالمنفى رغم توترها. ورفعت صوتي مرة أخرى أصداءً تهدر بين قمم الجبال:

- يا سعيد..! كن صعيدا حتى لا تُعَكِّرَ صفو رسائل النور..!

واشتدت حرارة الشمس بأميرداغ.. فضاق بها ولاتما ذرعا، فبـدا لهـم لَيَسْجُنُنَّهَا حتى حين!

الترحيل إلى سجن " أفيون "

وتثار التهم نفسها مرة أخرى.. فيتم تسفير الأستاذ مع خمـسة عـشر شخصا من طلابه إلى محكمة الجزاء الكبرى بأفيون، وتم اعتقال آخرين مـن عدة ولايات، ثم ألقي بهم جميعاً في السجن الاحتيـاطي يـوم: ٢٨ ينـاير ١٩٤٨م. واتخذت المحبة مشرقا جديدا -مرة أخرى- على البلاد.. فامتدت أشعتها تلاطف كل شيء، حتى استطاعت أن تجذب قلوب الجنود ورجـال الأمن أنفسهم!

حكاية

"إبراهيم" شرطي مخلص في عمله، إلا أن قلبه تعلق بحب بديع الزمـــان! فكان امتحانه عسيرا..! كشف مرة عن لواعج قلبه المكلوم فقال:

كان الأستاذ مقتادا من السجن إلى محكمة "أفيون".. ورجال الـــشرطة يحرسونه عن اليمين وعن الشمال.. والمئات من طلابه يمشون خلفه..! فقد أقبلت جماهير غفيرة إلى "أفيون" من كل حدب وصوب لتـــشهد محاكمـــة الأستاذ.. كنتُ آنذاك لا أزال في الخدمة، وكان قَدَري ذلك اليوم أن تكون نقطة عملي في الشارع المؤدي إلى المحكمة، وفجأة رأيت نفسي وجهاً لوجه أمام بديع الزمان! ولم أدر كيف وقفت بين يديه وقفة الانضباط العسكري فأديت له التحية العسكرية فوراً..! لقد خيل إلي أنني ألتقي أحد الـــسلاطين العظام! كان وجهه المهيب يوحي بوقار جليل لا يمكن لمن رآه إلا أن يقف له احتراما وتقديرا.. وكانت عيناه تفيضان بمعان روحية وحقـــائق إيمانيـــة تخترق القلوب وتأسرها! فيا له من رجل عظيم!

وارتبك رجال الشرطة من حولي بما صنعتُ، لكنهم تظاهروا وكأنهم لم يروا شيئا! إلا أن معاون قوة الخيالة العسكرية كان ماراً آنذاك، مع ثلة مـــن الجنود.. فما أن رآني أؤدي التحية لبديع الزمان حتى صرخ:

– أيها الجنود.. اقبضوا على هذا الشرطي..!

قبضوا عليَّ وساقوني مكتوف الأيدي إلى غرفة الآمر العسكري.. وما أن رآني هذا معتقلا بين الجنود حتى وقف فَزِعاً، وهو يقول:

– ماذا حدث؟

وأجابه المعاون بسرعة قائلا:

– إن هذا الشرطي قد قام بأداء التحية العسكرية لبديع الزمان..!

كان الآمر أسوأ من المعاون بكثير، وأكثر منه شرًّا..! فما أن سمع ما قال صاحبه حتى انتابته نوبة شديدة من الغضب..! وتحول إلى شبه مجنون! قـــال لي وهو يكاد ينتف شعره:

– أصحيح أنك أديت التحية لبديع الزمان؟

ما كان لي أن أنفي شيئا شاهده العشرات من الناس.. ولم أدر ما أجيب به، فقلت بسذاجة:

– وهل أنا شخص كافر ؟ إنني مسلم..!

فازداد الآمر هيجانا وصرخ كالمجنون:

– علقوه للفلقة..!

ومددوني معلقا على الحبال في الهواء! ونزلت الضربات على جـــسدي تترى! كانت الضربات الأولى شديدة عليَّ، ثم بعد ذلك ما عدت أشعر إلا بقليل من الألم! فصرخت فيهم:

– ما دمتُ قد سلمت على بديع الزمان فافعلوا ما شئتم..! وصـــرخ بي أحدهم وهو يهوي على قدميَّ بالعصا:

– ويلك أيها الشقي! لا يجوز لشرطي أن يؤدي التحية لهذا الشيخ..!

فقلت على الفور:

– بل يجوز..! وما يكون الشرطي؟ أليس مسلماً..؟

واشتد الضرب أكثر وأكثر، حتى كاد يغمى عليَّ!

ثم أودعوني بعد ذلك السجن لمدة أسبوع.. ظللـــت خلالهـــا أضـــمد جراحي..! حامدا الله على خدمة الأستاذ سعيد النورسي!

* * *

وقف بديع الزمان كالجبل الشامخ بمحكمة أفيون مع رفاقه المتهمين.. لم تكن التحقيقات الرسمية -رغم شدتها- قد عثرت على أي مادة تدينـــهم.. لكن المحكمة مع ذلك حكمت على الأستاذ بعشرين شهراً..! وعلى بعــض طلابه بمدد متفاوتة، وأُفرج عن آخرين.

"بَيْرَام يُوكْسَل" طالب نور من نزلاء سجن أفيون تذكّر شجونه يومـــا فقال:

كان استنساخ رسائل النور شغلنا الشاغل في السجن. فعندما كنا نقترب من زنزانة الأستاذ نسمع صوتاً كدوي النحل يترنم ليلاً ونهاراً، بين أذكـــار وصلاة ودعاء. كنا نراقب أعمال الأستاذ عن كثب، ففي أوقات متأخرة من الليل يكون مصباحه الخافت مضاء، وهو منشغل بالأذكار والأدعيـــة. وفي هذه الفترة ألف الشعاع الخامس عشر من رسائل النور، المـــسمى برســـالة "الحجة الزهراء". كنا نمر -من وقت لآخر- تحت شباك زنزانته الصغير، وما أن يرانا حتى يلقي إلينا بعلب كبريت، كان يضع داخلها قصاصات مما ألفه من هذه الرسالة. فنلتقطها بشغف ثم ننهمك في استنساخها نسخاً عديدة.. هكذا حتى اكتملت رسالة "الحجة الزهراء"!

* * *

كانت الأرض تدور رويدا نحو تباشير الصيف، وأشعة الشمس الذهبيـــة تنضج الثمار في كل الحدائق والبساتين، فتكسبها ألوانا شتى من الجمال، فإذا بعَبَقِهَا الشهي يملأ كل مكان.. رسائل النور اليوم في كل بيت! تشرق كل يوم بالمواجيد على كل قلب! فأنى للخفافيش إطفاء أضواء النهار؟ وتهيـــأت الدولة لاستقبال عهد سياسي جديد.. فما عاد بمقدور الظـــلام أن يبـــسط سلطانه على الدنيا وحده، وأنى له ذلك والأرض تدور؟!

ولكن أشباح الظلام لم تضع سلاحها بعد، ولم تزل تـــصارع بـــضراوة

شديدة، تبذل جهدها في محاربة النور.. إلا أن سجن أفيون لم يعد قادرا على استيعاب وهج بديع الزمان، فكان أن قررت الأشباح نفيه مرة أخـــرى إلى أميرداغ! كان ذلك في الشهر الأخير من سنة: ١٩٤٩م. حيث قضى هنالك سنتين في إقامة جبرية صارمة.

الفصل السابع

تجليات الحزن الجميل

كنتُ قد اشتقت إلى كلامه الجميل؛ لعلي أجني منه نثار العلم والحكمة. وكان الأمل يملأ قلبي يقينا أنني سوف أراه مرة أخرى! فالسيارة ما تـزال تضرب في طريقها ما بين غرب البلاد وشرقها، من "إسبارطة" إلى "أورفة"، وأنا في حيرة أتردد بين الطين والروح! ففي "أورفة" توفي بديع الزمان، وفي "إسبارطة" اختفت جثته بين الأشجار..! ولست أدري أيهما أقرب إلى مقام التجليات؟

شعرت بشيء عابر كالظل يمر فوق جبيني.. رفعت بصري؛ فإذا بي أرى شيئا يشبه السرير يمتد في الأفق من وراء زجاج السيارة! دققت النظر قليلا؛ فإذا هو نعش يرقد فيه أحد ما! وما هي إلا لحظات حتى تحـرك الراقـد في النعش، ورأيته – يا سادتي – يميط الكفن عن رأسه! نظر إليّ وقال:

– أمَا عرفتني؟

لم أستطع الإجابة فقد كان وجهه أشبه ما يكون بوجه بديع الزمـان؟ ولكن لماذا هو يتجلى في كفن ونعش؟

سألته:

– ألست بديع الزمان النورسي؟

قال بما يشبه الإنكار:

– ومن أكون إذن؟ ألستُ الذي اختفتْ جُثَّتُهُ من قبره؟

أجبت على الفور:

– ولماذا تأتي اليوم بكفنك ونعشك؟

– هذا مقام الفراق يا ولدي.. يجب أن تختم روايتك إلى حين! وَارِثُ السِّرِّ سيتولى سرد البقية من قصة النور!.. وليس لي الآن إلا أن أخاطبك من كفني هذا، فاحفظ عني ضمير الغائب في روايتك مرة أخرى! هذا أوان الحضور الغائب زمنَ الفتنة! يا ولدي.. وليس لك إلا أن ترحل عبر مسالكها!.. فاحذر أن تجرفك الوديان! إنَّ ربيعا تمهيديا ستزهر مواجيده فوق الروابي، ثم يزحف الظلام! فلا تبتئس بما كانوا يفعلون! إن لفصل العشاق عودة أخرى ليست بزائلة! وإن كل فصول الدنيا سترحل نحو ربيع أبدي! فأنشد قصيدة الأمل جهرا..! ولا يغرنك تقلب خفافيش الظلام في البلاد!

حكاية: بكاء النوارس والحمام

قال لي:

كان تولي الحزب الديموقراطي السلطة في البلاد سنة: ١٩٥٠م علامةً على أن إبان نضج ثمار النور قد حلت بواكيره.. فجَنَيْنَا باكورة السياسة التي ساست السياسة ولم تشتغل بالسياسة! حيث أُعلن العفو العام عن سائر المعتقلين السياسيين، ورُفع الحظر عن الأذان الشرعي.. وانطلقت المآذن تصدح بالبكاء فرحا، بعد نحو ربع قرن من الاختناق؛ في محاولة مريرة لإخراس صوت السماء..! وامتلأت القباب والمآذن بأصداء الحداء.. رحيلا بقوافل العاشقين إلى منازل الأحبة، فيا طيور غردي! ويا حمائل زغردي! ويا جبال أَوِّبي وأَوِّبي..!

– الله أكبر..! الله أكبر..!

لقد كان يوما مشهودا..! ربع قرن والقلوب معتقلة في صدورها.. ولا صدى لنوارس اسطنبول سوى البكاء والنحيب..! ربع قرن والهداهد ممنوعة من إلقاء خبر النور.. ولا الحمائم قادرة على حط أرجلها النحيفة على أشرعة سفن ضربت في البحار على غير هدى!

ثم تدفق الأذان فجأة!

– الله أكبر..! الله أكبر..!

أحقا ما تسمع يا ولدي..؟ هذه مآذن "الفاتح" تتكلم بلغة الطير من جديد! وهذه القباب ترجع الصدى حلما صادقا كانبلاج الفجر! الأصوات المشوقة بأريج الجنة تكسر أغلالها، وتنطلق بقوة، تربط بين الأرض

والسماء.. كل المساجد الآن تعلن عرسها للعالمين: مسجد السلطان أحمد، مسجد السليمانية، مسجد بايزيد، مسجد الفاتح، مسجد أبي أيوب الأنصاري..! وانتشر الصدى من مسجد "أولو جامع" بأورفا إلى مسجد "أولو جامع" ببورصا!

كانت مآذن مسجد السليمية بـ"أديرْنَه" ترمي بأصدائها خبرَ الفَرَجِ إلى الطيور السجينة في أقفاصها الضيقة بدول البلقان.. فترد الحمائم السلام على أبراج الثغور..! وتلتقط النوارسُ شجاه من أمواج البحر الأسود، فترحل به بكاءً أبدياً يذرع البلاد، ويغنيها أغرودة النصر الحزين من بحر "مرمرة" بُعَيْدَ غروب الشمس، إلى بحيرة "وان" قبل شروقها..!

– الله أكبر..! الله أكبر..!

ولأطياف العابرين في كل الأزقة والدروب خشوع رهيب.. وقف الشَّعر في كل الأجسام المتوضئة! وتسمرت الأقدام في أماكنها! فمن ذا قدير على المشي وقد انجذبت القلوب إلى أعلى؟ وضربت الأجنحة نحو السماء ممتطية كلمات الأذان؟ من ذا قدير على مغالبة تيار الكهرباء؟ ومن منكم سادتي يستطيع صد البكاء؟

الحافظ محمد إمام مسجد صغير.. كان قد عاش المرحلتين: العهد العثماني، وعهد الظلمات، ثم سمع الأذان مرة أخرى.. كانت كلمات التكبير والتوحيد تضرب بأمواجها ضفاف قلبه العليل فلم يتمالك أن انخرط في نشيج عميق! كان صدره الضعيف يهتز كالمرجل، وكانت يداه المرتعشتان تمسحان سيل الدموع بمنديل قديم، حتى ما عاد يمسح المنديل شيئا؛ بما صار عليه من بلل! ولم يزل كذلك حتى غاب في الصلاة! حال وأية حال! بكى محمد وهو لا يدري أكان ذلك حزَناً على ما فات؟ أم سرورا بما هو آت؟!

أَبَكَتْ تِلْكُمُ الْحَمَامَةُ أَمْ غَنَّـ ـتْ عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا الْمَيَّادِ..؟!

....

وأماط الكفن مرة أخرى عن وجهه، ثم رفع رأسه قليلا كأنما يتوسد شيئا، فقال:

.. ثم أُغلقت قضية رسائل النور يا ولدي؛ وشملها قانون العفو العام. ولكن هيئة المحكمة في أفيون لم تبرئ الرسائل بعد بقرار رسمي، بل تشبثت بقرار مصادرتها!.. كانت تلك محاولة يائسة من أشباح الظلام. فمحكمة الاستئناف نقضت القرار، ثم اضطرت محكمة أفيون بعد ذلك إلى إصدار قرار البراءة ورفع المصادرة. ولكن محكمة الاستئناف نقضت قرار محكمة أفيون مرة أخرى؛ لنقص في الأصول الرسمية وطلبت تقريرا من رئاسة الشؤون الدينية حول الرسائل، فجاء التقرير إيجابياً. واستمر الحكم على الرسائل مضطربا بين المكاتبات الرسمية حتى سنة: ١٩٥٦م، عندما قررت محكمة أفيون براءة "رسائل النور" بالإجماع، بعد ضغوطات متعددة من هنا وهناك، فأصبح ذلك قراراً نهائياً قاطعاً.

وأخيراً رُفع الحظر عن "الرسائل"، فصار طبعها ونشرها مسموحاً به في كل مكان!

مقام المحاكمات الحرة

كان صوته يضعف شيئا فشيئا، ثم رأيته يرد الكفن إلى وجهه وهو يقول: وداعا!

ناديته فزعا:

- سيدي! أرجوك! إن القصة لم تكتمل بعد..!

مد يده من تحت الكفن وكأنما هو يشير إلى جهة ما، ثم مضى النعش في الهواء يسرب بين الأشجار حتى اختفى!

هاتفت "آبي" مدرسة النور بإسطنبول وسألته:

- آبي! كيف أكمل روايتي وقد ضاعت مني السنوات الأخيرة..؟

قال لي:

- شريط السنوات الأخيرة يتجلى حيث اختفى نعش بديع الزمان!

قلت:

- ذلك ما كنا نبغي. وأمرت السائق بالتوقف فوراً، ثم انطلقت أشق المجهول راكضا بين الأدغال فردا.. حتى إذا بلغت مطلع الشمس وجدت شيخا كبيرا يجلس على حصير قديم، ويعد حبات سبحته ذِكْراً جهرياً. سلمت عليه ثم سألته:

- أنّى أجد بقية قصة النورسي يا سيدي؟

قال:

ويحك! أأنت أنت؟ لطالما انتظرتك بهذا المكان! أنا تلميذ بديع الزمان يا ولدي.. فاجلس!

قال لي:

لم ينته زمن النفي والاعتقال -يا ولدي- إلا بعد أن بلغ بديع الزمان الرابعة والسبعين من عمره، ثم صار حرا طليقا.. لكن تحت رقابة مستمرة، فالعهد الجديد جاء بمحن من نوع آخر، كان مَدُّ الظلمات قد تقهقر نسبيا بدون شك، فكان أول عمل فكر فيه الشيخ هو تفقد طلاب النور في كل مكان، والنظر إلى غلال سنوات النفي والاعتقال ماذا أثمرت.. وانطلق -رغم شيخوخته- في أول سفر حر إلى مدينة "أسكي شهر". كان ذلك في بداية شتاء ١٩٥١م. فاستقر بها نحو شهر ونصف. ثم توجه إلى مدينة إسبارطة، وبقي فيها أكثر من شهرين يتفقد طلابه من كل الأجيال ويجيب عن أسئلتهم في فقه الدين والدعوة.

الفتوحات اللاتينية

الحروف اللاتينية هي الحروف التركية الجديدة، التي حلت محل الحرف العربي؛ رغبة من أشباح الظلام في فصل أمة عن تراثها العظيم! فنشأ جيل جديد من الأتراك لا يستطيع الكتابة ولا القراءة إلا بالحرف اللاتيني؛ ووُضعت الحروف العربية في متاحف اسطنبول، مهملة بين ركام المخطوطات باسم "اللغة العثمانية"! فبقيت لذلك رسائل النور تدور حول جيل مهدد بالانقراض، إلى أن بادر طالب جامعي ذكي بإسطنبول، فاقتحم الباب على الشباب، ونشر رسالة "مرشد الشباب" بالحروف اللاتينية، لنشر حقائق النور بين الأجيال الجديدة التي حرمت من التعليم بالحرف العربي. وأقبل الطلبة الجامعيون على حركة النور أفواجا... فهاج غيظ الأعداء مرة أخرى، وأقاموا دعوى جديدة ضد الأستاذ النورسي بحجة مخالفته للمادة (١٦٣) من الدستور التركي، وهي المادة التي تحظر أي نشاط يستهدف إقامة الدولة على أسس دينية.

استُدعي بديع الزمان إلى اسطنبول في حالة سراح للمثول أمام محكمة الجزاء الكبرى، وحُدِّد يوم: ٢٢ يناير ١٩٥٢م لانعقاد هيئة المحكمة. توجه الأستاذ بنفسه إلى اسطنبول، وكانت هذه أول زيارة لهذه المدينة الحزينة بعد غيبة دامت سبعة وعشرين عاماً!

اسطنبول... وَاحَرَّ قلباه عليكِ يا مدينة الأحزان..! سبعة وعشرون عاما -يا سادتي- والزمان يسجل على صخرة التاريخ أنه لا بد من اسطنبول مهما طال السفر!.. خرج منها بعد سيطرة الظلام على البلاد، هائما على وجهه يبحث في نفسه عن "سعيد الجديد".. ما أشجاها من مدينة! فكم مرة

دخلها دخول الفاتحين! وها هو اليوم يدخلها دخول المتهمين! بيد أن الشعب لا ينسى أبطال النور وإن جار الظلام.. فما أن سمع أبناؤها بقدومه حتى تقاطروا عليه زُمَراً، وازدحم السير في الطرقات المؤدية إلى فندقه المتواضع بالمدينة القديمة، لا تكاد حركة الأقدام تخفت جيئة وذهابا.. إلى أن كان يوم انعقاد المحكمة، فجاء الأستاذ يحف به المئات من طلبة النور..!

كانت قاعة المحكمة قد امتلأت بالجموع من طلاب النور، ومن الذين حضروا لرؤية هذا العالم الجليل الذي شغل الدنيا كل هذه السنين! وامتد الازدحام من المحكمة إلى الشارع العام.

بدأ الادعاء العام بقراءة تقرير الخبراء المكلفين بتدقيق رسالة "مرشد الشباب". فكان الاتهام "أن المؤلف يحاول في رسالته هذه نشر الفكرة الدينية، وأنه يحاول رسم طريق خاص للشباب بواسطة هذه الأفكار. وأنه يدعو النساء إلى الاحتشام، وعدم التبرج؛ لأن ذلك يصادم الفطرة، ويخالف أحكام الإسلام وآداب القرآن. كما أنه يدعو إلى تدريس الدين، وهو بذلك يؤيد إقامة نظام الدولة على أسس دينية..!"

تلك يا سادتي كانت هي القضية، ثم رفعت الجلسة الأولى.

ثم كان للمحكمة بعدها جلستان استمع فيها القاضي إلى صاحب المطبعة التي طبعت الرسالة، وإلى شهادة الشرطة، وإلى الطالب الجامعي ناشر الرسالة، واعترض خلالها الأستاذ على تقرير الخبراء. كان الازدحام خلال الجلستين أشد من الأولى؛ إلى درجة أنه تعذر على الشرطة تنظيم الناس والسيطرة على جموع المتدافعين من قاعة المحكمة إلى الشارع العام، جماهير من طلبة الجامعات وعموم المحبين.. فاتخذت الحكومة في الأخير احتياطات أمنية مشددة، فوزعت المئات من رجال الشرطة خارج المحكمة وداخلها، للسيطرة على الآلاف من محبي الأستاذ وطلابه.

وما أن أنهى محامو الدفاع مرافعاتهم حتى توجه رئيس المحكمة إلى بديع الزمان متسائلاً:

– هل هناك شيء ترغب في قوله، زيادة على ما قلت؟

– نعم، أرجو أن تسمحوا لي بزيادة كلمة واحدة..

– تفضلوا ..!

– إنني لست أهلاً لكلمات الثناء التي أضفاها عليَّ موكلي المحترمون. إنني لست سوى خادم عاجز للقرآن!

كان القاضي ينظر إلى الرجل في قفص الاتهام نظرات يكسرها الخجل، وكأنما يشعر أنه هو المتهم لا بديع الزمان. صَمَتَ قليلا.. لحظة صمت عبرت عينيه الذاهلتين، لكن – لقصرها – لم ينتبه إليها أحد، فكأنما هي لحظة تأمل خاطفة بالنسبة لجمهور الحاضرين، لكنها كانت زمنا مطلقا بالنسبة إليه. فقد انفتح قلبه لأول مرة في حياته على بحر لا ساحل له ورأى رجلا لا كالرجال... واندفعت الأمواج تهدر صارخة من أعماق قلبه: لله دره من عملاق عظيم! متهم يتبرأ من دفاع موكليه! فأي عبقرية هذه التي تسكن روحه؟ وأي إخلاص هذا الذي يصنع جنون الأولياء!؟ ألا تعس بلد يحاكم رجلا مثل بديع الزمان..!

....

وبعد لحظات من المشاورات أعلنت المحكمة على لسان رئيسها قرار البراءة بالإجماع!

واهتزت القاعة بالتصفيق... كانت الأصداء أقوى من أن تتحملها الآذان.ز. وتدفق الجمهور المنتظر بالخارج مرة أخرى واختلطت الأصوات، لغطاً لا تكاد تنجو منه جملة سليمة تصل إلى الأفهام، إلا جملة واحدة فريدة: براءة بديع الزمان!

ثم اكتسب القرار درجة القطع؛ حيث إن المدعي العام لم يقدم طلباً للاستئناف، وخسر المرجفون الدعوى...

ثم خرج الشيخ الفتى بيد مرفوعة إلى أعلى تقبض بقوة على أعنة الشمس، وغادر اسطنبول مستأنفا رحلته الأبدية بين المدائن والقرى..

آخر المحاكمات تعلن يأس الظلام..!

تحرك الشيطان غاضبا على جبهة أخرى.. وانطلقت حملات محمومة في الصحف ضد حركة النور، تنبه الطغاة إلى توسعها في البلاد، وإلى خطرها على مستقبل العلمانية. ففُتحت دعوى جديدة في مدينة "صامسون" سنة ١٩٥٣م، ضد النورسي؛ بسبب مقالة له نُشرت في جريدة "الجهاد الأكبر" تحت عنوان "أكبر برهان". وطلب المدعي العام مثول الأستاذ أمام محكمة "صامسون"، ولكنه كان آنذاك شيخا مريضاً، يخطو بمشقة نحو السادسة والسبعين من عمره وبالرغم من حصوله على إعفاء طبي من قضاء "أميرداغ"، وكذلك من مدينة "أسكي شهر"، إلا أن محكمة "صامسون" أصرت على حضوره.

فتوجه الشيخ المريض إلى اسطنبول في طريقه إلى صامسون. ولكن مرضه اشتد بعد وصوله إلى اسطنبول، فلم يعد بإمكانه مواصلة السفر فاستصدر تقريراً طبياً من الهيئة الصحية بها، وأرسله إلى محكمة صامسون فقررت أن تقوم محكمة اسطنبول باستجواب الأستاذ نيابة عنها.

وصرخ الأسد في وجه هيئة المحكمة بإسطنبول مرة أخرى:

" أقول لمنتسبي العدل كلهم الذين يبتغون العدل: لا مفر -في محكمة الحشر الكبرى- من العقاب لمن يذيقونني هذا العذاب الوجداني منذ سنين بحججهم التافهة، وبمخالفتهم الغريبة للقانون. أولئك الذين يخرقون القانون باسم القانون! نعم.. أفي الأرض كلها قانون يتهم رجلاً منعزلاً منذ خمسة وثلاثين عاماً، عازفاً عن المدن والأرياف، بأنه لم يضع فوق رأسه قبعة الإفرنج؟.."

وأصدرت المحكمة قرارها بالبراءة مرة أخرى. فيئس الأعداء من مقاضاة رجل لم يعد أحد قادرا على سجنه أو معاقبته. وانتهت قصة المحاكمات يا ولدي في سيرة النور.

....

قضى الأستاذ في اسطنبول ثلاثة أشهر تقريباً، ثم قرر السفر بعدها إلى "بارلا".

مقام الشوق

ولـ"بارلا" في القلب حب عتيق!

وانطلقت سيارة الأستاذ مع خواص طلابه نحو "بارلا" مدينة الذكريات. وتخيروا محطات الاستراحة الجميلة على مشارف الأحبة، هنا وهناك، فتوقفوا "بأميرداغ" ثم توجهوا إلى "أسكي شهر" ومنها إلى "إسبارطة"، ثم إلى قرية الأشجان "بارلا".. تلك القرية التي شهدت أول انبثاق لحركة النور.. القرية التي سيق إليها منفيا قبل خمس وعشرين سنة! فبارك الله له في أيامها وكان منها ما كان..! ها هو ذا يعود إليها الآن حرا طليقا، في يوم ربيعي جميل، رائق الأنوار والأطيار، حاملاً معه ثمار النصر هدية لبارلا وأهلها.

وتخرج البلدة كلها لاستقبال الأستاذ، الرجال والنساء والأطفال..! يهتفون جميعا وكأنهم لا يصدقون: جاء الشيخ.. جاء الشيخ! كان عشرات الشباب يتدافعون بشغف شديد من أجل الوصول إليه.. لم يكونوا قد رأوه من قبل، ولكن قصصه الغريبة تملأ مخيلاتهم الفتية، مما تلقوه من حكايات الآباء والأمهات، في ليالي الشتاء الطويلة! فعشرون عاما من السجون والمنافي -بعد بارلا- كفيلة بظهور جيل من الشباب الجديد، الذي ولد بعد الرحيل أو قبله بقليل! وها هي ذي القرية اليوم بكاملها شيبا وشبانا، مدرسة نورية كبرى تستقبل أستاذها من جديد!

وتقدم الشيخ نحو البيت الذي سكنه ثماني سنوات كاملة، ذلك البيت الصغير المتواضع الذي كان أول مدرسة نورية.. وقبل أن يصله مَرَّ أمام بيت

تلميذه القديم "مصطفى جاويش"، ذلك النجار المخلص الذي صنع له غرفة الشجرة، الشجرة المحبوبة التي قضى بها أياما وليالي من العبادة والتأمل وكتابة رسائل النور. رأى قفلا كبيرا على باب دار تلميذه الوفي. وعلم أنه قد توفي سنة ١٩٣٧م، عندما كان الأستاذ يعيش في منفاه بـ"قسطموني"!.. فلم يشعر إلا والدموع تنهمر من عينيه في صمت عميق!

آه لها من أيام يا مصطفى جاويش..! رحلت عنا وما أتيح لنا أن نودعكَ! لا بصلاة ولا بكلمة وداع! فرحمة الله عليك، رحمة الله عليك! ولولا أمل اللقاء الأبدي هناك لتفطر قلبنا حَزَناً عليك!

....

ثم وصل إلى بيته القديم، فوجده كما كان، فقد حرص أهل بارلا على حفظه كما هو؛ وفاء لأستاذهم المحبوب، ووجد شجرته الحبيبة ما تزال قائمة كما كانت، ها هي ذي تنتصب أمامه مرحبة.. كانت أغصانها العظيمة تتدلى بين يديه، وكأنما تدعوه إلى عناق أبدي!.. جاشت نفسه بالعواطف والأشجان، فطلب من الأهالي وجميع طلابه أن يتركوه وحيدا.. وتراجعت الجموع بهدوء إلى وراء.. بينما تقدم هو خطوات إلى أمام، ثم ارتمى بصدره الضعيف على جذع الشجرة الضخم، محتضنا إياها بكلتا يديه، تماما كما احتضن الرسول ﷺ جذع منبره القديم، ثم أجهش بالبكاء..! كان شهيقه المتقطع يكاد يخنق نَفَسَه اللاهب!

ألم تكن هذه الشجرة جزءا من تاريخ حياته؟ ألم يطرده الناس فآوته؟ وعَرَّوْهُ فكسته؟ ثم هجروه فآنسته؟! فحق لها إذن أن تفوز بصداقته المخلصة، وأخوته الوفية ومحبته الشجية! أوَليست هي التي شاركته أذكارَه لياليَ وأياما؟ كم رددت مناجاته بالليل الساجي والناس نيام! وكم كفكفت دموعه بأوراقها الخضراء! وكم بللت خديه بأندائها فاختلطت دموعُه بدموعها!

آختْ بينه وبين الأطيار فما عادت تنفر منه، وكأنه واحد من أنواعها! فمنها تعلم منطق الطير، ولغات الرياح، وعنها أخذ دروس الصبر بمختلف تجلياتها بين شتاء ومصيف!

بعد ذلك دخل بيته ثم صعد إلى غرفته، واختلى بنفسه هناك مدة ساعتين تقريباً. كان يستعيد ذكريات أيامه التي قضاها هنا ويبكي، والناس المنتظرون في الخارج يسمعون نشيجه فتدمع أعينهم في صمت عجيب!

كان بكاء الشيخ مشتركا بين شعورين: شعور بالحزن على مضي تلك الأيام الخوالي من ليالي الدروس النورية بهذه الجبال النائية عن العالم، وما فتح الله عليه فيها وبها من بركات وكتابات في هذه الأجواء الصافية الجميلة، فقد مضت ومضى معها غير واحد من أصحابه وطلابه الذين سبقوه إلى عالم الآخرة. وشعور بالفرح بما آلت إليه دعوة النور - بسبب نفيه إلى هذه القرية المباركة - من انتشار في كل مكان.. فها هو اليوم يعود إلى "بارلا" ورسائل النور حرة طليقة، لا حظر عليها ولا مصادرة! وقد كان هنا - قبل عشرين عاما - يكتبها مختبئا بين أغصان شجرة! ثم يرسل وريقاتها إلى طلابه القلائل آنذاك لتستنسخ بليل، ثم تُهَرَّبُ إلى المدائن والقرى!

ثم تَذَكَّرَ بحيرة "أغريدر" الجميلة، فانحدر نحوها يمشي برفق، وكأنما هو يخطو على وقع الشجا.. حتى بلغ شاطئها الحالم. فتقدم نحوها بهيأة توحي للناظر وكأنه يريد معانقة الماء!.. غطس رجليه في موجها الصافي للحظات.. ثم مضى يمشي على الساحل في خشوع. وبعد زمن من التأمل قضاه مشيا خارج إطار الزمان؛ التفت إلى تلميذيه الوفيين زبير ومصطفى صنغور، فقال بصوت محمول على نَفَسٍ عميق:

"هنا بهذا المكان، قبل ثلاثين سنة تقريبا، وفي هذا الموسم بالذات، حيث تتفتح أزاهير أشجار اللوز والرمان، كنت أتجول ما بين تلك البساتين الخلابة

وهذه البحيرة الجذلى، أتأمل في مياهها الزرقاء حينا، وفي تلك السفوح الخضراء أحيانا أخرى، فتذكرت حقيقة البعث، والحشر ليوم القيامة، ثم جالت بخاطري حقائق الآخرة فياضة بقوة!.. مما كانت التيارات الملحدة يومئذ تُصوره للطلاب في المدارس والجامعات على أنه مجرد خرافات وأساطير بالية، لا سند له من دليل عقلي أو علمي! فجعل قلبي يغلي ويفور.. ولم أدر كيف انتصبت بخاطري شجرة الآية القرآنية العظيمة: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ!﴾ (الروم: ٥٠)، فانجذبتُ إلى أنوارها الوهاجة، وبدأتُ أرددها بصوت عالٍ، في جيشان روحي كبير، زهاء أربعين مرة..! وأنا أذرع الساحل كالمجنون جيئةً وذهاباً، في نشوة روحية عميقة، ملأت قلبي بما لم يخطر لي -من قبل- على بال، من حقائق هذه الآية العظيمة! ثم فاضت الواردات على روحي تَتْرَى، فأخذتُ أُملي أنوارَها على طالب النور الوفي الحافظ "توفيق الشامي"، فكانت تلك هي "رسالة الحشر".. أول رسالة من (كليات رسائل النور)"!

قال ذلك، واغرورقت عيناه بالدموع..! ثم استأنف قائلا:

نعم خليليَّ..! بهذا المكان وُلِدْتُ حقيقةً، فاعذراني إذا غلبني الشجا!..

ثم صمت، ومضى يخطو الهوينى على طريق النور..

مقام الوصايا: معالم آخر الطريق

الْمَعْلَم الأول: عيد رسائل النور: ١٩٥٦م

نصف قرن من الزمان والنورسي يقاسي شتى أنواع المعاناة من أجل شيء واحد، هو حرية الكلمة! نصف قرن وهو يُهَرِّبُ تغاريده من شجرة إلى شجرة، ومن تَلَّة إلى أخرى.. نصف قرن وهو يجاهد كيد الاستبداد وأشباح الظلام. منذُ العهد الأول، أيام الحكم الصوري للسلاطين وسيطرة الاتحاديين على قرارات القصر، حتى العهد الجمهوري والمواجهات المباشرة معهم هم أنفسهم، لكن باسم الدولة والقانون! وما كان بديع الزمان يسعى إلا لإلقاء البلاغ القرآني، ونشر كلمةِ النور.. ألا ما أسوأ أن تتحد الغربان ضد عصفور صغير من أجل أنه غرد على غير هواها، فطاردته بشراسة رهيبة خمسين سنة من الزمان! فناضل العصفور من أجل ذلك وجاهد حتى أذن الله للشمس بالشروق من جديد، فتعبت الغربان وما تعِب العصفور.

"اليوم عيد رسائل النور..!" هكذا تكلم بديع الزمان بعد صدور قرار محكمة أفيون برفع الحظر عن الرسائل، والسماح بطبعها ونشرها، فشَمَّر طلاب النور عن سواعدهم، ونشطت المطابع في كل من اسطنبول وأنقرة وصامسون وآنطاليا، في حركة قوية من الطبع والإصدار. كان يُؤتى بالملزمات إلى الأستاذ لتصحيحها، فيقول والسرور يملأ كيانه: "هذا هو عيد رسائل النور..! فلطالما انتظرت هذا اليوم العظيم! لقد انتهت مهمتي إذن يا أبنائي، وسأرحل قريبا..!"

وبقي نشر رسائل النور معلما من معالم طريق النور، تهتدي به الأجيال بعد بديع الزمان.

الْمَعْلَمُ الثاني: سياسة تَسُوسُ السياسة ولا تشتغل بالسياسة!

"السياسة"..! تلك الكلمة البراقة، ذات الألوان والأضواء! التي تجذب إليها كل شيء! الفراش والجنادب والصراصير، وضروبا من العقارب أيضا يعاديها "سعيد الجديد" منذ أكثر من أربعين سنة، ويعلن كلمته المشهورة: "أعوذ بالله من الشيطان ومن السياسة!".. فيبني بذلك أكبر صرح للسياسة! وها هو ذا يضع لها الآن معلمها الآخير: النور يضيء الطريق للسياسة ولا يزاحمها. وكان ذلك بفعله الإيجابي الحكيم في ممارسة حقه في التصويت، في وقت ظن الناس أن إضرابه عن السياسة له صورة مقاطعة سلبية مطلقة. من أجل ذلك خرج على الناس وهو في آخر عمره، عندما جرت الانتخابات العامة في تركيا سنة ١٩٥٧م، لينشد أنشودة الحرية. كان هناك حزبان رئيسان في البلاد يتنافسان على الحكم الحزب الديموقراطي، وحزب الشعب الجمهوري، مع أحزاب صغيرة لا تؤثر كثيراً في سير الانتخابات. وبالرغم من أن الحزب الديموقراطي لم يكن حزباً إسلامياً، إلاّ أن جو الحرية الذي ساد تركيا عقب توليه الحكم من قبل، وانحسار موجة العداء الوحشي للإسلام، جعل الأستاذ سعيد النورسي - الذي قاطع الحياة السياسية الحزبية - يعطي صوته للحزب الديموقراطي ليحول دون مجيء حزب الشعب إلى السلطة.

فكان ذلك معلما آخر من معالم حركة النور: صنع الرأي العام الإسلامي بهدوء من خلال التربية الإيمانية، حتى إذا نضجت الثمار وجب ترجيح كفة الخير، أو دفع الشر بالأقل شرا.

الْمَعْلَم الثالث: النظرة الحرام تمحق البركة!

نعم! يا أخوتي كما أن ناراً صغيرة، بل حقيرة، من عود كبريت واحد؛ تحرق غابة عظيمة كثيفة الخمائل والأشجار، بصورة تدريجية، وتجعلها أثراً

بعد عين؛ فإن النظر إلى النساء يمحق بركة المؤمن، ويحرق عمله اليومي شيئاً فشيئاً، فلا يُبْقِي له من نور!.. وأخشى أن تكون عاقبته وخيمة!

الْمَعْلَم الرابع: خُذْ مَا صَفَا دَعْ مَا كَدَر..!

"حبة واحدة من صدق تبيد بيدراً من الأكاذيب. وحقيقة واحدة تهدم صرحاً من خيال..! فالصدق أساس عظيم وجوهر ساطع. وربما تخلى عن مكانه للسكوت، إذ لاحق لك أن تبوح بالصدق كله إن كان فيه ضرر، ولكن لا مكان للكذب قطعاً، مهما يُظن فيه من فائدة! فاتخذ هذه القاعدة دستوراً لك: "خذ ما صفا دع ما كدر!" وانظر بحُسن يكن فكرك حسناً، وظُن ظناً حسناً تجد الحياة لذيذة حسنة. إن الأمل المندرج في حسن الظن ينفخ الحياة في الحياة! بينما اليأس المخبوء في سوء الظن ينخر السعادة ويقتل الحياة! لقد كنتُ إذا ما دخلتُ بستاناً لا أجني منه إلا أجود الثمرات. وإذا ما وقع بصري على فاكهة فاسدة أعرضت عنها، آخذاً بالقاعدة: "خذ ما صفا دع ما كدر"... هكذا أنا، وهكذا أرجو أن يكون قرائي أيضا..!"

فيا ولدي..! هذه الحياة أمامك، وهذه رسائل النور بين يديك.. فخُذْ مَا صَفَا دَعْ مَا كَدَر..!

الْمَعْلَم الخامس: زيارات المحبة

الشجرة التي تُغرس في بيئة قاحلة غير ممطرة، ثم لا تُسقى بماء تموت. ورغم أن رسائل النور الآن في كل مكان فإن بديع الزمان سن لطلابه معلم "الزيارات" -من حين لآخر- إلى هذه الجهة أو تلك؛ لتفقد مدارس النور أو بذر غراسها. فالرسالة لا بد لها من رسول، يحمل بنفسه وهج الرسالة بين الناس، يرون فيه حقيقتها أحوالا وتجليات؛ وإلا بقيت الأوراق ملازم في

ركام الرفوف، وإنما حياة الكلمات رهينة بالحياة المعنوية لأصحابها. ولذلك انطلق النورسي في زيارات أخيرة إلى مناطق شتى من البلاد؛ لتسليم الأمانة إلى الأجيال الجديدة، ولبيان أن هذه الفسائل ما ينبغي إهمالها ولو قامت عليك الساعة.

كان قد جاوز الثمانين عاما من عمره عندما انطلق في رحلته الأخيرة، وكان لحظتها يودع الأيام الأخيرة من سنة ١٩٥٩م، ويستقبل فواتح السنة الأخيرة من عمره ١٩٦٠م، كان وكأنه يودع طلابه وأحبابه في أسفار سريعة متلاحقة، والشرطة تلاحقه بجنون، ما بين "أنقرة"، و"أميرداغ"، ثم "قونيا" و"اسطنبول" التي بقى فيها يومين، ثم رجع إلى "أنقره" مرة أخرى، وهناك ألقى على طلابه "الدرس الأخير". ثم أجرى معه مندوب صحيفة "تايمس" اللندنية تحقيقاً صحفياً طويلاً، نُشر لحظتها. ثم رجع إلى "قونيا"، وفي اليوم نفسه توجه إلى "إسبارطة". مما أثار رعب خفافيش الظلام مرة أخرى، فأخذت تشن حملة إعلامية عنيفة عليه. لذلك ما أن رجع إلى أنقرة حتى أبلغته الحكومة بأن من الأفضل أن يقيم في أميرداغ. وفعلاً رجع الأستاذ إلى أميرداغ، ولكنه طلب من الحكومة أن تسمح له بالإقامة شهراً في أميرداغ وشهراً في إسبارطة. وزار خلالها أفيون مرة واحدة.

إشارات الدرس الأخير..

أنقرة اليوم تختم دائرة الشمس، وترسم الشعاع الأخير.. كان الطـلاب متحلقين حول قُطرها الوهاج، وكان الشيخ يتقطر جبينه عرقا.. فهذه آخر الومضات، هو الآن يطرزها بشفتين مرتعشتين، لتكـون آخـر فسيفـساء لرسائل النور، ومصابيح تنير آخِر الطريق بقوة؛ عسى أن يبقى بريقها قويـا في أعين الجيل؛ حفظا له من الانحراف وراء الخدع المقبلة..! كانت الكلمات تتنـزل مثل الشحنات الكهربائية على المجلس المتلقي بخشوع:

إخواني الأعزاء..!

إن وظيفتنا هي العمل الإيجابي البنَّاء وليس العمل السلبي الهـدام.. إننـا مكلفون بالتحمل بالصبر، والتقلد بالشكر، تجاه كل ضيق ومشقة تواجهنا.. وذلك بالقيام بالخدمة الإيمانية البناءة التي تثمر الأمن والاستقرار الداخليَّيْن. نعم، إن في مسلكنا قوة، إلا أننا لم نقم باستعمالها إلا في ضـمان الأمـن الداخلي، أو في مواجهة الهجمات الخارجية. إن أعظم شروط الجهاد المعنوي هو عدم التدخل في شؤون الربوبية، أي فيما هو موكول إلى الله..

إخواني! إن مرضي قد اشتد كثيراً.. ولعلي أموت قريباً، أو أعجز عـن الكلام مطلقا. فلا تهاجموا العلماء الذين ظنوا بعض إلجاءات العصر ضرورة؛ وركنوا إلى البدع! لا تصادموا هؤلاء المساكين..! فنحن لا نقوم باستعمال قوتنا في الداخل...

إننا لا نلتفت إلى الدنيا. فإنْ نظرنا إليها فمن أجل مـساعدة أهلـها. ولذلك فإننا نسامحهم حتى ولو ظلمونا. وقد ثبت أن الديموقراطيين منهم لا

يعادون الدين؛ فعلى إخوتي في الآخرة أن يمتنعوا عن الهجوم على أخطائهم، وليعدوها من قبيل أهون الشرين، وليقوموا بالعمل الإيجابي دائماً؛ لأن العمل السلبي ليس من وظيفتنا. وما دام قسم من السياسيين لا يُلحِقـون الـضرر برسائل النور، بل متسامحون قليلاً؛ فانظروا إليهم كأهون الشرين؛ من أجل التخلص من أعظمهما. لا تمسوهم بسوء! بل حاولوا أن تنفعوهم!

إخواني! ربما أموت قريباً.. فخذوا حذركم! إن لهذا العصر مرضاً داهماً، ألا وهو الأنانية وحب النفس! وإن أول درس نوري تلقيتـه مـن القـرآن الكريم، هو التخلص من الأنانية؛ فلا يتم إنقـاذ الإيمـان إلا بـالإخلاص الحقيقي.. وما دام الإخلاص التام هو مسلكنا فلا بد من التضحية والفـداء ليس بالأنانية فحسب، بل حتى لو مُنِحَ لكم مُلك الدنيا كلها وجب عليكم تفضيل حقيقة إيمانية واحدة على ذلك الْمُلك !"

واشتعلت العيون بالنور، فخرجت تبشر بالفتح العظيم بين الـدروب.. كانت "أنقرة" تحتفل بالدرس الأخير؛ فتحا مبينا لعاصمة الأشـباح، الـتي حاربت النورسي زهاء نصف قرن من الزمان! "أنقرة" هذه المدينة العـصية، هي اليوم تتآخى بمجلس النورسي مع "بارلا" تلك القرية النائية التي شهدت أول ميلاد الشمس، فها قد جاء نصر الله والفتح؛ فسبح بحمد ربك يا بديع الزمان واستغفره؛ استعدادا للرحيل..!

مقام الرحيل..

كان الفصل ربيعا.. ففي شهر مارس من سنة ١٩٦٠م، طرق بابَه بمدينة أميرداغ طارقٌ غريب، كان ذلك يوافق أوائل أيام رمضان، وأصاب طلابَ النور شعورٌ متردد بين الخوف والرجاء، كانت الرياح الربيعية ترسل عبر ثقوب الباب صوتا شجيا أشبه ما يكون بالبكاء.. بينما شعر الشيخ بحمى رقيقة تسري في بدنه شيئا فشيئا، فلم يعبأ بذلك كعادته، واستمر في وعظ طلابه الأوفياء..

وبعد أيام من مغالبة الحمى اشتد عليه المرض، حتى غاب عن وعيه عدة مرات. كان الليل قد مضى نصفه، عندما كان تلاميذ الأستاذ يتناوبون على خدمته، ويراقبون حالته، وفي بداية شطر الليل الآخر خفت وهج الحمى، واستغرق الشيخ في نوم هادئ، ثم استيقظ قبل صلاة الصبح، فتوضأ واستبدل ملابسه، فبدا للطلاب وكأنه قد عوفي من مرضه تماماً. ولكنه بعد أن فرغ من صلاة الصبح استدعاهم جميعا، فجعل يودعهم واحداً واحداً قائلاً لهم وعيناه تفيضان بالدموع:

- أستودعكم الله يا إخوتي.. إنني راحل!

ماذا بقي لي في هذه الدنيا وها قد سلخت من عمري ثلاثا وثمانين سنة!؟ آن لي الآن أن أُسَرَّحَ من وظيفتي، فلا بد من الرحيل.. هذه رسائل النور عندكم كاملة فما الحاجة إليَّ إذن؟ ذلك ما خفق به قلبي كل هذه السنين قد أودعته بين أيديكم، فدعوني أستريح بقبري في عالم البرزخ الجميل!

وإنما وصيتي الأكيدة لكم يا أبنائي -إذا دفنتموني- ألا يعرف أحد موضع قبري، إلا واحدا أو اثنين منكم..!

وتولت الدهشة وجوه الطلاب فتكلم أحدهم وهو يغرف صوته من بحر البكاء:

- وما الحكمة من ذلك؟ أفلا يستفيد الناس من زيارة قبركم يا أستاذ؟

واسترسل الشيخ في بيان حكمة النور:

- "إن الغفلة الناشئة عن الأنانية وحب الذات في هذا العصر العصيب، تدفع الناس إلى أن يولوا اهتمامهم إلى مقام الميت وشهرته الدنيوية، مثلما عمل الفراعنة في الزمن الغابر على تحنيط موتاهم، ونصب تماثيلهم؛ رغبة في توجيه الأنظار إليهم، فتوجهت الأنظار إلى ذات الشخص، بدلاً من الزيارة المشروعة لكسب رضاء الله ونيل الثواب الأخروي، كما كانت في السابق. لذا فإنني أوصي بعدم إعلام أحد عن موضع قبري؛ حفاظا على سر الإخلاص الذي يسكن رسائل النور."

إن رسائل النور التي حرصتُ على تصفية إخلاصها حيا، ما ينبغي أن أعكر صفوه ميتا!

وانتفض الشيخ في مكانه مرة أخرى، فتجلت القمم العالية من جميع جبال الأناضول، وبدأت تترآى أطيافها متتالية في الأفق، صورا حية للرائي. ثم ضرب البرق مرة أخرى وانتشر الصدى مترددا بين الأعالي:

"يا سعيدُ..! كن صعيدا حتى لا تعكر صفو رسائل النور..!"

والتفت الشيخ إلى طلابه قائلا:

فالصبرَ الصبرَ على آفات الزمان..! فلربما تلبدت السماء بالغيوم أياما، لكن لا سلطان للظلام بعد اليوم.. وانتظروا قليلا، فوارث السر سيظهر

فيكم، لقد خاطبته برسائلي منذ زمان.. كنت في الماضي، وكان هو في المستقبل، وإنما نحن روح واحد! وإني لأراه قادما من هناك؛ ثم مد يده وأشار إلى الأفق البعيد..!

التفتت الأطياف إلى جهة الإشارة فرأوا عجبا! كانت البروق تضرب بسنابكها غرباً، فيركض الصهيل ما بين مدينة "أدِرْنَه" و"إزْمِير"، وتقدم الفاتحُ طليعةَ النور.. كان فتى في مقتبل العمر، ورغم أن ملامحه لم تكن قد وضحت بعد، إلا أن الصورة كانت قادمة، فما أن اشرأبت الأعناق لمحاولة معرفة ملامحه حتى قام بديع الزمان من مكانه وجعل يستعد للخروج، فتلاشت صورة الوارد من الأفق، وقام الطلاب معه جميعا في حيرة متسائلين:

- إلى أين؟

- فأشار: إلى إسبارطة!

وانطلقت السيارة تضرب نحو إسبارطة حتى بلغتها. قضى هنالك أياما أخرى من رمضان، فكان يؤم طلابه في صلاة العشاء، ثم يقوم تلميذه الحافظ "طاهري موطلو" بإمامة الجماعة في التراويح. حتى كان العاشر من رمضان فعاودته الحمى مرة أخرى، وألجأت بدنه العليل إلى الفراش، وبقي ليالي متقلبا بين الغيبوبة واليقظة.

وفي أحد الأيام فتح عينيه المثقلتين بالشيخوخة والمرض، ثم قال لطلابه: سنذهب!!

سأله أحدهم مستغربا:

- إلى أين يا أستاذنا ؟

قال وهو يغالب الحمى:

- إلى مدينة "أورفة"... فاستعدوا للرحيل!!

واضطرب الطلاب فزَعاً..! أورفة؟ كيف يستطيع الأستاذ الصبر على سفر يطوي ما بين غرب تركيا وشرقها؟ كيف يمكنه تحمل هدير السيارة ومشاق الطريق، عبر مسافة يستغرق اجتيازها أربعا وعشرين ساعة!؟

ظن بعضهم أن الشيخ يهذي من المرض! فليس من المعقول أن يخرج للسفر وهو على هذه الحال!.. كانت السيارة في حالة عطل، فذكروا له ذلك بنوع من التثبيط، عساه يغير رأيه في السفر، لكنه أجابهم على الفور:

- هيئوا سيارة أخرى! ألا نستطيع دفع مئتي ليرة؟! إنني مستعد أن أبيع جبتي إذا لزم الأمر! وأدرك الطلاب أن الأستاذ في تمام وعيه، فلم يملكوا إلا الطاعة والامتثال! فأسرع أحدهم إلى استئجار سيارة أخرى، ونزل الشيخ محمولاً بين أيديهم.. حتى إذا أرسوه على مقعده، انطلقت السيارة متوجهة إلى شرق البلاد، نحو مدينة "أورفة" وهي تحمل الأستاذ مع ثلاثة من أخلص طلابه الأوفياء: "بَيْرَام، وحسني، وزبير" رفاق المنافي والسجون.

* * *

الشرق..! هناك طريقي إلى السماء، منه جئت وإليه أعود.. موعدي مع ملائكة الموت الجميل هو هناك، فواشوقاه إلى مواطن الأنبياء! شرق الأناضول يا سادتي منازل للروح.. فهناك جودي نوح، ومنشأ إلياس، ومشفى أيوب عليهم الصلاة والسلام.. أما "أورفة" تلك المدينة الرابضة على حدود الشام، فهي مبعث إبراهيم الخليل عليه السلام. فيها تعلم الكلمات الأولى فأتمهن! وفيها ارتقى منازل الكواكب والنجوم حتى وصل إلى معرفة الله! وفيها ناظَر وانتصر، "فبُهِت الذي كَفَر"! ثم حطم أصنام العقل وأصنام الحجر، ثم أُلقي في النار فكانت عليه بردا وسلاما! وتمت كلمات الله لسيدنا الخليل بأورفة إماما، فأرسل لإتمام كلمات مصر والحجاز؛ إمامةً للناس أجمعين!

فالرحيلَ، الرحيلَ يا أبنائي..! إن أطياف النور القادمة من السماء قد نظمت لي استقبالا ملائكيا هناك، فإلى "أورفة" إنهم ينتظرونني؛ فلا يجوز أن أتأخر عن الموعد الميمون!

مطاردة المستحيل..!

ورغم أن الْمُخْبِر المكلف بمراقبة الأستاذ شاهد كل شيء، ورغم إعلامه السريع لمركز الشرطة بما جرى، فإن الجهات الأمنية لم تستطع تحديد الجهة التي رحلت إليها الجماعة، فاحتد غيظ مسؤولي الأمن، واستدعوا أحد طلابه إلى المركز، ثم أمطروه بوابل من الأسئلة:

- لماذا رحل أستاذكم؟ وإلى أين؟ ولماذا لم تخبرونا بذلك؟

أنكر الطالب معرفته باتجاه سفر أستاذه. وقال إنه من الممكن أن يكون قد توجه إلى "أغريدير"!

اشتعلت البرقيات والهواتف وسائر أنواع الاتصالات بين مختلف مراكز الأمن في مدن تركيا كلها، وأُعطيت أوصاف السيارة ورقمها إلى جميع مراكز الشرطة ونقاط التفتيش.. ولا عثروا له على أثر.. عجبا! أين اختفى؟ واشتد قلق الجهات الأمنية العليا، وترجل وزير الداخلية للإشراف بنفسه على أشرس ملاحقة لشيخ انطلق بعيدا عن ضجيج الغرب عساه يموت فردا..! وانطلق الغباء المجنون يطارد المستحيل في كل مكان، في محاولات يائسة للقبض على رجل يبحث عن موت هادئ! خَسِئَتْ يداك يا أيها الظلام! فأنَّى للأشباح أن تقبض على الأرواح!؟

كانت السيارة ترحل في عالم آخر، متدثرة بتراب النبوة ذَرّاً على أعين المشركين ليلة الهجرة، فصار الغبار الرقيق "مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ".

قال لي: كان الجو ممطراً فعمد الطلاب -بعد بضع كيلومترات من الانطلاق خارج المدينة- إلى تلطيخ رقم السيارة بالطين بصورة عشوائية!

وانطلقت تبتلع الأرض باتجاه "أورفة".. إلى أن وصلوها سالمين. ولكن ما أن نزلوا بأحد فنادقها الصغيرة حتى طوقت الشرطة المكان، ودخل المسؤولون على الأستاذ –وهو طريح الفراش– فتقدم منه أحدهم ثم قال بلهجة صارمة:

– إن عليكم أن تغادروا المدينة فوراً! وأن ترجعوا إلى إسبارطة، هذا أمر من وزير الداخلية نفسه!

فقال بديع الزمان:

– عجيب أمركم..! إنني لم آت إلى أورفة لكي أغادرها. إنني جئت لأموت هنا..! ألا ترون حالي؟..

ويلتفت إلى طلابه قائلا:

– اشرحوا أنتم حالي..!

وبدا لرجال الأمن أن إقناع هذا الشيخ المريض أمر مستحيل، فاستاقوا طلابه الثلاثة إلى مركز الشرطة للاستجواب، وكان هذا الجدل العقيم:

– لماذا أتيتم إلى هنا؟

– تنفيذا لأمر أستاذنا!

– ومن أعطاكم الإذن بذلك؟

– أستاذنا!

– ويحكم! أنا أقصد أي جهة رسمية؟

– نحن تبع لأستاذنا، ننفذ ما يقول دون مناقشة!

– قولوا لأستاذكم بأن هذه أوامر مشددة من السلطات العليا، وإن عليكم أن تتركوا أورفة حالا وترجعوا إلى إسبارطة! وإذا لم تستطيعوا الرجوع بسيارتكم، فسنجهزكم بسيارة إسعاف!

– إنه مريض جداً، ولا يستطيع تحمل مشقات سفر يستغرق أربعا وعشرين ساعة مرة أخرى!

– يجب أن ترجعوا..! هذه أوامر السيد الوزير!

– لا نستطيع التدخل في شؤون أستاذنا..! اعرضوا الأمر عليه أنتم، فإذا أمرنا بالرجوع رجعنا!

وينتفض مدير الأمن بشدة:

– مجانين! ماذا تعنون؟ ألا تستطيعون أن تعرضوا عليه أي أمر ؟

– نعم، لا نستطيع..!

ويصرخ مدير الأمن متغيظا:

– إذا كنتم مرتبطين أنتم بأستاذكم، فإنني أنا أيضاً مرتبط برؤسائي! وأنا أعطيكم مهلة ساعتين فقط لمغادرة المدينة!

واشتعل خبر محاولة السلطة لإخراج بديع الزمان النورسي، وانتشر لهباً تزأر ألسنتُه بكل أحياء المدينة، فحصل هيجان عام بين الأهالي، وتجمع عدة آلاف من الناس حول الفندق، وتوتر الأمر بصورة معقدة أدخلت السلطة المحلية في ارتباك شديد..! كان الخبر قد وصل إلى رئيس شعبة الحزب الديموقراطي بأورفة، فأسرع إلى مدير الأمن وخاطبه بحدة:

– إذا أخرجتم الأستاذ بديع الزمان من هنا فسأتعرض للسيارة بجسدي!.. أبدا لن تستطيعوا أن تمسوا منه ولا شعرة! ولا أن تنقلوه خطوة واحدة من غرفته.. إنه ضيفنا..!

– سيدي، إن الأوامر صادرة من أعلى، إنها من الوزارة نفسها؛ لذا يجب أن يرجع من حيث أتى.

– كيف يرجع؟ ألا ترون أنه في أشد حالات المرض؟

ثم بادر عدد كبير من الأهالي والجمعيات والتنظيمات المختلفة بإمطار أنقرة بسيل من البرقيات، مستنكرين بشدة عمل السلطة السيء، المنتهك لجميع القيم الإنسانية.

ورغم أن الطبيب الحكومي قد كتب تقريراً طبيّاً -بعد فحص الأستاذ- ينص على ضرورة استراحته، وخطورة سفره إلى أي مكان، فإن مدير الأمن بقي مصراً على موقفه. وقرر أن يأتي إلى الفندق ليقابل الأستاذ بنفسه. وأذن الأستاذ لمدير الأمن بالدخول عليه، فبلغه أن الأوامر قطعية وأن عليه أن يترك المدينة راجعاً إلى إسبارطة! فأجابه بديع الزمان:

- "إنني الآن في الدقائق الأخيرة من حياتي..! لا أستطيع الرجوع.. وسأموت هنا..! إن وظيفتك الآن هي أن تُحضر الأكفان وتهيء الماء لتغسيلي..!"

وساد الغرفةَ صمتٌ رهيب..! فما عاد مدير الأمن يستطيع أن يجيب، فبأي لسان يتكلم وهو يرى شيخا كبيرا مشرفا على الموت يلقنه درسا في بلاغة الرحمة والشفقة! وشعر الرجل بالخجل فغاص في بحيرة نفسه القارسة..!

كانت الأسماك الصغيرة تسرع هاربة من تيارات الماء البارد، تبحث في الأعماق عن أعشاش المرجان، أو عن مغارات هادئة عساها تنجو من عاصفة الجليد الزاحفة على الماء.. فتجد أن الثلج قد سبقها إلى تجميد القاع؛ فتصطدم بالموت القارس ثم تطفو مختنقة فوق الماء..! فأي ظلم هذا الذي يمارسه الاستبداد الأعور بهذا الزمان!؟

وخرج مدير الأمن مع شرطته من الغرفة منكسي الرؤوس..!

ثم تقاطر الناس على الفندق أفواجاً، فالكل يريد أن يفوز ببركة دعاء الأستاذ، وبالرغم من أنه لم يكن يقبل سابقاً مثل هذه الزيارات عند اعتلاله؛ فإنه الآن لم يَرُدَّ أحداً، بل قَابَلَ المئات من الناس، ودعا لهم واحداً واحداً..! فهذه روحه تنتثر نَفَساً نَفَساً، فلتكن في خدمة الآخرين حتى الخفقة الأخيرة! وماذا بقي له في هذه الدنيا ليدخر له من صحته؟

القبر المجهول..!

في المساء ارتفعت درجة حرارته أكثر وأكثر، فلم يعد قادرا على الكلام وإنما كانت شفتاه تختلجان بما يشبه الدعاء.. حتى إذا كانت الساعة الثانية والنصف ليلا جعل أحد طلابه يتحسس حرارته فوجدها قد انخفضت قليلاً، ثم غطاه، وقام بإشعال موقد الغرفة؛ ظنا منه أن ذلك علامة على تحسن صحته..! كانت العشر الأواخر من رمضان قد أنارت سريره ببركة ليلة القدر البهيجة، وكان الاحتفال الملائكي عظيما..!

ثم انبلج الفجر ولكن الأستاذ لم يستيقظ للصلاة..! ويكشف أحدهم الغطاء عن وجهه، فيعرف الحقيقة؛ لقد انتقل بديع الزمان إلى الرفيق الأعلى!

كان ذلك يوم الأربعاء، الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ١٣٧٩هـ، الموافق لـ: ٢٣ مارس ١٩٦٠م. ويصل الخبر مدير الفندق فيصعد مسرعا إلى غرفة الأستاذ، فإذا به يلتقي مدير الأمن بالباب، ويسأله مدير الأمن مضطربا:

- ما الخبر؟

- لقد توفي!

- ماذا؟ أتوفي حقاً؟

- نعم!

وانطلقت حركة الاستخبارات في كل مكان.. وحضر الطبيب الحكومي ففحص الأستاذ ثم أكد الوفاة وكتب تقريره بذلك. ثم جاء قاضي التركات

لحصر موروثات بديع الزمان النورسي، وبعد البحث والاستقصاء فتح السجل الرسمي وكتب فيه:

"ساعة، وسجادة، وعمامة، وجبة"..! أعطى ذلك لشقيقه عبد المجيد ثم انصرف.

وينتشر الخبر في "أورفة" كلها بسرعة، وما هي إلا لحظات حتى تجمهر الألوف من الأهالي حول الفندق، ثم انتشر الخبر بعد ذلك في كل المدن التركية، وبدأت الوفود من الناس بالوصول إلى المدينة أفواجا..

كانت جنازة مهيبة جليلة..! فقد حُمل نعش بديع الزمان على أكتاف طلابه ومحبيه، ومعهم عشرات الآلاف من المشيعين.. وبينما كان المطر ينزل رذاذاً لطيفاً من السماء وارى طلاب النور أستاذهم العظيم خلف التراب، بمقبرة "أولو جامع".

"بَيْرَام يُوكْسَل" أحد الطلاب الثلاثة الذين رافقوا النورسي من إسبارطة إلى أورفة، حيث عرجت روحه إلى السماء.. رفع يديه من قبر شيخه بأسى، ثم جعل ينظر إلى التراب العالق بكفيه، لم يستطع نفضه.. فماذا بقي له من شيخه غير هذا التراب؟ كانت عيناه تذرفان الدمع في صمت.. رفع بصره قليلا ونظر فيما حواليه، ثم نظر إلى الأفق البعيد.. كان العالم يتكسر من خلال مدامعه مثل الزجاج. فأطلق زفرات قوية كادت ترفع كبده إلى أعلى صدره! ثم ارتدت أنفاسه بعد ذلك إلى قعر خابيته، وأشعلتْ حديثا ينز من خلال شقوقها العميقة باللهب: "أحقا دفنا بديع الزمان؟ فمن للبيوت الصغيرة يؤنس وحشتها بالشموع والقناديل؟ ومن للسجون المظلمة يطرد شياطينها بالذكر والتراتيل؟ ومن للمنافي البعيدة يبهج روابيها بالتغريد والهديل؟ كيف نعيش بعدك يا أستاذنا كيف..؟ آهٍ ما أحَرَّ فراقك يا بديع الزمان..!"

وفجأة وقع بصره على أخيه "زبير"، كان الصمت هو لغة التواصل الوحيدة بينهما للحظات، فإذا بوجه زبير – كما كان يراه بَيْرَام لحظتَها – يَخْضَرُّ فيتفتح ورودا وأزهارا، وإذا بالأشجار تملأ المكان.. وتحط الطيور على الخمائل والأغصان تترى..! كان عصفور صغير قد حط على فنن يمتد قريبا من وجه "بيرام".. فما أن لامستْ ريشَه الذهبيَّ حرارةُ زفرات الفتى؛ حتى انتفض كالمجذوب على غصنه الصغير، وانتفخت حنجرته بالهواء الأخضر، ثم انطلق يغني مقطوعة الأمل من كلمات بديع الزمان النورسي:

"إن رسائل النور ستنشر حقائق القرآن في كل أرجاء العالم..

ستشرق شمسها في كل مكان..

ستدحض الكفر والزندقة المنتعشة في هذا الزمان..

وتكون منارات للسائرين على طريق الله!.."

كان "بَيْرَام" قد استيقظ من غفوته، فسمع "زبير" يخاطبه بحنو قائلا:

– أخي الحبيب.. خدمة رسائل النور تنتظرنا، فلا وقت للانتظار!..

وعندها نفض الرجل التراب من يديه! ثم ارتمى على صاحبه في عناق حار..! وانطلقا يشقان طريقهما في زحمة الجموع..

* * *

كانت سيارة الطلاب الثلاثة تضرب في طريقها راجعة إلى غرب الأناضول، لكن هذه المرة بغير بديع الزمان! فواأسفاه على لوعة الفراق..! كان الحزن يثقل سرعتها..! ولم يكن أحدهم يستطيع خرق الصمت المطبق على الجميع، كان مشهد الجنازة ما يزال يسكن مواجيدهم، فيذرفون الدموع بين الفينة والأخرى.. وكلما تجلت جموع الآلاف المشيعة للنورسي والزحام الشديد حول أعمال الدفن انتفض تساؤل عميق في قلوبهم جميعا:

كيف نطبق وصيته في شأن كتمان موضع قبره؟ كيف نجعله مجهولا وها قد عرفه الآلاف من الناس! وتتملك الحيرة مشاعرهم الحزينة، ولكن لا أحـد منهم يجرؤ على كشف حيرته للآخر، وتستمر السيارة في طريقها تغالـب رياح الأسى..!

....

ثم دخل طلاب النور بعد ذلك في امتحان عظـيم! ففـي ٢٧ مـايو ١٩٦٠م، أي بعد نحو شهرين من وفاة بديع الزمان، وقع انقلاب عسكري بتركيا! فأطاح بالحزب الديموقراطي وسيق أعضاء الحكومـة إلى "محكمـة الدستور"! و انتهت المأساة بتنفيذ حكم الإعدام على رئيس الوزراء "عدنان مندريس" وعلى اثنين من وزرائه، والحكم بمدد مختلفة على سائر الـوزراء والمسؤولين السابقين في تلك الحكومة. وأظهر الانقلابيون عداءً شديداً للدين وأهله!

وانطلقت خفافيش الظلام مرة أخرى تدوس بحوافرها النجسة كل معنى جميل..! واشتد السعار بالذئب الأغبر، فانطلق يجوب المدائن والقرى يرهب الأطفال والنساء.. يكشر عن أنيابه هنا وهناك، ويغرز مخالبه في كل شـيء يلقاه في طريقه! يعلن ألا أمن إلا لبني جنسه، ولا سلام إلا لقبيله وجرائه!

"عدنان مندريس" الرئيس المدني المنتخب لتركيا في بداية الخمـسينات، الذي بنى عشر سنوات للوطن، هو الآن جثة متدلية على مـشنقة دسـتور الوطن! لكن خطوته العظمى بتنفيذ قرار عودة الأذان الـشرعي، وإجازتـه للبلابل أن تعود إلى مآذنها مرة أخرى؛ لم تزل حَجَرَةً تغص بهـا حنـاجر الغربان، فلا عواء بعدها ولا نعيق إلا التغاريد والصداح! فكانت رأسـه - رحمه الله- ثمن إباحة الفضاء لأشواق الروح!

وجرت الدماء في الشوارع مرة أخرى تجرف كـل شـيء أمامهـا!

واحترقت حدائق السلام بالقلوب! وبحثت أشباح الظلام عن بديع الزمـان لقتله أو نفيه مرة أخرى.. ثم تذكر الذئب الحقود أن سعيد النورسـي قـد مات، فقرر نفيه في موته، وطرده من قبره بشرق البلاد إلى مكـان مـا في أواسط الأناضول..!

عبد المجيد شقيق الأستاذ بديع االزمان، جعل يقص شجونه ذات مـساء شجي، على لهيب دمعه الصامت:

بعد مرور خمسة أشهر على وفاة شقيقي اُستدعيت إلى ديوان الـوالي في قونيا، فذهبت. كان هناك ثلاثة جنرالات معه. فما أن استويت جالسا بين أيديهم حتى خاطبني أحدهم قائلا:

- "لا يخفى عليكم أننا نعيش ظروفاً حرجة، والزوار من كل الولايـات إلى قبر شقيقكم يزدادون يوماً بعد يوم؛ مما يشكل خطرا على الأمن العـام، ولذلك فقد صدر قرار بنقل رفاته - بمعاونتكم - إلى أواسط الأناضـول، فنرجو منكم توقيع هذا الطلب"!..

ومَدَّ إليّ ورقة عليها طلب باسمي..! ثم قرأتها كلمة كلمة فسرى بجسمي فزع شديد، وقلت:

- ولكن أنا لم أطلب هذا..! سيدي.. أرجوكم! دعوه مستريحا في قبره على الأقل..!

كان صوتي يختنق بعبرات الرجاء، ولكن الجنرال انتهرني بقوة قائلا:

- كفى..! هذا قرار الدولة! فلا مجال لإضاعة الوقت..!

وشعرتُ أنني أغرق في حميم بركان! وصرخ الألم الشديد بأعماقي: الله الله سادتي أنقذوني! إنني أحترق.. أحترق! أحْ...!

وانطلقت الطائرة العسكرية بنا في الفضاء تجاه "أورفة"..

كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل، أورفة هربت من دروبها..! ولا عابر في الشوارع إلا الجنود والسلاح..! فقبل المساء كان قد أُعلن حظر التجول في المدينة!

ذهبنا إلى المقبرة، كان هناك تابوتان في صحن الجامع، وثلاثة من الجنود.. اقترب مني رجل عرفت أنه طبيب عسكري، فربت على كتفي بإشفاق وقال لي:

– لا تقلق يا سيدي سننقل الأستاذ إلى أواسط الأناضول..

ولست أدري كيف هيج كلامه الحنون مواجعي؛ فلم أتمالك نفسي وأجهشت بالبكاء..! وساد المكان صمت كئيب.. وانتبه الطبيب إلى حرج الموقف، فأمر الجنود بهدم القبر، لكنهم جعلوا يترددون وكأنهم يتأثمون بذلك..! اضطرب الطبيب هلعا ثم قال: ما بالكم..؟ ويلكم نحن مأمورون! وليس أمامنا سوى التنفيذ! فحملوا فؤوسهم ببطء شديد، وجعلوا يهدمون القبر شيئا فشيئا إلى أن كشفوا عن التابوت. أمرهم بفتحه ففتحوه! قلت في نفسي: لا بد أن عظام أخي الحبيب قد صارت رميماً..! ولكني يا سادتي ما أن لمست الكفن حتى خُيِّلَ إليّ وكأنما هو قد توفي أمس فقط! كان الكفن سليماً إلا من صفرة قليلة جهة الرأس، وكانت هناك لطخة واحدة صغيرة على شكل قطرة ماء.. ثم كشف الطبيب عن وجهه، نظرت إليه فإذا هو كما كان وعلى شفتيه شبه ابتسامة..!

الله أكبر..! خمسة أشهر مضت، وجثة بديع الزمان ما تزال كما هي! لطيفة طرية وكأنه إنما مات بالأمس فقط، أو بالأحرى كأنه لم يمت! عجبا! وهل مات حقا؟.. لست أدري..!

رفعنا الجثة بلطف – ونحن نخشى أن يتكلم أو أن يصرخ فينا فجأة! – فوضعناها في التابوت الآخر، ثم انطلقت بنا السيارة إلى المطار. جلست بجانب

التابوت في الطائرة والأسى يمزق قلبي، كانت عيناي لا تكفان عن سح الدموع طوال الرحلة المجهولة.. فقد كان ذلك هو عزائي الوحيد في زمن صارت فيه الكلمة للحديد والنار..! نزلت الطائرة بمطار أفيون، ومن هناك نُقل التابوت إلى منفاه بإسبارطة حيث دفن في مكان مجهول..! ثم..

ثم لم يلبث عبد المجيد شقيق الأستاذ النورسي أن مات! وانطلقت حكمة القدر تلاحق كل الذين هرَّبوا التابوت في تلك الليلة الرهيبة! فمات الطبيب، ومات الجنود الثلاثة! وبقي مكان دفن بديع الزمان سرّاً سرمديا، ولغزا أبديا! عجبا..! وتمت وصية بديع الزمان – بإذن ربك – لطلاب النور! فبقيت القلوب متعلقة بمعراج روحه هنالك في أورفة معبرا نوريا إلى السماء، ثم صدحت المدارس مرة أخرى، تبث رسائل النور في الأمة، كلمات لا تطويها المقابر ولا يفنيها التراب!

مقام الختام

التقى طلاب النور بموعدهم من جديـــد، كانـــت وجـــوههم تفـــيض بالبشاشة، وعيونهم تشع بالسرور.. وما أن اكتمل مجمع الحمام حتى اهتزت الحناجر دفعة واحدة، صدًى جليلاً يَرُجُّ المآذنَ والقباب:

"يا سعيدُ..! يا سعيدُ..! كن صعيدا حتى لا تعكر صفو رسائل النور..!"

فانفلق برقٌ عظيمٌ في الأفق الأعلى، أضاء ما بين قرية "كوروجـــك" في "أرضروم"، ومدينة "أديرْنَه" في شمال غربي البلاد، ثم انطلق يـــركض مـــن "إزمير" في الجنوب الغربي من الأناضول إلى حاضرة اسطنبول في الشمال..! وفي أقل من طرفة عين كان قوس قزح يحتضن سماء كل العالم، ويغمر عيون الأطفال بألوانه السبعة! ورأيت الغيوم المخضرة مثقلة بالتين والزيتـــون..! ثم سمعت حمحمة خيول الفاتحين تسابق الرياح.. فناديت بأعلى صوتي:

– الرُّفْقَةَ يا "نِعْمَ الأميرُ أميرُهَا..!"

ويهطل المطر...!

....

انتهت.

فريد الأنصاري/ إسطنبول

18 رجب 1427هـــ، 12 غشت 2006م.

فهرست

إهداء ٥

شكر وتنويـــه ٧

فاتحة النور ٩

الفصل الأول: الأشباح تهاجم المدينة

حكاية: الرحيل إلى بلاد التجليات ١٩

مقامات الجنون ٢٤

جنون التعلم ٢٩

مقام رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم ٣٤

جنون القراءة ٣٦

الفصل الثاني: مكابدات "سعيد القديم"

حكاية: حال موسوي ينبعث في روحي! ٤٦

حكاية أخرى: النظر الحرام يسلب العالم سره..! ٥٨

جنون العلوم الحديثة ٦٠

مقام الابتلاء، مُكَابَدات "سعيد القديم"..! ٦٤

جامعة الزهراء وهمة الجنون! ٦٧

الفصل الثالث: إسطنبول بين الأولياء والأشقياء!

مع السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله ٧٦

مع مفتي الديار المصرية ٧٧

مع عمانوئيل كراصو..! ٧٩

مع جون تورك ٨١
حرية الفوضى..! ٨٣
مع جمعية "الاتحاد المحمدي" ٨٦
تمرد عسكري يكسر باب الخلافة..! ٨٧
مع الجنود المغفلين..! ٩٠
مع القضاة العسكريين ٩٢
حكاية: فتنة "بتليس" ٩٦

الفصل الرابع: تجليات الموت..!

المقام الأول: جبل "آرارت" يتكلم! ٩٩
مقام الجهاد..! ١٠٢
مقام الرحمة، حكاية ١٠٥
مقام الاستشهاد، تتمة الحكاية ١٠٨
مقام المدد..! ١١٢
مقام الاحتفال ١١٤
سجن الحكمة..! ١١٦
مقام الكلمة ١٢٠

الفصل الخامس: مكابدات "سعيد الجديد"..!

مقام توحيد القبلة ١٢٨
مقام الهدى ١٣١
مقام التفرد ١٣٢
مقام المشاهدة ١٣٣
مقام الغضب! ١٣٥
مقام الغربة! ١٤٠
مقام الهجران..!، حكاية ١٤٣

حكاية أخرى ١٤٦
مقام الاغتيال ١٤٩
الخلافة الإسلامية وحكاية النهاية..! ١٤٩
مقام الاحتراق..! ١٥٢
مقام الدخان ١٥٧
حكاية ١٥٩

الفصل السادس: منفى "بارلا" مولد النور والجمال..!

حكاية.. .... ١٦٦
حكاية أخرى ١٧٤
مقام التأسيس ١٧٨
فتوحات السجون وتجليات المنافي ١٨٠
الفتوحات اليوسفية بسجن "أسكي شهر" ١٨٢
حكاية ١٨٤
تجليات العناية الإلهية بمنفى "قسطموني" ١٨٦
حكاية: نشر الحكمة للتلاميذ ١٨٧
صاعقة المرافعات النورية في محكمة "دنيزلي" ١٨٨
منفى أميرداغ ١٩٣
بين محنة الإقامة الجبرية وجريمة التسميم! ١٩٣
الترحيل إلى سجن " أفيون " ١٩٥
حكاية ١٩٦

الفصل السابع: تجليات الحزن الجميل

حكاية: بكاء النوارس والحمام ٢٠٥
مقام المحاكمات الحرة ٢٠٨
الفتوحات اللاتينية ٢١٠

آخر المحاكمات تعلن يأس الظلام..! ٢١٤
مقام الشوق.. ٢١٦
ولـ"بارلا" في القلب حب عتيق!.. ٢١٦
مقام الوصايا: معالم آخر الطريق ٢٢٠
الْمَعْلَم الأول: عيد رسائل النور: ١٩٥٦م.............................. ٢٢٠
الْمَعْلَمُ الثاني: سياسة تَسُوسُ السياسة ولا تشتغل بالسياسة! ٢٢١
المعلم الثالث: النظرة الحرام تمحق البركة! ٢٢١
المعلم الرابع: خُذْ مَا صَفَا دَعْ مَا كَدَر..! ٢٢٢
المعلم الخامس: زيارات المحبة.. ٢٢٢
إشارات الدرس الأخير.. ٢٢٤
مقام الرحيل.. .... ٢٢٦
مطاردة المستحيل..! ٢٣١
القبر المجهول..! ٢٣٥
مقام الختام ٢٤٢

آخر الفرسان

كان قلبي يحدثني أنه ما يزال هناك... رغم أنه قيل لي: لقد مات منذ سنة: 1960م.. كيف؟ كيف يكون قد مات -يا سادتي- وأنا أكاد أجد ريحه لولا أن تفندون..! نعم كل الكتب تتفق على تاريخ وفاته المذكور. وأَصْدُقُكم القول: ما صدقت منها أحداً..! ولذلك قررت أن أراه! وعزمت على الرحيل، فحملتُ حقيبتي الصغيرة، وتوجهت تلقاء سيدة المدائن، خاتمة عواصم الإسلام: اسطنبول! ولكن قيل لي: لا بد من دليل. ودليل اسطنبول ليس كأي دليل! فلا بد أن يكون صاحب همة وفراسة.

ISBN 975-315-205-1
9 789753 152051

دار النيل

e-satış
www.kitapkaynagi.com